

تاريخ العرب والإسلام
منذ ظهور الإسلام إلى نهاية العصر الأموي





منشورات جامعة دمشق
كلية الآداب

تاريخ العرب منذ ظهور الإسلام إلى نهاية العصر الأموي

تأليفه

الدكتورة

عبد الكريم العلي

أ. د. شكران خربوطلي

أستاذة في قسم التاريخ

١٤٣٣-١٤٣٤هـ

جامعة دمشق

٢٠١٢-٢٠١٣م

فهرس المحتويات

الصفحة

٧	مقدمة.....
٩	توطئة: تاريخ العرب والإسلام.....
١١	تاريخ العرب قبل الإسلام.....

الفصل الأول

تاريخ عصر الرسول (ﷺ)

١٩	- التعريف بمحمد (ﷺ) ونشأته.....
٢٣	- ظهور الدعوة الإسلامية.....
٢٧	- مراحل الدعوة.....
	- حضارة العرب في عصر الرسول (ﷺ).....

الفصل الثاني

تاريخ العرب السياسي في العصر الراشدي

٨٣	- مقدمة.....
٨٣	- تاريخ العرب السياسي.....
٨٤	- خلافة أبي بكر الصديق.....
٩٥	- خلافة عمر بن الخطاب.....

- خلافة عثمان بن عفان ١٠٥
- خلافة علي بن أبي طالب ١١٤
- خلافة الحسن ونهاية الخلافة الراشدة ١٢٣
- حضارة العرب في العصر الراشدي ١٢٥

الفصل الثالث

تاريخ العرب السياسي في العصر الأموي

- الفرع السفيني ١٤٩
- الفرع المرواني ١٦٧
- سقوط الدولة الأموية
- حضارة العرب في العصر الأموي ٢٢٧
- الملاحق ٢٤٣
- المصادر والمراجع ٢٨٩

مقدمة:

شكل الإسلام نقطة انعطاف كبرى ليس في تاريخ العرب وحدهم وإنما في التاريخ الإنساني ككل. لذلك كان من الطبيعي أن يسترعي اهتمام الباحثين والمؤرخين قديماً وحديثاً وقد كانوا وما زالوا ينبئون في مسيرة الإسلام بحثاً وتحليلاً لاستخلاص العبر والدروس. ولمعرفة الأسباب التي استطاع الإسلام من خلالها أن يحدث هذا التغير الكبير وأن يصل إلى نتائج كان من الصعب أو حتى من شبه المستحيل التفكير بأنه يمكن الوصول إليها.

فالإسلام جاء في مجتمع له خصوصيته في المكان والزمان وبالتالي في الواقع الاجتماعي والسياسي والفكري وغير ذلك..

فعلى الصعيد الاجتماعي كان يشكل الولاء المطلق للقبيلة الأساس الذي يطبقه أفراد المجتمع ويشكل رؤساء العشائر والقبائل والملوك الطبقة المسيطرة والحاكمة إذا جاز التعبير ويدها كل السلطات القضائية والتنفيذية والتشريعية وأما بالنسبة للقوانين فكانت تحكم المجتمع عادات وتقاليد تعارفوا عليها وأصبح لها مسرى القانون.

أما على الصعيد السياسي.. فالقبائل العربية لم تخضع لحكم عربي مركزي إطلاقاً ولو خضعت جزئياً للروم والفرس فهي لم تتعامل مع قانون السلطة المركزية، والعلاقات بين القبائل لم تكن دائماً جيدة فهناك الكثير من الحروب والمنازعات إضافة إلى الغزو والسلب والسبي والثار كأمر اعتادها مجتمع شبه الجزيرة العربية.

أما على الصعيد الفكري فلا بد من الإشارة إلى أن العرب كان لديهم قيماً فكرية وعادات جيدة أيضاً كالاعتزاز بالنفس والمروءة والكرم والنجدة. وكان للشعر دوره البارز وللشعراء مكانة خاصة حتى وصل الأمر بهم لإقامة سوق للشعر في عكاظ والقصائد التي تفوز في ما نسميه اليوم بمسابقة للشعر كانت تعلق على جدار الكعبة حتى أطلق عليها اسم المعلقة. وكان يقال بأن الشعر ديوان العرب ويعد مصدراً من مصادر التاريخ العربي.

أما بالنسبة للمعتقدات الدينية فقد سادت الوثنية رغم وجود ديانات سماوية اعتنقتها بعض القبائل وقد أراد الله أن تكون الرسالة الإسلامية في هذا الجزء من العالم ولهذا الشعب بكل ما يحوي من متناقضات ومن تبيان في أخلاقه وعلاقاته سلباً وإيجاباً. وكان الرسول محمد (ﷺ) آخر الرسل وجاء الإسلام عقيدة شاملة لكل مناحي الحياة الروحية وغير الروحية ومعظم آيات القرآن الكريم تتحدث عن التشريع والقانون وتنظيم شؤون المجتمع وهو المصدر الرئيسي للتشريع في الدول الإسلامية. فكيف استطاع صاحب الرسالة في أن ينجح في مهمته؟ وأن ينقل هذا المجتمع الذي ذكرنا بعض خصائصه إلى مجتمع حامل للفكر والحضارة ينشر الحب والخير والتسامح والعدل ويؤسس لحضارة إنسانية من نوع جديد.

دأب المفكرون والمصلحون على الأخذ من مناهلها والسير على هديها هذا ولا بد من الإشارة إلى أن الإسلام نقل المجتمع العربي من قبائل متصارعة إلى ظل الدولة الواحدة واستبدل العادات والتقاليد بالتشريع والقانون كما ذكرنا لذا يرى علماء الاجتماع بأن الإسلام يعد ثورة على الصعيد الاجتماعي كما هو ثورة على الصعيد الفكري. وكانت الخطوات التي اتبعها الرسول (ﷺ) في تنظيم المجتمع بدءاً من هجرته إلى المدينة حتى انتقاله إلى جوار ربه.. نبراساً وهدىً وسنةً لمن جاء بعده من الخلفاء وقد كرس هذه القيم الراشدون ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

أما في العصور اللاحقة الأموية والعباسية فكان للسياسة بصماتها الواضحة ولكل عصر سماته وخصائصه مع الأخذ بالحسبان مجمل التطورات الحضارية لكل عصر من العصور.. وقد أثرنا في هذا الكتاب أن نقدم المعلومة بشكل واضح بسيط انسجاماً مع الخطة الدراسية في إطارها التعليمي والتعريف ولو بإيجاز بحضارتنا العربية الإسلامية الرائعة.

والله ولي التوفيق

المؤلفان

توطئة: تاريخ العرب والإسلام

تاريخ العرب قبل الإسلام

نشأ العرب في شبه الجزيرة العربية، هذه المنطقة المتنوعة التضاريس، فالقسم الأعظم من سطحها، بادية (أرض لا تصلح للزراعة، وليس فيها ماء)، إضافة إلى الجبال العالية في الغرب (جبل السراة) والجبل الأخضر في عُمان في الجنوب الشرقي منها. والملاحظ أن الأودية التي تقطع هذه الجبال تجري فيها السيول في بعض فصول السنة فتظهر المراعي، وهناك سهل ساحلي ضيق، تتركز فيه الأراضي الخصبة، بالإضافة إلى الصحارى التي تشكل غالبية مساحة الجزيرة العربية.

هذا الاختلاف الشديد في تضاريسها، جعل الصفة الغالبة على مناخها الحرارة والجفاف، فلا أنهار غزيرة، ولا أمطار موسمية، (عدا بلاد اليمن في الجنوب الغربي)، تساعد على نمو النباتات، وذلك بسبب ملوحة التربة، لذا ظهرت الزراعة في الواحات والأودية، الأمر الذي أثر سلباً على حياة الفرد فيها، مما دعا العربي إلى التنقل، وعدم الاستقرار إضافة إلى الغزوات المتكررة بين القبائل من أجل الماء والكأ، واستمرارية العيش في تلك المنطقة الصحراوية الجافة.

أما في السواحل فالحياة مستقرة بسبب وجود الأراضي الخصبة وازدهار الزراعة، فظهرت طبقة الحضر التي سكنت المدن كمكة والمدينة، والطائف، واليمن، والمنطقة الشرقية من شبه الجزيرة العربية.

والجدير بالذكر أن شبه الجزيرة العربية، تقع وسط العالم القديم الأمر الذي أعطاه أهمية عالمية، أدت إلى ازدياد النشاط التجاري فيها، فظهرت ممالك الجنوب، والشمال بسبب مرور القوافل التجارية في أراضيها، والتبادل التجاري مع الدول المجاورة، بيزنطة وفارس، اللتين تصارعتا من أجل السيطرة على هذه المنطقة الهامة عالمياً.

سيطرت فارس على القسم الشرقي من الجزيرة العربية والقسم الجنوبي الغربي منها، مقابل السيطرة البيزنطية على القسم الشمالي، ومحاولتها السيطرة بشكل غير مباشر عن طريق حليفاتها الحبشة للسيطرة على القسم الغربي منها، ولكن باءت محاولتها بالفشل. وحاولت السيطرة عن طريق تنصيب عثمان بن الحويرث الذي تنصر، وحاول بمساعدة بيزنطة تنصيب نفسه ملكاً على مكة فطرده أهلها، فلماذا كل هذه المحاولات من قبل بيزنطة؟

كانت غاية بيزنطة من كل هذه المحاولات ربط تجارة مكة معها، ولكنها لم تفعل، حيث بقي المكيون وعلى رأسهم قبيلة قريش هي المسيطرة على مكة، أضف إلى ذلك وجود بيت الله الحرام الذي زاد من أهميتها، حيث اعتبرت مكة محجاً للعرب تأتي إليها القبائل من مختلف الأصقاع، ولا ننسى تزامن الحج مع الأسواق الموسمية وما يجري فيها من تبادل للسلع، وقيام قريش بالتحالف مع القبائل وربطها بإيلاف، ضماناً لتسيير رحلة الشتاء والصيف. وقد ذكر القرآن هذه الرحلة، لذا كانت قريش تجمع الأموال من كافة القبائل العربية في الحجاز، وتسير آلاف الجمال، فأدى ذلك إلى غنى سادة قريش، وارتباط الزعامة بالمال.

ولم تكف بإيلاف القبائل إنما عقدت الأحلاف مع الدول المجاورة، أحاطت نفسها بنظام سياسي قوي لمنع ظهور الفوضى والسرقة، والقتل، والنهب من جانب البدو، ونتيجة لذلك باتت مكة ملتقى لجميع القبائل، هذا اللقاء ولد تمازجاً فكرياً، فازدهرت الحياة الأدبية والفكرية، والتي كان عمادها اللغة العربية بشرها، وقصائدها، وحكميها، وأمثالها.

فاللغة العربية مع تطور كتابتها من المسند والنبطي، والجيري، وتنوع لهجاتها بين عرب الشمال، وعرب الجنوب، بقيت المعبر عن فكر الإنسان العربي داخل شبه الجزيرة العربية وخارجها، حيث تضمنت كل المعاني والمثل والقيم الأخلاقية، والاجتماعية، وساعدت على تألق الشعر العربي، والذي يُعد المظهر الحضاري البارز عند العرب، منه تعرفنا على عادات العرب وأخلاقهم. «فالشعر ديوان العرب كما يقال».

ونظراً لمكانة الشعر عند العرب، كان للشاعر منزلةً عاليةً في قومه، لأن الشاعر لسان قومه.

وقد سيطر النظام القبلي، وانتشرت العصبية القبلية مما أدى إلى وجود بعض العادات السيئة.

وتنوعت الحياة الدينية في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام بين الوثنية، واليهودية، والمسيحية، والمزدكية، والمجوسية، والزرذشتية، والحنفية.

وسادت الفوضى، وتطلع الناس إلى المخلص، وانتظروا لحظة النور، فمتى يُدرك فجر الحقيقة؟ ومتى تشرق شمس الهداية؟

عصر الرسول محمد (ﷺ)

الفصل الأول: تاريخ عصر الرسول (ﷺ)

- ١- التعريف بمحمد (ﷺ) ونشأته.
- ٢- ظهور الدعوة الإسلامية.
- ٣- مراحل الدعوة:
 - أ- المرحلة المكية.
 - ب- المرحلة المدنية.
- ٤- حضارة العرب في عصر الرسول (ﷺ).



الفصل الأول:

تاريخ عصر الرسول (ﷺ)

كان العرب مهينين للنقلة، متأهين للثورة الدينية، والسياسية الكبرى التي ظهرت بداية بمظهر ديني، ثم اكتسبت طابعاً سياسياً وحضارياً.

فكيف ظهرت هذه الثورة؟ وأين ظهرت؟ ومن هو قائدها؟

١- التعريف بمحمد (ﷺ) ونشأته:

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب من قبيلة قريش^(١)، والدته آمنة بنت وهب من بني زهرة^(٢)، ولد في مكة المكرمة ١٢ ربيع الأول ٥٧١م الذي صادف تقريباً واقعة عام الفيل^(٣) يوم عزم أبرهة الحبشي على غزو مكة؛ لينقل مركز الثقل الديني من مكة إلى اليمن، حيث بنى كنيسة أطلق عليها اسم القليس، وجملها أحسن تجميل، ودعا العرب إلى الحج إليها، وافتتح جبهة قتال جديدة لصالح بيزنطة ضد فارس، وليسيطر على أسواق الجزيرة العربية، ولكن باءت حملته بالإخفاق^(٤).

نشأ محمد يتيماً، فقد توفي والده عبد الله قبل أن يرى محمد النور فنشأ في كنف جده وكان من عادة أشرف مكة إرسال الأطفال إلى مسترضعة في البادية، ليعيشوا في جوها النقي، وليكتسبوا فصاحة أهلها، وسلامة نطقهم، فأرضعته حليلة السعدية^(٥)، من قبيلة سعد بن بكر، وبقي لديها حتى سن الخامسة، وما لبثت أن توفيت والدته، وهو في سن

(١) ابن سعد: الطبقات ١/١٠٨.

(٢) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٣/٥، المسعودي: مروج الذهب ٢/٢٦٥.

(٣) ابن هشام: السيرة ١/٤٤-١٧٨.

(٤) ابن هشام: السيرة ١/٥٤ وما بعد.

(٥) ابن سعد: الطبقات ١/١٠٨.

السادسة، فتولى رعايته جده عبد المطلب الذي توفي ولحمد من العمر ثماني سنين، فكفله عمه أبو طالب، الذي لم يكن على جانب كبير من الغنى ومع ذلك فكان سيد قومه ويقوم بالرفادة والسقاية في مواسم الحج؛ لأن ذلك كان يخص بني هاشم واستأثروا به، وكان عمه يكن له أكبر الحب حتى كان يفضل له على أبنائه ويخصه بالعناية والحب الكبير الذي استمر طيلة حياته^(١)، وقام برعي الأغنام لأهله وكان (ﷺ) يذكر ذلك ويضيف أن الأنبياء قبله قاموا بهذا الأمر.

ولما بلغ التاسعة من عمره على قول، والثانية عشرة على قول آخر، رافق عمه أبا طالب في رحلة إلى الشام واليمن، فقابل هناك الراهب بحيرة الذي أشار إلى نبوة محمد^(٢). ولكن على الرغم من ذلك، يبدو أن حديث اللقاء مع بحيرة حديث اخترع بعد قيام الإسلام.

وعندما بلغ محمد (ﷺ) العقد الثاني من عمره شهد حرب الفجار^(٣) بين قريش بقيادة حرب بن أمية بن عبد شمس، وبين هوازن، وكان يرد النبال عن أعمامه، وشهد عقد حلف الفضول^(٤) لنصرة المظلوم، والذي أقيم في دار عبد الله بن جُدعان، حلفاً قال فيه محمد (ﷺ): (ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت).

يتبين من ذلك أن محمداً (ﷺ) شارك في نشاطات مكة التجارية والمدنية والحربية، فتبلورت شخصيته، ولمع نجمه، واشتهر بالاستقامة والأمانة، والكفاءة، الأمر الذي لفت أنظار المكيين إليه، وكان من بين هؤلاء سيدة اسمها خديجة بنت خويلد من بني أسد بن عبد العزى قرشية، ذات شرف، تاجرة، تستأجر الناس في تجارتها، فاتصلت بمحمد ليعمل

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٢/٢٧٨.

(٢) ابن هشام: السيرة ١/١٩١، ابن حبيب: المحبر ٩.

(٣) ابن هشام: السيرة ١/١٩٨.

(٤) ابن هشام: السيرة ١/١٤٣، القاسي: شفاء العزام ٢/١٥٧-١٥٨.

لديها في التجارة^(١)، فلبى الطلب برفقة غلام لها اسمه ميسرة إلى الشام، ولما عاد، قص عليها ميسرة ما رأى من أخلاق وأمانة محمد، الأمر الذي أثلج صدرها، لا سيما وأن تجارتها رجحت ضعف ما كانت تربح تجارتها فيما مضى، فأحبت أن تقترب منه، فطلبت له الزواج، وهو في الخامسة والعشرين من عمره، وكانت خديجة تناهز الأربعين^(٢) — وقد يكون هذا الأمر مبالغ به لأن المرأة بعد هذا السن لا تنجب هذا العدد من الأولاد، كما ورد في سيرة حياتها سبعة أولاد — فوجد فيها خير النساء، فهي ذات مال وشرف وعزة تليق بمقام النبي الكريم فهي من أشرف البيوتات في قريش وأكثر رجالها مروءة وأفضلهم خلقاً وأدباً حتى كان يلقب بين قومه بالصادق الأمين.

قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ (٥) ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ (٦) ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ (٧) ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ (٨) ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ (٩) ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ (١٠) ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (١١) ﴿٣﴾.

ولم يفكر في الزواج من غيرها، رغم وجود عادة تعدد الزوجات، وزواجها قبله مرتين، وقد أعقب (ﷺ) جميع أبنائه من خديجة ما عدا إبراهيم فأمه مارية القبطية التي أهداه إياها المقوقس حاكم مصر.

ويبدو أن محمداً (ﷺ) بعد زواجه من خديجة، أصبح مسؤولاً عن أعمالها التجارية والمالية، وهذه المسؤولية، هيأت له فرصاً جديدة للتعرف عن كنب إلى ما كان يجري في مكة، وسواها، فقد شهدت هذه الحقبة صراعاً جشعاً من أجل المال والتجارة، إلى جانب الصراع العقائدي والثقافي بفضل احتكاكها التجاري بالشعوب المحيطة بها.

(١) ابن هشام: السيرة ١/٢٠٠.

(٢) ابن هشام: السيرة ١/١٩٨، الطبري: تاريخ ٢/١٨١-٢٨٠.

(٣) سورة الضحى: الآية ٥-١١.

في هذا الوقت تعرضت الكعبة لبعض أحداث الطبيعة، ورأى أهل مكة إعادة بنائها، وشارك الرسول (ﷺ) في هذا العمل^(١)، وعندما اختلفوا على إعادة وضع الحجر الأسود في مكانه، وكادوا أن يقتتلوا من أجل ذلك ثم اتفقوا على أن أول من يطلع عليهم في المكان يكون الحكم في هذا الأمر، وكان أول من قدم إليهم محمد (ﷺ)، ووجدوا فيه خير من يصلح لحل هذه المشكلة. وكان الحل الذي اعتمده أنه طلب ثوباً، ووضع الحجر فيه، وطلب من كل قبيلة أن تمسك بناحية منه، ثم حمل الحجر بيديه الطاهرتين ووضعاه مكانه. والمفيد ذكره أنه في هذه الحقة، تم تهذيب بعض ممارسات أعمال الحج وطقوسه، وسرى بين صفوف أهلها تيار ينقد بقسوة وثنية قريش من هؤلاء: ورقة بن نوفل ابن عم خديجة الذي اعتنق الدين الحنيف، وهناك من يرى أن ورقة كان على دين النصارى، ومع أن الأحناف كما يرد في المصادر لم يكن ديناً واضحاً، أو يدعو إلى تنظيم ديني، فهناك من يرى أنهم أتباع إبراهيم الخليل ويستشهدون بقول النبي (ﷺ) اتبعت ملة آبائي إبراهيم حنيفاً^(٢) مسلماً.

وهناك من يسمي هؤلاء بالمتحنين — أي المتأملين — والتحنن عادة كان يقوم بها بعض رجال قريش حيث يلجأون إلى غار حراء^(٣) للتأمل والتفكير وكان من بينهم زيد ابن نفيل عم الفاروق عمر بن الخطاب، وكان محمد (ﷺ) ممن ينقطعون إلى غار حراء يتحنن به، ويتعبد، ويتأمل بعيداً عن ديانة قريش الوثنية التي لم يؤمن بها يوماً.

(١) ابن هشام: السيرة ٢٠٤/١، الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٢٩٠/٢.

(٢) الحنفية لم تكن دين أو تنظيم ديني، والإسلام ليس إحياء رسالات سابقة إنما خلاصة الفكر الإنساني والديني وقد حجب كل ما قبله (تضمنه وتجاوزته).

(٣) زكار وخربوطلي: تاريخ الدولة العربية الإسلامية الأولى، ص ٦٤.

٢- ظهور الدعوة الإسلامية:

من المفيد أن نذكر بالأسس التي يقوم عليها المجتمع القرشي وحتى مجتمع شبه الجزيرة ككل.. فالواقع الاجتماعي واقع قبلي بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى الانتماء للقبيلة كلياً، ويشكّل رؤساء القبائل وشيوخ العشائر والملوك الطبقة المسيطرة في المجتمع ويدهم كل السلطات. هذا وتشكل العادات والتقاليد المتعارف عليها القوانين النازمة لهذا المجتمع...

أما بالنسبة للواقع الاجتماعي.. فهناك المملأ أو الأعزاء.. أو السادة.. وهناك الفقراء الأحرار. بالإضافة إلى العبيد الذين لا يملكون حتى حريتهم أما بالنسبة للواقع الاقتصادي. فبالرغم من فقر الجزيرة بالزراعة فهناك أراضٍ تصلح للزراعة كما ذكرنا في المقدمة وهناك علاقات زراعية تعد متطورة في حينها.. مثل المغارسة أو العمل حسب نسب مئوية يتفق عليها في الإنتاج أما بالنسبة للتجارة فشكّلت الحرفة الأرقى في المجتمع لأن من يمارسها كان سادة القوم وكانت التجارة أحد أهم متركزات اقتصاد المجتمع القرشي.

أما الجانب الديني فرغم وجود ديانات سماوية فقد سادت الوثنية وهناك من يفسر هذا الأمر مثل المؤرخ عبد العزيز الدوري بأنه تعصب قومي لأن العربي يأنف أن يدين بدين أعدائه فاليهودية تحظى بحماية الفرس والمسيحية ترعاها بيزنطة.. ومع ذلك فإن الواقع الديني يمكن أن يوصف بأنه واقع قلق ورغم سيادة الوثنية هناك شك كبير في عبادتها. ولكن قريشاً كانت مدعوة للحفاظ عليها لما لها من دور في تثبيت زعامة قريش السياسية هذا بالإضافة إلى الدور الاقتصادي الذي تقوم به من خلال الحج والنذور والهبات والقرابين التي تقدم لهذه الآلهة والأسواق الاقتصادية التي تقام في مواسم الحج مما يعود بالفائدة الكبيرة على القرشيين؛ وبالتالي يمكن أن تصنف من الأسس التي تدعم الاقتصاد القرشي وتساهم في تطوره وازدهاره.

في هذا المجتمع الذي يحوي كل هذه المتناقضات والمكونات جاءت الدعوة الإسلامية وإلى هذا المجتمع اختار الله سبحانه وتعالى محمداً ليكون نبياً رسولاً وهادياً ومبشراً ونذيراً.

لقد صقلت الخلوات نفس محمد (ﷺ)، وأعدته روحياً لتلقي الوحي وفي رمضان، عندما بلغ محمد (ﷺ) الأربعين من عمره^(١)، نزل عليه الوحي على شكل رؤيا (حلم)، رغم أن القرآن الكريم لا يشير إلى السن الذي تنزل فيه الوحي على الرسول (ﷺ) تقول الآية: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(٢)، ولكن باعتبار سن الأربعين، هي سن النضج والكمال، يجعلنا نميل إلى الاعتقاد مع ما هو معروف ومقبول، أن نزول الوحي كان ومحمد (ﷺ) في الأربعين من عمره تقول الآية الكريمة: ﴿وَإِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾^(٣).

وهكذا وباتفاق أغلب الروايات أنه الوحي مثل فلق الصبح حيث فاجأه الحق، فأتاه فقال: يا محمد! أنت رسول الله، قال محمد (ﷺ) فحشوت لركبتي، وأنا قائم، ثم زحفت ترتجف بوادري، ودخلت على خديجة، فقلت: زملوني، زملوني، زملوني، حتى ذهب عني الورع ثم أتاني الوحي، فقال: يا محمد أنت رسول الله، قال محمد (ﷺ): فهممت أن أطرح نفسي من حالق من جبل، فقال: يا محمد! أنا جبريل، وأنت رسول الله، ثم أتاني بنمط من ديباج، فيه كتاب، وقال: اقرأ، فقلت: ما أقرأ؟ قال فأخذني فعتني^(٤) ثلاث مرات حتى بلغ مني الجهد ثم قال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾^(٥).

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٢/٢٩٠.

(٢) سورة يونس: الآية ١٦.

(٣) سورة الأحقاف: الآية ١٥.

(٤) ضمنني.

(٥) سورة العلق، الآية ١-٥.

ثم انتهى فانصرف عني، وهبت من نومي، وكأنا صور في قلبي كتاب، فأتيته خديجة، وأخبرتها، فقالت: أبشر فوالله لن يخزيك الله أبداً، ثم انطلقت بي إلى ابن عمها ورقة ابن نوفل فسألني عن خبري، فقال: قدوس قدوس، هذا الناموس الذي أنزل على موسى، إنك نبي هذه الأمة، ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك، قلت: أخرجني هم؟! فقال: نعم، إنه لن يبيء رجل بما جئت به إلا وعودي^(١).

وفي القرآن الكريم إشارات واضحة تشير إلى كيفية نزول الوحي على محمد (ﷺ) بقوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝١٠﴾^(٢). وقوله تعالى أيضاً مشيراً إلى اليوم والشهر الذي أنزل فيه الوحي، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝٣﴾ وكذلك قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾^(٤).

وأخذ الوحي يتردد على محمد (ﷺ) يبلغه رسالات ربه، وذلك بأشكال عديدة، وكان محمد (ﷺ) دائماً يقدر على التمييز بين كلامه الخاص وبين ما كان يوحى إليه. والغاية من الوحي رسالة جديدة ودين ارتضاه الله لعباده الذين تركوه وهي آخر الرسالات وأصبح اسم هذا الدين في عهد محمد (ﷺ) الإسلام، وهي كلمة مشتقة من سَلَّمَ، وتعني الاستسلام لأمر الله، وتقبل محمد كرسول الله، وكلمة الإسلام لم تكن موجودة قبل محمد (ﷺ)، وكل ما يحيط بالإسلام يأتي عن طريق القرآن الذي أنزل بلغة

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٢/٢٩٨-٢٩٩.

(٢) سورة النجم: الآية ١-١٠.

(٣) سورة القدر: الآية ١.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٨٥.

أهل الحجار، وبأسلوب بقية الكتب المقدسة، ولا يجوز تسمية الإسلام لدين محمد، كما فعل المسيحيون، لأن محمد (ﷺ) غرضه الدعوة لدين الحنفية والذي صار اسمه الإسلام. بعد أن اعتاد محمد (ﷺ) على الوحي، وترسخت معالم النبوة في نفسه، أخذ يبشر بما جاءه من عند الله، وأدخل مبدأ التدرج في تشريعه، واعترف بالتطور، بعكس البداوة المحافظة. لذا مرت الدعوة الإسلامية بمراحل.



٣- مراحل الدعوة:

أ- المرحلة المكية: وقد مرت المرحلة المكية أيضاً بمراحل:

١- المرحلة الفردية: وهي المرحلة الأولى، سميت الفردية لأن الرسول (ﷺ)، كان يدعو أهل بيته، وأقاربه على انفراد، وسموا السابقين الأولين، فأول من آمن به، زوجته خديجة، وابن عمه علي بن أبي طالب، ومولاه زيد بن حارثة، ولم يقتصر الأمر على أقاربه بل آمن به أيضاً بعض رجالات قريش كأبي بكر الصديق الذي أسلم على يديه وعثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف^(١).

وتلا هؤلاء رجال من أفذاذ قريش كأبي عبيدة بن الجراح، والأرقم بن أبي الأرقم الذي أصبحت داره فيما بعد مركز الدعوة السرية إلى الإسلام، وأبي سلمة، وعبيدة بن الحارث، وعثمان بن مظعون وفاطمة بنت الخطاب، وأسماء بنت أبي بكر الصديق، وخباب ابن الأرت، وآمن به بلال الحبشي، وأم بركة الحبشية، وقد استمرت هذه المرحلة ثلاث سنوات^(٢). كان المسلمون فيها يقيمون الشعائر الدينية في الخفاء، وفي منأى عن أعين قريش، وكانوا يقيمون الصلاة في شعاب مكة بعيداً عن رقابة قريش. وتصادف أن مرّ نفر من القرشيين مرة بجماعة من المسلمين يؤدون صلاتهم في شعب من هذه الشعاب^(٣). فاستخفوا بهم، وعابوا عليهم ما يصنعون فما كان من الجماعة المسلمة إلا أن ردت عليهم، وتطور النقاش بين الطرفين إلى حد الاقتتال، وتذكر المصادر أن سعد بن أبي وقاص وكان من أفراد الجماعة المسلمة، هاجه ذم القرشيين للدين الجديد، فضرب رجلاً من المشركين بعظم بعير، فشجّه، ويعد هذا أول دم أهرق في سبيل الإسلام.

(١) ابن هشام: السيرة ٢٦٧/١ وما بعد.

(٢) الطبري: تاريخ الرسول والملوك ٣١٨/٢، ابن الأثير: الكامل ٦٣/٢.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٣١٨/٢، ابن الأثير: الكامل ٦٣/٢.

٢- المرحلة الجماعية: وتبدأ عندما نزل على الرسول (ﷺ) قوله تعالى: قَالَ تَعَالَى أَهْلُ

بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿١﴾ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴿٢﴾ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٣﴾ ﴿١﴾ فدعا الرسول (ﷺ) آل هاشم ليجتمعوا به، وقال لهم: (إني ما أعلم شاباً جاء قومَه بأفضل مما جئتم به، فلقد جئتمكم بخير الدنيا والآخرة، وإني لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا لا إله إلا الله). فقال أبو لهب: (تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعنا) ^(١)، فانزل الله تعالى فيه سورة المسد: ﴿تَبَّتْ يُدَا أَيْ لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ ^(٢).

٣- المرحلة الثالثة: تبدأ بعد أن أمره الله تعالى بقوله: ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ

الْمُشْرِكِينَ﴾ ^(٣)، فدعا بطون قريش من فوق جبل الصفا بظاهر مكة، ونادى كل بطن من بطون قريش باسمها، فلما اجتمعوا إليه قال لهم: أرايتم لو أخبرتمكم أن نخيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقين؟ قالوا: نعم ما جربنا عليك كذباً، فقال إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ^(٤)، وأعلن الدين الجديد فلما ذكر آلهة قريش وغابها، وسفهاها بسوء، أعلنت قريش العداء الجدي لحمد وذلك لأسباب دينية واجتماعية وسياسية واقتصادية.

فدينياً: تخرص قريش على عبادة موروثه، وعبادة قومية تؤمن لها الزعامة الدينية على جميع العرب، فالإسلام يدعو إلى عبادة إله واحد، له السلطة وحده، وقريش تكره الخروج عن دين الآباء، والإسلام يبشر بالبعث والحياة بعد الموت، والحساب للمحسن والظالم

(١) سورة الشعراء: الآية ٢١٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٦٠/٢.

(٣) سورة المسد: الآية ١-٥.

(٤) سورة الحجر: الآية ٩٤.

(٥) حسن: تاريخ الإسلام، ص ٨١.

ويتحدث الإسلام أيضاً عن الجنة والنار والقيامة.. الخ وكلها مفاهيم دينية جديدة بالنسبة للبهدي، وحتى المجتمع المكي.

واجتماعياً: الإسلام يهدد النظام الاجتماعي بفرضه مفاهيم جديدة فهو يدعو إلى المساواة بين المسلمين، بصرف النظر عن أي انتماء قبلي، أو عرقي، وجعل المعيار التقوى، وألغى الفروقات الطبقية بين الناس، فانعكس ذلك إيجاباً على العبيد، وعلى النساء، والأطفال، وخاصة لجهة الزواج والميراث، وأخذ الثأر، وألغى الإسلام عصبية الدم، وأحل مكانها عصبية الإيمان، ودعا إلى الأخلاق الحميدة، والنهي عن المنكر والظلم^(١).

واقتصادياً: حرم الإسلام الربا، وفرض الزكاة، وأنكر اكتناز الذهب فأضر ذلك بتجار مكة، وسدنة الكعبة، وتجار الأصنام، أضف إلى ذلك أن عبادة الأوثان، هي المصدر الرئيسي لما كانت تجنيه قريش في مواسم الحج من ثروات.

وسياسياً: أدخل الإسلام مبدأ السلطة لله وحده، وكل سلطة تشريعية فباسمه، والشرعية هي القانون الإلهي فلا سلطة أو قانون فوقها، والرسول ينفذ الشريعة الإلهية التي لا تنفصل عن الشريعة، والسلطة الدنيوية، فالدين والدولة واحد، وهذا المفهوم السياسي غريب كلياً على البهدي في شبه الجزيرة العربية، والذي لا يعترف بأي سلطة، أو قانون خارج قبيلته.

أضف إلى ذلك أن نجاح دعوة الرسول (ﷺ) تعني تغيير الزعامة، وبالتالي زوال زعماء، وتجار، وأثرياء قريش، وسبيلهم للزعامة أشخاص تنبع زعامتهم من مفهوم، ومبادئ الدين الجديد.

(١) الدوري: مقدمة في صدر الإسلام، ص ٣٧-٣٨.

والواقع أن قريش لم تفرق بين الرعامة والنبوة، لأنها تنطلق من معارضتها للدعوة من مفهوم قبلي، وعداء قديم على مبدأ الرعامة بين آل هاشم، وآل أمية، مثلاً بعبد الدار، وعبد مناف، رغم أن القرآن الكريم وضع أن الرسول (ﷺ) بشير نذير لقومه.

لكل هذه الأسباب قدمت جماعة من قريش إلى أبو طالب عم النبي، وأبلغته أن ابن أخيه سب آلهتها، وعاب دينها، وسفه أحلامها، وضل آباءها، وطلبت منه إما أن يكف عنها، أو يخلي بينه وبينها، فردهم أبو طالب رداً جميلاً، ووعدهم مخاطبة محمد في ذلك^(١).

وكان أبو طالب ملماً بكل ما يفعله ابن أخيه، وكان يعطف عليه ويمنعه، ويبدو أنه لم يشأ أن يحدّثه فيما خاطبه القرشيون، ومضى رسول الله (ﷺ) على ما هو بسبيله من الدعوة للإسلام، وكان إيمان النبي (ﷺ) برسائله قوياً عميقاً، راسخاً، فلم يرهبه تهديد قريش له، ووعيدها لدينه، فواصل أداء رسالته، فاجتمع مجدداً وفد منها وقصد أبا طالب، فقالوا له: يا أبا طالب إن لك سناً وشرفاً ومزلة فينا، وإنا قد استهيناك في ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا، أو تنازله، وإياك في ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين، ثم انصرفوا عنه، فعظم الأمر على أبي طالب، وحار فيما يفعل أمام ضغوط قريش عليه، فبعث إلى رسول الله (ﷺ). وقص عليه بما حدثه قومه بشأنه، ورجاه أن يبقى على نفسه، وعليه، ولا يحمل عمه ما لا يطيق، فظن رسول الله (ﷺ) أن عمه قد ضعف عن نصرتة، وخلده، وأنه سيسلمه إلى قريش، فقال رسول الله (ﷺ) لعمه: يا عم والله، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر، حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته، ثم استعبر رسول الله (ﷺ) فبكى،

(١) زكار وخربوطلي: تاريخ الدولة العربية الإسلامية الأولى، ص ٦٨.

وقام منصرفاً، فناداه عمه، وقال: اذهب يا ابن أخي، فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً^(١).

ومنذ ذلك الحين نذر أبو طالب حياته، وأوقفها على حماية محمد، ولم يكن قد انحاز إلى صف الإسلام، فقد ظلت علاقته بهذا الدين تابعة من كون صاحبه يمت له بصلة القرابة والنسب، وبالتالي عليه الحماية، والدفاع، يخالف قومه ويعارضهم في شأنه، وكان يحنو عليه، ويسيطر عليه حمايته، رغم مبالغة قريش في مناهضة الإسلام، ومناوأة النبي ﷺ وأتباعه، فوثبت كل قبيلة منها على من أسلم من أبنائها يعذبونهم بالضرب والجوع والعطش وبرمضاء مكة أيام الحر الشديد^(٢)، ليفتنوهم عن دينهم، فمات عمار بن ياسر من التعذيب، وطعن أبو جهل أمته سمية لأنها أغلظت له الكلام، وعذب أيضاً بلال الحبشي، وخباب بن الأرت وعبد الله بن مسعود الذي قرأ القرآن في فناء الكعبة، وبالمقابل لم تفعل قريش بالرسول أول الأمر ما فعلته بأتباعه من المستضعفين وذلك لمكانة عمه أبي طالب وحماية بني هاشم له ولكنها لما وجدت منه الإصرار على دعوته، لجأت إلى الأساليب المعنوية، فقام الوليد بن المغيرة وأتباعه بتحقيق الرسول والاستهزاء بما يقوله، وقد ذكر القرآن الكريم الحوار بين الرسول والمكيين، فادعوا أن ما جاء به الرسول من أساطير الأولين^(٣)، واقسموه بالجنون^(٤)، والكذب^(٥) والمفتري^(٦)، ونسبوا إليه صفة الشاعر والكاهن^(٧)، ولم

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ٦٣/٣.

(٢) ابن هشام: السيرة ٣٨٠/١ وما بعد.

(٣) سورة المؤمنون: الآية ٨٣.

(٤) سورة الحجر: الآية ٦.

(٥) سورة الصافات: الآية ١٤.

(٦) سورة الفرقان: الآية ٤.

(٧) سورة الصافات: الآية ٣٦.

يصدقوا أن بشراً مثلهم يمكن أن يكون نبياً، فطالبوه بالمعجزات وقالوا: بأنه ساحر^(١)، لكن كل هذه الأساليب لم تجد نفعاً، ولم تضعف من نشاط الرسول (ﷺ) في نشر الدعوة. ومرة تعرض الرسول لإهانة من أبي جهل، وصادف أن مر حمزة عم الرسول، وعلم ما حدث لحمد فاستشاط غيظاً، وذهب إلى أبي جهل، وضربه بالقوس، وأعلن إسلامه، وبالوقت نفسه أسلم عمر بن الخطاب وبعض رجالات قريش البارزين فأصبح الوضع أكثر تعقيداً والدعوة أكثر منعة مما دفع قريش إلى المساومة على قتل الرسول، فحاول عقبة بن معيط خنقه، فلم يأبه لذلك، ولم توهن عزيمته، عن المضي في دعوته، ولكنه خاف على أتباعه من قريش فأمرهم بالمهجرة إلى الحبشة.

— الهجرة إلى الحبشة:

لماذا اختار الرسول (ﷺ) الهجرة إلى الحبشة دون سواها؟ يتوضح الجواب من عبارة قالها الرسول (ﷺ) لأتباعه قبل الهجرة (لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه)^(٢). أضف إلى ذلك فرما كان هدفه من ذلك إبعاد أتباعه عن وثنية الجزيرة العربية مخافة الفتنة، وفراراً إلى الله بدينهم، فيعيشون هناك في جو موحد هو النصرانية. وقد كانت هذه الهجرة خطوة سياسية موفقة من جانب الرسول (ﷺ)، فخرج أحد عشر رجلاً، وأربع نسوة متسللين إلى الشعيبة^(٣)، فركبوا في سفيتين لبعض التجار إلى بلاد بلاد الحبشة^(٤)، مقابل نصف دينار عن كل شخص، وتتابع المهاجرون بالسفر إذ إنهم لم

(١) سورة المدثر: الآية ٢٢-٢٥.

(٢) ابن هشام: السيرة ٣٤٤/١-٣٤٥، ابن كثير: البداية ٨٥/٣.

(٣) مرفأ مكة ومرسى قبل جدة.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٣٢٩/٢.

يهاجروا في فوج واحد، بل في أفواج متتابعة، حتى بلغت عدتهم ثلاثة وثمانين رجلاً، وإحدى عشرة من النساء، وكانت هذه الهجرة في رجب في السنة الخامسة من البعثة^(١).

ولما علمت قريش نحرجت في آثارهم، فلم يدركوا منهم أحداً، فأرسلت عمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة إلى الحبشة في محاولة منها لإقناع النجاشي بأن أتباع الرسول من السفهاء المرتدين عن دين الأجداد، فطلب النجاشي المسلمين، ليوضحوا حقيقة الأمر، فقال جعفر بن أبي طالب: بأنهم تركوا عبادة الأوثان، وعبدوا الله، فأذاهم قومهم، فاضطروا إلى الحرب طلباً للأمان، وطلب النجاشي من جعفر أن يقرأ ما أوحى إلى الرسول محمد (ﷺ) فتلا عليه بعض الآيات من سورة مريم، فقال البطارقة هذه كلمات من النبع التي صدرت منه كلمات عيسى المسيح وقال النجاشي وهذا الذي جاء به موسى عليه السلام، انطلقوا فلا والله لا أسلمهم إليكم^(٢).

هذه الهجرة كان لها أثر كبير في نشر الإسلام، وترغيب الإسلام فيه، فقد ذاع بين العرب أن فريقاً من القرشيين هاجروا إلى الحبشة فراراً بدين تلقوه عن نبي مكة. وبذلك سمع عن الدين الإسلامي من لم يسمع به من قبل، يضاف إلى هذا فإن هذه الهجرة برهان مبكر على عالمية الإسلام، ذلك أن المهاجرين نجحوا في نشر الإسلام في ديار النجاشي، وهناك من يرى أن النجاشي نفسه دخل بالإسلام، وعلى هذا دخل الإسلام إلى وادي النيل منذ أيام النبي (ﷺ).

وقد بقي الرسول (ﷺ) مقيماً بمكة يدعو إلى الله، معرضاً نفسه لعداوة قريش، وخصومتها، ولكن بعد إسلام حمزة عم النبي وعمر بن الخطاب كما سلف ذكره بدأ الإسلام ينتشر بين القبائل.

(١) ابن كثير: البداية ٨٤/٣.

(٢) ابن هشام: السيرة ٣٥٦/١.

فاجتمعت بطون قريش، واتفقوا على أن تكتب كتاباً، يتعاقدون فيه على مقاطعة بني هاشم، وعدم التعامل معهم، ومناكحتهم، وكتبوا ذلك في صحيفة، وعلقوها في جوف الكعبة^(١)، فهرب بنو هاشم إلى شعاب مكة، وقطعت قريش عنهم المون، وجذبت قريش أبا لهب، وعبد العزى عمي الرسول، فصارا يعملان ضد آل هاشم، وضغطت اقتصادياً على أبي بكر، فتناقصت ثروته، وبقي آل هاشم، وأتباع الرسول على هذه الحال ثلاث سنوات، قطعت قريش عنهم خلافاً الميرة حتى بلغهم الجهد، وتصارع صبيانهم جوعاً، ومات نفر منهم، حتى قام بعض شباب قريش ذاتها، ومزقوا الصحيفة، وطلبوا من بني هاشم، وبني المطلب العودة إلى مساكنهم.

والواقع إن أهم ما حدث في أثناء المقاطعة وفاة عم الرسول أبو طالب، والسيدة خديجة بنت خويلد زوجته في عام واحد سماه الرسول عام الحزن^(٢)، لأنه فقد سندين وناصرين له في نضاله في سبيل الحق.

وفي هذه الفترة حدثت معجزة الإسراء بالنبي (ﷺ) من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى ببيت المقدس، وعرج في هذه الليلة إلى السماء، وبعد الإسراء والمعراج فرضت الصلوات الخمس^(٣).

والمفيد ذكره أن حادثة الإسراء والمعراج رسالة من الباري تعالى أن الطريق إلى السماء يمر عبر الأقصى فلا يمكن الاستهانة، والتفريط به فلاستهانة بالأقصى استهانة بالحرم الشريف.

لقد جاء الإسراء هدى ورحمة لمن آمن به وصدق، وتخفيفاً عن النبي (ﷺ) بعد وفاة أعظم مدافعين عنه، ومع ذلك فقد عُدَّ هذا العام من أشق أعوام دعوته، إذ اجتراً سفهاء

(١) ابن هشام: السيرة ١٤/٢، أبو الفدا: المختصر ١١٩/١.

(٢) قدورة: تطور تاريخ العرب، ص ٧٥.

(٣) ابن هشام: السيرة ٥٧/٢، ابن كثير: البداية ١٥١/٣-١٥٦ وما بعد.

قريش على النبي (ﷺ) ونالوا منه بإيذائهم له، ما لم يكونوا يصلون إليه، ولا يقدرّون عليه في حياة أبي طالب^(١).

ورأى الرسول (ﷺ) بعد ذلك أن يلجأ إلى بلد آخر غير مكة — الرحلة إلى الطائف — خرج إلى الطائف، ومعه زيد بن حارثة، يلتمس من قومه ثقيف النصر^(٢). فما سبب اختيار الرسول (ﷺ) ثقيف دون غيرها؟

كان هناك علاقات وثيقة بين أهل الطائف والقرشيين فقد ارتبطت الطائف بمكة اقتصادياً، وقد كانت مصيفاً لمكة، وبالتالي امتلك القرشيون كروماً في الطائف، إذاً الرسول (ﷺ) يعرف الطائف جيداً.

لذا ذهب إلى هناك، واتصل عند وصوله بنفر من ثقيف وهم يومئذ ساداتها وأشرفها^(٣)، حيث يذكر أنه كان بالطائف تكتلان سياسيان رئيسيان هما بنو مالك، والأحلاف، ويبدو أن الأحلاف كانت أقدم من سكن الطائف، لأن سدنة بيوت الآلهة هناك كانت بيدهم، أما بنو مالك فقد كانوا على صلات وثيقة ببني هوازن الذين كانوا أصحاب السيادة على أغلب الأراضي المجاورة للطوائف، لذلك توجب على الأحلاف أنفسهم أن يمتنعوا تحالفهم مع قريش حتى يقيموا التوازن بينهم وبين بني مالك حلفاء هوازن، وتوضح هذه التحالفات بين فرعي ثقيف والقبائل الخارجية أن ثقيفاً كقبيلة تنقصها الوحدة، فلما دعاهم الرسول (ﷺ) إلى عبادة الله، والمنعة بهم من قومه، لم يجد قبولاً، بل أكثر من ذلك، فقد استهزأ به بعضهم، وكذبه آخرون، وردوه رداً قبيحاً، فطلب منهم الرسول كتم أمر قدومه عن قريش، حتى لا تتخذ من ذلك ذريعة للاشتطاط بتعذيبه.

(١) زكار وخربوطلي: تاريخ الدولة العربية الإسلامية الأولى، ص ٧٥.

(٢) أبو الفدا: المختصر ١/١٢٠.

(٣) أبو الفدا: المختصر ١/١٢٠.

وما إن غادر الطائف حتى لحق به سفهاء وعبيد ثقيف يشتمونه، ويضربونه بالحجارة،
فالتجأ إلى بستان قريب حتى خفت ملاحقة مطارديه، فاشتد كربه، وعاد لمكة محلولاً
كسير القلب يبحث عن مخرج جديدة.

فماذا يفعل الآن؟ وقد سدت في وجهه كل السبل؟

بحكمة منه وتفكير، نحى منحى جديداً، وهو الاتصال بأفراد القبائل المختلفة التي تزور
مكة في أثناء موسم الحج، يعرض عليها دعوته، حيث يذكر ابن اسحاق أنه أتى قبيلة كندة
في منازلهم فدعاهم إلى الإسلام، وعرض عليهم نفسه فأبوا، وقصد بني عبد الله الكلبيين في
منازلهم فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم نفسه، فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم، ثم اتصل
ببني حنيفة، ودعاهم إلى الإسلام. فاعرضوا عنه، وردوا عليه أفبح الرد، ودعا بني عامر ابن
صعصعة إلى الإسلام، وكانوا بسوق عكاظ، فاشترط عليه أحد ساداتهم أن يكون لقبيلته
الأمر إذا أظهره الله على من خالفه من قريش، فلما أخبرهم رسول الله (ﷺ) أن الأمر إلى
الله يضعه حيث يشاء أبوا عليه^(١).

يتبين من ذلك أن اتصال الرسول (ﷺ) بالقبائل المختلفة إنما هو توكيد على وحدة
عربية تحت ظلال الإسلام تجمع شتات القبائل، وترأب ما بينهم من صدوع وخلافات.
واستمر الاتصال بالقبائل.

- بيعتنا العقبية: التقى برهط مؤلف من ستة أشخاص من حجاج يثرب (المدينة)،
فعرض دعوته عليهم، فاستمعوا إليه، ودعاهم إلى الإسلام فاستجابوا إليه. وقبلوا ما عرض
عليهم من الإسلام، ووعدوه أن يحدثوا بأمره قومهم، وقالوا: إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم
بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم بك، فسنقدم عليهم فنُدعوهم إلى

(١) ابن هشام: السيرة ٦٦/٢، الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٣٥٠/٢.

أمرك، ونعرض عليهم الذي أحبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك، فلا رجل أعز منك^(١).

وانصرفوا راجعين إلى بلادهم، وقد آمنوا، وصدقوا، وسيعملون على نشر دعوة الإسلام.

وفي السنة الثانية، جاء من يثرب اثنا عشر رجلاً من الأوس والخزرج، وبايعوا الرسول عند العقبة، وكانت البيعة الأولى، وقد سميت ببيعة النساء لأنه لم تكن فيها بيعة على القتال، وإنما أخذ للعهد والميثاق فقط. (بيعة دين وحماية فقط) وقد ذكر الله تعالى هذه البيعة في القرآن الكريم بقوله: ﴿يُبَايِعُنَكَ عَلَى أَنْ لَا يَشْرِكَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾^(٢).

سر الرسول (ﷺ) هذه البيعة، وقبل أن ينصرف الوفد بعث معهم مصعب بن عمير ليعملهم القرآن، وأصول الدين^(٣)، وكان يومهم بالصلاة، لأن الأوس والخزرج كرهوا إمامة بعضهم بعضاً^(٤)، لما كان بينهم من عداوات، وحروب قبل ذلك.

وفي السنة الثالثة جاء من يثرب ثلاثة وسبعون رجلاً وثلاث نسوة، وبايعوا الرسول (ﷺ)، وطلبوا منه الهجرة إلى بلدهم، فكانت البيعة الكبرى، وعرفت ببيعة الحرب، لأن الرسول (ﷺ) بايعهم على حرب الأسود والأحمر، ووعدهم بالجنة التي وعد الله بها المؤمنين.

وحرص المسلمون على إخفاء أمر هذه البيعة، والتكتم عليها حتى لا تعلم بها قريش إذ إن حماية الأوس والخزرج للنبي (ﷺ) لا تبدأ إلا بعد وصوله إلى يثرب، زد على ذلك أن الرسول (ﷺ) لم يكن قد أمر بعد بالقتال.

(١) ابن هشام: السيرة ٧١/٢، الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٣٥٤/٢.

(٢) سورة الممتحنة: الآية ١٢.

(٣) ابن هشام: السيرة ٧٦/٢.

(٤) ابن هشام: السيرة ٧٧/٢.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا، لماذا كان أهل يثرب أكثر تقبلاً لهذا الدين الجديد؟ هناك عدة أسباب تجعلنا نعود قليلاً إلى الوراء للتعرف على الوضع السياسي والاقتصادي والاجتماعي في يثرب.

سياسياً: كانت هناك حروب طويلة بين الأوس والخزرج غناها قبائل متهودة في يثرب، الأمر الذي يوضح أن هدف أهل يثرب كان إيجاد حلف سياسي يقوي شأنهم ضد اليهود، ويمنع الخلافات بين الأوس والخزرج، وسيوضح ذلك عندما يتمكن الرسول (ﷺ) فيما بعد من إجلاء اليهود.

واقتصادياً: فقد كانت هناك زيادة مستمرة في عدد السكان لا يجاريه ازدياد مماثل في مخزون الطعام، خاصة وأن اليهود كانوا مسيطرين على أحصص المناطق الزراعية. واجتماعياً: كانت العنصرية القبلية أساساً أولاً من أسس العلاقات بين أفراد المجتمع، والثأر والدية شريعتان هامتان من شرائع العمران البشري عندهم، مثلهم مثل كل المجتمعات الصحراوية وقد أدى هذا التضامن القبلي إلى صيرورة مهمة الدفاع عن الممتلكات الشخصية مسؤولية الجماعة القبلية بكاملها، لا مسؤولية الفرد وحده، وأدى اتساع هذه المشاكل إلى إهمال الناس العناية بأراضيهم، فقل محصولها مع الزمن، وازدادت الأزمة التموينية مدة، وغدت الأرض المنتجة عرضة لشرعية الغزو.

ودينياً: أدركت يثرب أن لا فائدة مادية من وراء التمسك بالوثنية كما كان لقريش في مكة فالوثنية لا تتناسب ومعطيات العقل الذي يزن بميزان الحضارة لا بميزان البداوة، وقوي هذا الشعور بسبب وجود الديانة اليهودية إلى جانبهم، فلطالما حدثهم خيرائهم اليهود عن نبي يبعث، فلما حدثهم الرسول (ﷺ) عن دعوته عرفوا فيه نبياً، لذا أسرعوا لنصرتة حتى لا يسبقهم اليهود، ويكون لهم النصر بواسطته.

أضف إلى ذلك، فالرسول (ﷺ) فوق كل نزاع حربي، فهو داعية وحدة وتضامن تحت لواء دين يجمع، ولا يفرق، وهو بالوقت ذاته يريد بلداً آمناً يث دعوته فيه، وهكذا

التقت المصالح، وتم التحالف، وكانت يثرب أفضل مكان لحل كل المشاكل، وتمهدت السبل لحسن استقبال الرسول في يثرب.

وما إن علمت قريش بتلك المبايعة، حتى ضايقته فأمروهم الرسول بالهجرة إلى يثرب، فتركوا المال والأهل من أجل نصرته الإسلام، ولم يبق في مكة إلا الرسول (ﷺ) وعلي بن أبي طالب، وأبو بكر الصديق، ومن اعتقله المشركون كرهاً^(١).
فماذا اتخذت من إجراءات؟

اجتمعت قريش في دار الندوة للمشاورة، وبعد مداوولات اقترح أبو جهل جمع شباب كل القبائل من ذوي الحسب والنسب، وتسليح كل واحد منهم بسيف صارم، فيضربون الرسول ضربة واحدة، فيتفرق دمه بين القبائل جميعاً، وعندئذ لا يستطيع بنو عبد مناف أن يحاربوا كل قبائل قريش، فأجمعت قريش على هذا الرأي وتفرقوا مجمعين عليه، فنزلت سورة الأنفال بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾^(٢).

وأبلغ النبي (ﷺ) بما تأمر عليه القرشيون، وأمره الله بعدم المبيت في فراشه في تلك الليلة كما أمره بالهجرة، وخرج من داره ليلاً، بعد أن نام علي بن أبي طالب في فراشه، وانطلق برفقة أبي بكر الصديق، ومضيا إلى غار بحبل ثور^(٣).

وبات المتآمرون أمام دار النبي طوال الليل، فلما أصبحوا وجدوا علياً في فراش النبي، فبادروا إلى اقتفاء أثر النبي، ووصلوا إلى الغار، فحزع أبو بكر خيفة، وكان الرسول يهدئ من روعه، وفي ذلك إشارة في القرآن الكريم إلى ذلك في سورة التوبة، قال تعالى: ﴿إِلَّا

(١) ابن هشام: السيرة ١٢٣/٢، المقرئ: إمتاع الأسماع ٣٧/١-٣٨.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٣٠.

(٣) ابن سعد: الطبقات ١٥٣/١.

نُصْرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْفَكَارِ
إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ
بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ
هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١﴾

ومضت ثلاث ليال، ارتحل الرسول (ﷺ) بعدها مع صاحبه أبي بكر، ولما وصلا انتشر
الخبر سريعاً بين المهاجرين والأنصار فخرجوا جميعاً للقاءه.
المرحلة المدنية:

وصل الرسول (ﷺ) إلى قباء ٦٢٢م^(١)، فنزل على بني عمرو بن عوف، وأقام عندهم
أربعة أيام، أو أكثر، وأسس أول مسجد في الإسلام^(٢)، ثم ركب راحلته، وكلّ يريد أن
يأخذ الرسول لبيته، فيحييهم اتركوها، فإنها مأمورة إلى أن يركت ناقته في مربد^(٣) للتمر
لفلاحين يتيمين من بني مالك بن النجار في كنف أسعد بن زرارة، يقال لهما سهل
وسهيل، فقال الرسول: هذا إن شاء الله المنزل، ثم دعا الفلاحين، وسأولهما المربد ليتخذه
مسجداً، فابتاعه منهما، ونزل النبي (ﷺ) بدار أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري سبعة
أشهر إلى أن تم بناء المسجد ومسكنته^(٤).

(١) سورة التوبة: الآية ٤٠.

(٢) ابن سعد: الطبقات ١/١٥٣.

(٣) ابن هشام: السيرة ٢/١٣٩، الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٢/٣٨٣. وقباء على بعد ميلين من
المدينة، الحموي: معجم البلدان، مادة قباء.

(٤) الموضوع الذي يجفف فيه التمر.

(٥) ابن هشام: السيرة ٢/١٤١.

لقد كانت الهجرة إلى يثرب أول حدث تاريخي مهم في الإسلام، وانتصار على الوثنية، لذا اتخذ عمر بن الخطاب بداية التاريخ الإسلامي الهجري، ومنذ ذلك التاريخ بدأت مرحلة جديدة في تاريخ الإسلام، هي مرحلة تأسيس دولة الإسلام.

١ - حكومة المدينة:

بوصول الرسول (ﷺ) مهاجراً إلى يثرب، وما إن وطأت قدماه أرضها حتى أسماها المدينة، ولم تعد مهمته تقتصر على تبليغ الوحي، والدعوة فقط، بل غدا قائد أمة، ورئيس دولة، لذا رأى من واجبه تنظيم الحياة المدنية بها، فهو زعيم جماعة من العرب لهم صفة سياسية بجانب كونه نبياً مرسلًا، عليه أن يبلغ رسالة ربه، لذلك أخذ يهتم بالأسس الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعلمية التي يجب أن تقوم عليها الدولة، ولم تكن مهمة سهلة. خاصة وأن المدينة أصبحت خليطاً من المسلمين من الأوس والخزرج الذين عرفوا بالأنصار، وبعض مشركي هاتين القبيلتين، إلى جانب بعض القبائل المتهودة، والمهاجرين الذين تركوا أموالهم في مكة، ولا أمل لهم في استردادها، وكان أكثرهم تجاراً.

فأول مشكلة واجهت الرسول هي المشكلة الاقتصادية التي نبتت من واقع أصحابه المهاجرين فماذا يفعل؟ وما الحل؟

بحكمة منه ولأنه أراد أن يقيم رابطة متينة من الأخوة بين المهاجرين والأنصار أوجد نظام المؤاخاة. فقد دعا الأنصار إلى مساعدة المهاجرين ووجد صفوفهم عن طريق تآلفهم حتى لا تثور العداوة بينهم، مؤاخاة على الحق والمواساة، فكانوا يتوارثون بهذا الإخاء إراثاً مقدماً على القرابة^(١)، وقد تمت المؤاخاة على مرحلتين، مرحلة آخى فيها الرسول بين

(١) ابن هشام: السيرة ١٥٠/٢، البلاذري: أنساب الأشراف ٣١٨/١.

المهاجرين بعضهم لبعض، ومرحلة آتت فيها بين المهاجرين والأنصار، فإذا مات أحد الأنصار، ورثه أخوه المهاجر^(١).

وكان الرسول (ﷺ) يرمي من وراء المواخاة بين أصحابه من المهاجرين والأنصار أن يذهب عنهم وحشة الغربة، ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة، ويشد أزر بعضهم ببعض، ولحل الأزمة الاقتصادية التي كان يعاني منها المهاجرون المسلمون، وأن يحل عصبية الدين محل عصبية القرابة والنسب.

ففي المرحلة الأولى قال رسول الله (ﷺ) لأتباعه، تآخوا في الله أخين أخين، ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب، فقال: هذا أخي، وفي المرحلة الثانية، كانت الأخوة بين المهاجرين والأنصار وكان عددهم تسعين رجلاً خمسة وأربعين من المهاجرين وخمسة وأربعين من الأنصار.

وهذا الإخاء تيسرت سبل العيش على المهاجرين بالمدينة بفضل حسن معاملة الأنصار لهم، ذلك أنهم منحوهم بعض أمواتهم، وسمحوا لهم بالتجارة، والاشتراك معهم في زراعة أراضيهم.

ولم يكتف بذلك، فقد سمح لفقراء المسلمين الذين ليس لهم منازل، ولا عشائر، أن يبيتوا بالمسجد، وكان يدعو طائفة منهم ليلاً لتناول العشاء معه، وكان يكلف أصحابه بإطعام الآخرين، وقد عرف ذلك الفريق من المسلمين بأهل الصفة^(٢). لأنهم كانوا يأوون إلى صفة المسجد، وهي المكان المسقوف منه^(٣). وكان أبو ذر الغفاري واحداً منهم.

وما أن استقر الرسول (ﷺ) في المدينة حتى رأى أنه من الواجب وضع دستور للمدينة ينظم الحياة فيها ويكون أساساً لتحقيق الوحدة بين أهاليها، ويجمع شملهم، ويحدد علاقاتهم

(١) البلاذري: أنساب الأشراف ٣١٨/١، السمهودي: وفاء الوفا ٢٦٨/١.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف ٣٢٠/١.

(٣) ابن هشام: السيرة ١٤٧/٢ وما بعد.

بعضهم ببعض، فعقد حلفاً، هذا الحلف أوضحه بالوثيقة أو الصحيفة التي تنفق مع منطق الحوادث في المدينة، وهذه الوثيقة تبين الاتفاق على النقاط التالية:

- ١- اعتبار جميع المسلمين (المهاجرين والأنصار) أمة واحدة.
- ٢- التضامن التام، والمسؤولية بين أفراد الجماعة الإسلامية.
- ٣- فتح المجال أمام اليهود الراغبين في الإسلام.
- ٤- الحرية الدينية لليهود.
- ٥- موقف العداء ضد قريش مسؤولية جماعية.
- ٦- الدفاع عن المدينة والحرب مسؤولية جماعية.
- ٧- الديات والفتداء مسؤولية جماعية.
- ٨- أهمية الولاء والجوار.
- ٩- أهمية الصلة بين المؤمن والمؤمن إلى حد التفضيل على القرابة بالتوالد والدم.
- ١٠- حرمة المدينة كحرمة مكة.
- ١١- فض الخصومات مسؤولية الرسول وحده^(١).

فتكون الصحيفة (دستور المدينة) أول دستور ينظم شؤون الجماعة الإسلامية في المدينة على أساس الدين والسياسة، ويعطي الحق لنظام الجماعة الإسلامية أن يعاقب المفسد، ويؤمن المطيع، وعملت على تأمين الانسجام بين الوافدين من مكة، وأهل البلاد من أنصار ومشركون ويهود، وإيجاد صيغة مشتركة في الدفاع عن المدينة ضد العدو قريش.

٢- أعمال الرسول العسكرية:

بعد أن انتهى الرسول من تنظيم أموره الداخلية، بدأ بتنظيم علاقات المسلمين مع بقية أجزاء بلاد العرب، فقد مرت الفترة المكية من حياة الرسول (ﷺ) دون أن ينشب نزاع

(١) سرور: قيام الدولة العربية الإسلامية، ص ٩٦.

مسلح بينه وبين قريش، وكانت دعوته سلمية، وعندما اشتد أذى قريش هرب أتباعه إلى الحبيشة كما سلف ذكره، ثم هاجر وأصحابه إلى المدينة، فلما استقر وقويت شوكته في المدينة، فرض الله عليه وعلى المسلمين الجهاد، وكان ذلك في السنة الثانية للهجرة بقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا ﴿١﴾ وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنَّ لَنتَهَافَاتٍ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٢) وكذلك قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْعًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْعًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٣).

من استقراء الآيات الكريمة يتبين أن الله شرع القتال لأسباب:

- ١- الدفاع عن النفس في حالة تعدي أحد على المسلمين.
 - ٢- الدفاع عن الدعوة وصد من يقف في سبيلها حتى لا يفتن المسلمون عن دينهم، أو حتى لا يخشى من يريد الدخول في الإسلام من الدخول فيه خوفاً من عذاب أو إبداء.
 - ٣- محاربة من أخرجوهم من ديارهم واغتصبوا أموالهم وأملاكهم بغير حق.
- وتشريع الجهاد أعطى صفة سياسية للمسلمين، وأعطى مجتمع المدينة صفة الدولة التي لا تدعم الحق بالقوة لإقرار مبادئها، وكانت أعمال الرسول الحربية منسجمة مع هدف تشريع الجهاد، والمقصود رصد تحركات قريش، والقضاء على تجارها، إدراكاً من المسلمين أنه لن يتيسر لهم نشر الدعوة الإسلامية، وإيقاف المعارضة التي تقودها قريش ضدهم بين

(١) سورة الحج: الآية ٣٩.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٣٩.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢١٦.

القبائل الأخرى إلا إذا قضوا على نفوذ القرشيين، ولهذا كله كان كل من الفريقين يستعد، ويخطط في سبيل ضرب خصمه، والإيقاع به.

وكانت أعمال الرسول الحربية الأولى عبارة عن سرايا وغزوات سرايا استطلاعية المقصود منها رصد قريش في تحركاتها في ميدان النشاط التجاري، وقد ساعد على هذا، الوضع الجغرافي للمنطقة وذلك لأنه كان على القوافل التجارية المتجهة من مكة إلى بلاد الشام أن تمر بين المدينة، وشاطئ البحر، وحتى لو سارت القوافل محاذية تماماً لساحل البحر الأحمر لكان بعدها عن المدينة لا يتجاوز الثلاثين ميلاً.

وهنا يجب التمييز بين السرايا والغزوات.

فالغزوة هي ما خرج فيها الرسول (ﷺ) مع المقاتلين، والسرية هي ما لم يخرج فيها بنفسه، فقد يعقد اللواء لها إلى رجل من أصحابه، وقد يطلقون على السرية غزوة، ولكن ذلك قليل، كما قالوا غزوة مؤتة، وغزوة ذات السلاسل.

ولننظر إلى طلائع الجهاد التي بدأت بعد سبعة أشهر من الهجرة فقد كانت أربع سرايا إلى (سيف البحر أو العيص، ورايح، والخرار، ونخلة) وأربع غزوات: (الأبواء أوردان، وبواط، والسنوب لمطاردة كرز الفهري، وذات العشيرة)^(١).

فسيف البحر أو العيص كانت في رمضان ١هـ، وكانت بقيادة حمزة بن عبد المطلب لاعتراض غير قريش القادمة من بلاد الشام تريد مكة، وعلى رأسها أبو جهل^(٢).

وأرسل إلى رايح شوال ١هـ سرية بقيادة عبيدة بن الحارث وسرية إلى الخرار في ذي القعدة ١هـ بقيادة سعد بن أبي وقاص ونخلة اليمانية إلى جنوب شرق مكة، وكانت في أول رجب ١هـ بقيادة عبد الله بن جحش لرصد غير قريش، وفي هذه السرية حصل قتال

(١) شجاع: دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ١٢٨.

(٢) الواقدي: مغازي ٩/١.

وغنيمة وأسر في أحد الأشهر الحرام دون أن يعلموا أن شهر رجب قد دخل، فاتخذها قريش ذريعة لتشنع على المسلمين اعتداءهم في الشهر الحرام، ويهدفون من هذا إثارة سخط العرب على النبي (ﷺ) والذين آمنوا معه، وإثارة ضعاف النفوس من المسلمين الذين يؤمنون بحرمه الأشهر الحرم، واستغل اليهود الفرصة، وأشاعوا الأراجيف، وتفاءلوا بقيام حرب تصيب المسلمين بالهزيمة^(١)، وانطلقت الدعاية المضللة على هذا النحو بشقي الأساليب الماكرة التي تروج في البيئة العربية، وتظهر محمداً وأصحابه بمظهر المعتدي الذي لا يحترم مقدسات العرب، وينكر مقدساته، فزلت آيات بينات صححت للمسلمين تصوراتهم وردت كيد الكافرين إلى نحورهم حيث يقول الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَالُونَ لَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِيَارِكُمْ إِنْ اسْتَظَلَمُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾^(٢).

لقد بينت الآيات للمسلمين صحة ما فعلوه، وثبتت قلوبهم، وأقدامهم، وكشفت أقنعة الكافرين، وبالتالي حققت هذه السرية وغيرها من سرايا وغزوات العديد من النتائج:

- ١- حرمان قريش من رحلاتها التجارية إلى الشام.
- ٢- كسب الرسول (ﷺ) قبيلة جهينة إلى صفه فحالفها في غزوتي الأبواء وذوي العشيرة، وكانت قبيلة جهينة تسيطر على مساحة واسعة في شمال غربي الجزيرة العربية من

(١) الواقدي: مغازي ٢٦/١.

(٢) سورة البقرة: الآيات ٢١٧-٢١٨.

حوران جنوب الشام إلى ينبع، وهي من المناطق الهامة التي تسير فيها القوافل التجارية، وتحت حماية قبيلة جهينة نظير إتاوة تدفع لها.

وبعد أن اتفقت مع رسول الله (ﷺ) وعقدت معه معاهدة أصبحت تشكل خطراً على تجارة قريش، وصار المسلمون هم السادة في المنطقة.

٣- تحجيم دور الأعراب على أن يكون لهم وجود في طرق التجارة.

٤- استدراج قريش للخروج من مكة بقافلة تجارية ضخمة ثم مواجهة عسكرية في ميدان غير ميدانها، ويلاحظ هذا في غزوة بدر الفرقان ٢هـ.

- غزوة بدر: ١٧ رمضان ٢هـ / ٦٢٤م:

كان الحصار الاقتصادي الذي فرض على قريش قبل غزوة بدر عاملاً هاماً لإخراج قريش من البلد الحرام ودفعها إلى مكان آخر تدار فيه المعركة الفاصلة بين المسلمين والمشركين.

ولعل قريش قبل غزوة بدر بالرغم من أنها كانت تخشى ترصد المسلمين لتجارها، إلا أنها استنفرت كل طاقتها المالية والعسكرية وأخرجت تجارة ضخمة إلى الشام ربما كانت تعويضاً عما منيت به من خسارة لانقطاع تجارها، منذ أن بدأت السرايا والغزوات التي أزعمتها وأخرجتها عن طورها، لتخرج في تجارة ضخمة كمغامرة، ومع هذا عملت ترتيباتها لتأمين تجارها، فجعلت على القافلة أربعين رجلاً لحمايتها.. واتخذت عيون الاستطلاع، وطرقاً متعرجة، واستنفر أبو سفيان - أمير القافلة التجارية - قريشاً للدفاع عن تجارها حينما عرف أن المسلمين سيتربصون له^(١).

خرجت قريش متوترة تدفعها الحمية مغتررة بنفسها، وبالوقت نفسه تخشى سقوط هيبتها أمام العرب، وها هي ذي تندفع لرد اعتبارها، ورفع كرامتها أمام العرب، وبالرغم

(١) ابن هشام: السيرة ٢/ ٢٥٨.

من تحذيرات العقلاء منهم، أو من أحلافهم، ورغم تنبيه أبي سفيان — بعد نجاته — بالألا يخرجوا للملاقاة المسلمين إلا أن الرأي الذي سيطر عليهم هو أن يزلوا بدرأ — باعتباره سوقاً وملتقى طرق التجارة — كي تسمع بهم العرب وتظل هيبة قريش في نفوسهم^(١)، ويمنعوا محمداً ومن معهم أن يتعرض لأموالهم، وتجارتهم كما يقول أبو جهل^(٢)، ولا تعيننا التفاصيل، فكتب السيرة تغنيا عن هذا، ولكن يهنا الخط العام، وهو جعل المدينة ومكة قاعدة انطلاق إلى بقية الجزيرة العربية.

ولابد من إعطاء هذه المعركة بعض ما تستحق ولو كان ذلك موجزاً فكل المصادر وكتب السيرة أسهبت في توصيف هذه المعركة.. ولكن لابد من تباين بعض الخطوط العامة لأهمية هذه المعركة.. لأنها ليست مجرد صدام عسكري أو مجرد معركة انتهت بانتصار المسلمين فالوقوف أكبر من ذلك لقد أسست معركة بدر لماهية الصراع بين المسلمين والمشركين ورسمت بوضوح الخط السياسي والفكري للدعوة الإسلامية.

وبينت هذه المعركة أهمية التنظيم ووجود قيادة حكيمة تعد القدوة والمثال «أي شخصية الرسول (ﷺ)» هذا بالإضافة إلى الإيمان بالقيم والمبادئ والهدف السامي الذي يقاتل من أجله المسلمون.

إن يحمل هذه القيم لم تؤد إلى النصر فقط وإنما بينت بوضوح أهمية تنظيم المجتمع وإعداده لرسم مستقبله الذي يرتضيه لنفسه والذي يضمن تحقيق أهدافه.

وقد أدرك القرشيون بحمل هذه الأمور وتيقنوا بأنهم إذا لم يستعيدوا المبادرة من المسلمين فإن وجودهم وزعاماتهم والأسس التي يقوم عليها مجتمعهم آيلة إلى زوال. وعلى

(١) ابن هشام: السيرة ٢/٢٧٠.

(٢) ابن هشام: السيرة ٢/٢٦٩.

هذا الأساس، بدؤوا بالإعداد لمعركة أحد ليثأروا لكرامتهم التي هدرت ويستعيدوا ما فقدوه من سلطة في مجتمع شبه الجزيرة العربية.

لقد ألحقت هذه الغزوة الهزيمة بقريش، وقتل من صناديدها سبعون، وأسر سبعون إلى جانب ما حازه المسلمون من الغنائم^(١)، وحقت هدفاً كبيراً، فقد شدت انتباه العرب جميعاً إلى قوة الدولة الإسلامية، فاهتزت هيبة قريش لدى العرب، وارتفعت مكانة المسلمين، وبدأ يحسب لهم حساب، ولم تحقق قريش الهدف الذي سعت إليه، ومن هنا جاءت تسمية غزوة بدر في القرآن الكريم — ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾^(٢)، فرقاناً بين الحق والباطل.

— غزوة أحد شوال ٣هـ / ٦٢٤م:

بعد ذلك رأت قريش أن تتأثر لشرفها، وسمعتها، ولمن قتل من رجالها لذلك ظلت تستعد مدة سنة لحرب الرسول (ﷺ) وأصحابه، وبذلت في هذا السبيل مجهوداً كبيراً، كما خصصت أموال القافلة التي حاول المسلمون اعتراضها، والتي كانت السبب في وقعة بدر للإتفاق منها على تلك الحرب، ودعت حلفاءها من ثقيف، وقبائل كنانة، ومنطقة تهامة للاشتراك معها في محاربة المسلمين، كما استعانت أيضاً بالأحباش^(٣)، ولما تم استعدادها خرجت بقيادة أبي سفيان بن حرب^(٤)، إنها عملية انتحارية، لا بد منها لرد اعتبار قريش، ولرفع مكانتها وأياً كان الأمر، فإن هذا الحشد الذي تجمع في أحد، شوال ٣هـ / ٦٢٤م مُني بهزيمة في بداية المعركة، وقتل من صناديدهم عدد بين الستة عشر، والاثني والعشرين رجلاً، ثم انقلب الأمر لصالحهم، وسقط من المسلمين سبعون رجلاً في بعض الروايات،

(١) ابن هشام: السيرة ٢/٢٧٧، ابن سعد: الطبقات ٣/٥٧.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٤١.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٢/٥٠٢.

(٤) ابن هشام: السيرة ٢/٦٦، الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٢/٤٩٩.

وتسعة وأربعون رجلاً في روايات أخرى^(١)، نتيجة عدم التزامهم بالخطة التي رسمها النبي الكريم للجيش وترك النبالة لأماكنهم.

كانت أحد أول هزيمة للمسلمين، ونزلت ستون آية قرآنية تندد بجماعة المشركين، وتبين الأسباب الحقيقية التي أدت إلى انكسارهم، وتندد بجماعة المنافقين، والثناء على شهداء الموقعة، ووعدهم بالجنان، كما قيل في هذه الموقعة الكثير من الشعر الذي نقله ابن اسحاق في سيرته والوافدي في مغازيه^(٢).

وبعد معركة أحد، ركز الرسول (ﷺ) جهوده من أجل حماية المدينة من أي هجوم تقوم به قريش أو حلفائها، خاصة وأن أبا سفيان بعد الانتهاء من القتال في أحد أعلن موعداً آخر بينهم وبين المسلمين،

وبالمقابل، حتى يظهر الرسول أن المسلمين على جانب لا يستهان به من القوة، ولوضع العراقيل أمام قريش كي لا تقيم التحالفات القبلية ضده، وجه سرية ضد بني أسد، وقام بغزوة ذات الرقاع ضد بني أنمار وثعلبة، وأمر بإرسال سرية عبد الله بن أبيس لقتل سيد بني لحيان الذي يقوم بتأليب الناس ضده.

غزوة الخندق ذي القعدة ٥هـ / ٦٢٦م:

استعدت قريش لضرب محمد (ﷺ) ضربة قاصمة، والتخلص منه ومن دينه الذي هدد زعامتها، وجعل مكانتها وسيادتها تعيشان أخطر ساعات حياتها.

وقد عرفت هذه الغزوة بالخندق، لأن الرسول (ﷺ) أحاط المدينة بخندق ليحول دون مهاجمتها، ويصد به العدو، وسميت بغزوة الأحزاب لأن قريشاً لم تكن وحدها فيها، بل انضمت إليها جماعات من القبائل العربية، والقبائل المتهوددة في حرب الرسول.

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٥١٠/٢، ابن الأثير: الكامل ١٥٤/٢.

(٢) ابن هشام: السيرة ٧٠/٣، الوافدي: مغازي ٣٨٥-٣٨٤/١.

أما السبب المباشر الذي أدى إلى هياج الحرب بين قريش والرسول فيتلخص في طرد قبيلة بني النضير التي حاولت الغدر بالرسول، فعندما أجلاهم الرسول إلى خيبر، خرج اثنا منهما إلى مكة، ودعوا أبا سفيان بن حرب، وقريشاً إلى قتال الرسول^(١). ثم سعت قريش إلى حلف كبير يضم العناصر المعارضة للرسول، مثل فزارة، وأشجع، ومرة، وغطفان، وبني قريظة، وغيرهم.

وتجمع من أهل الشرك عشرة آلاف، وخرج النبي بتسعمائة فقط، وكان سلمان الفارسي هو الذي أشار على النبي (ﷺ) بحفر الخندق حول المدينة حين رآه بهم بالإقامة في المدينة ملتزماً للدفاع^(٢).

ونجحت فكرة سلمان، فعندما أقبلت قريش، هالها منظر الخندق، وأخذ رجالها يطوفون به دون أن يستطيعوا تجاوزه، وحاولوا إيجاد مضيق بالخندق يمكنهم من العبور إلى المسلمين، ولكن المسلمين كانوا لهم بالمرصاد يردوهم على أعقابهم في كل محاولة من هذا النوع، ولم تجر حرب حاسمة بين الطرفين، وإنما اقتصر الأمر على مبارزات فردية بين أشخاص من الطرفين، واستمرت قريش في حصارها للمدينة دون أن تستطیع الوصول إليها، ودام هذا الحصار مدة تقارب الثلاثين يوماً، تفرق الأحزاب بعدها، وتصدع صفهم، بعد أن عمد الرسول (ﷺ) إلى التدبير لفكه، لا سيما، وأن قريشاً كانت سباقة إلى هذا النوع من الأسلوب، لذلك عهد إلى نعيم بن مسعود الغطفاني، وكان قد قدم مع قومه لحرب المسلمين، ولكن الله هداه إلى الإسلام، وجاء سراً إلى الرسول (ﷺ) في ليلة من الليالي، وأعلن إسلامه، وطلب منه أن يكلفه بما يريد، فقال له الرسول: إنما أنت فينا رجل فخذل^(٣) عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة^(١)، وكان نعيم على جانب كبير من الدهاء،

(١) البلاذري: أنساب الأشراف ٤٢٧/١.

(٢) المقرئزي: إمتاع الأسماع ٢١٩/١٤-٢٢٠.

(٣) أي دخل بين القوم حتى يخذل بعضهم بعضاً.

فنجح في تفريق كلمة الأحزاب، وبالتالي أدت الدبلوماسية الإسلامية دوراً فعالاً في تفريق كلمة الأحزاب، وزرع الشكوك بينهم.

وفي الوقت نفسه تعرض معسكر الأحزاب لعاصفة عاتية كفأت قدورهم، وأنيتهم، وأرغمتهم على التفرق، والعودة من حيث أتوا^(١).

وهكذا أثبت يوم الأحزاب أن المدينة حصن لا يرام وأن المشركين مهما اتفقوا على قهرها، فإنهم لن يستطيعوا اقتحامها عنوة، وأن قريش لا تستطيع القضاء على محمد عن طريق عمل عسكري.

ثم عاد الرسول إلى المدينة، ليتحول صف المسلمين من دور المدافع إلى دور المهاجم.

- صلح الحديبية:

بعد أن اطمأن الرسول (ﷺ) إلى قواته وتفوقه فكر في الدخول إلى مكة لأداء العمرة، وقد لقيت دعوته هذه استجابة سريعة لدى أصحابه، فخرج الرسول (ﷺ) مع ألف من المسلمين من مكة، ولكن قريشاً حجزت موكب الرسول الذي نزل عند الحديبية، وأسرت عثمان بن عفان الذي ذهب للمفاوضة، وأشاعت بأنه قتل، فتأهب المسلمون للقتال، وبايعوا الرسول على ذلك وسميت هذه البيعة (بيعة الرضوان)^(٢).

هذا الالتفاف حول الرسول (ﷺ) دفع قريش إلى ترك عثمان، وإرسال خطيبها سهل ابن عمرو لإبرام اتفاقية سميت الحديبية نصت على ما يلي^(٣):

- ١- أن توضع الحرب أوزارها لمدة عشر سنوات.
- ٢- أن يرد الرسول (ﷺ) من يأتيه من قريش مرتداً.

(١) ابن هشام: السيرة ٢٤٠/٣، الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٥٧٨/٢.

(٢) الواقدي: المغازي ٤٨٧/٢، المقرئ: إمتاع الأسماع ٢٣٨/١.

(٣) ذكرت في القرآن الكريم سورة الفتح الآية ١٨.

(٤) زكار وخربوطلي: تاريخ الدولة العربية الإسلامية الأولى، ص ١١٤.

٣- ألا يكون بين الطرفين اعتداء لا ظاهرياً ولا خفياً.

٤- إن من أحب أن يدخل في عهد المسلمين دخل فيه ومن أراد أن يدخل في عهد قريش دخل فأعلن الحاضرون من خزاعة دخولهم في عهد محمد وعقده، في حين أعلن بنو بكر دخولهم في عقد قريش وعهدها.

٥- أن يرجع الرسول هذا العام من غير عمرة، وبأني في العام المقبل بعد أن تخرج قريش من مكة، وقيم ثلاثة أيام دون سلاح إلا السيوف في أغمادها.

٦- أن يسمح للمسلمين كأفراد بالدخول إلى مكة في أي وقت للحج والعمرة أو التجارة، ويسمح لأهل مكة في التحرك، ويحق لهم الدخول إلى المدينة مجتازين إلى مصر والشام للتجارة.

وهكذا أصبح هذا الاتفاق نهاية مرحلة، لتبدأ مرحلة جديدة، ورغم أنه كان في ظاهره اتفاق هضم للمسلمين بعض حقوقهم إلا أنه كان يحمل في طياته عزاً لهم، وقوة وفتحاً. لأن هذا الاتفاق هو الذي كرس، وثبت الدولة الإسلامية وأرسى قواعدها، وجعلها شامخة أمام كل القوى المحيطة.

أضف لذلك براعة الرسول في إظهار تقديسه للكعبة، وتأكيد بحيمه في العام المقبل اعترافاً من قريش بزعامته السياسية بين العرب بعد أن كانوا يعذبون ويضطهدون أتباعه، زد على ذلك أنه بفضل حقبة السلم الطويلة التي حددها الصلح بعشر سنوات سيتمكن الرسول خلالها من تطهير جناحه الشمالي، وأن يقضي نهائياً على كل القوى المناوئة له هناك وهو أمر حققه الرسول تدريجياً، ومهد بذلك السبيل لفتح مكة.

- مراسلات الرسول:

والمفيد ذكره أن الرسول بعد انصرافه من الحديبية أرسل ستة من أصحابه إلى ملوك الدول المجاورة، وأمرائها يدعوهم إلى الإسلام، فأرسل رسالة إلى هرقل فتقبلها قبولاً حسناً، وبعث برسوله إلى كسرى، ولكنه ثار عندما سمع برسالة محمد (ﷺ)، لأن كسرى يحكم الفرس بذلك الحق الإلهي المقدس وشعر أن هذا الدين سيزلزل مكانته، وأرسل الرسول محمد (ﷺ) رسالة إلى النجاشي فرد ردّاً طيباً، وكذلك إلى المقوقس عظيم القبط فرد أيضاً ردّاً حميداً^(١).

وقد تضمنت هذه المراسلات دعوة هؤلاء بالحسن إلى دين الله، دعوة للوصول إلى كلمة سواء، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة التي استشهد بها الرسول (ﷺ) في كتابه إلى هرقل: ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^(٢).

وبالفعل نجح الرسول (ﷺ) في التمهيد لنشر الدعوة الإسلامية ونجح في كسب العديد من القبائل مثل صاحب إيلة، وأهل جرباء وأذرح. وفي الواقع كانت هذه استراتيجية جديدة لم تألفها الشعوب من قبل، فلم يُدع الكافر لأمر غير أسلم تسلم، إذ لم يكن هناك لا مفاوضات ولا أي تنازلات إذ إن الحق واحد ولا يتعدد، والرد على أي قرار من قبلهم لن يكون ما يسمعون به بل ما سيرونه.

(١) ابن هشام: السيرة ٢٢٩/٣، حميد الله: الوثائق السياسية، ٢٣٢ وما بعد.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٦٤.

ورغم أن كل المصادر تحدثت عن هذه المراسلات إلا أن بعض المستشرقين^(١)، أنكروها، ومنهم من قال إن خلفاء النبي هم الذين صاغوا هذه الرسائل، وذلك لإثبات عالمية الإسلام. إلا أن هذا الزعم لا يصمد أمام أمر أثبتته القرآن الكريم بأقوى بيان، فقد كانت عالمية الدعوة الإسلامية متينة ثابتة منذ ظهور الإسلام. بمكة، ولم تكن أمراً جدياً على الساحة مع ارتفاع شأن الإسلام بالمدينة، وآيات القرآن الكريم أكدت هذه الحقيقة، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢) ويسوقون آراءهم بعدم عثورهم على ما يثبت ذلك من وثائق لدى هؤلاء الملوك والأمراء وطبعاً هذا دليل غير ما كانوا يدعون، لأنه قد تكون الصور الأصلية فقدت بسبب ما، أما مؤرخو العرب فلا يشككون بذلك بل أثبتوا صحتها^(٣).

ويتساءل البعض عن اللغة التي كتبت بها الرسائل وتأتي الإجابة عن ذلك في الوثائق التي عثر عليها، فجميعها أظهرت أن الخط العربي غير المنقوط هو خط كتابتها^(٤)، فكيف فهمت الأطراف المتعددة قراءتها؟ قد يكون عن طريق العرب الذين خضعوا لسيطرة هذه الدول.

أضف إلى ذلك أن العلاقات التي كانت قائمة بين الحجاز وبلاد الشام منذ قبل الإسلام حيث عدت بيزنطة أن التحالف مع القبائل التي تنزل الشام، وتمدها بالمال سنوياً مقابل حماية الحدود والمواضع التي يصعب حمايتها هو حماية لها وللقوافل التجارية وللمنطقة التي تشهد الصراع الذي كان يحدث بينها وبين فارس.

(١) Vasiliev: (A. A) History of the Byzantine Empire, Wisconsin, 1952, P. 211.

(٢) سورة سبا: الآية ٢٨.

(٣) ابن سعد: الطبقات ١/٣٧٩-٣٧٠، البعقوبي: تاريخ ٨٣/٢.

(٤) حميد الله: الوثائق السياسية، ص ٢٦ وما بعد.

- غزوة مؤتة ٨هـ / ٦٢٩م:

ذكرنا أنه بعد اتفاقية الحديبية وجه الرسول (ﷺ) اهتمامه إلى الشمال، لضرب تجارة مكة، ولتوسيع رقعة الدعوة الإسلامية جغرافياً، ولضم القبائل هناك، فأرسل إلى الشمال سرية ذات أطلاق، وكانت بقيادة كعب بن عمير، وكان عدد الرجال خمسة عشر رجلاً، ولقد قتلوا جميعاً عدا عمرو بن كعب الغفاري الناجي الوحيد^(١)، ولعل أغلب المصادر تذكر أنه في أعقاب غزوة خيبر وفي وقت كان فيه النبي (ﷺ) في موقع قوي أراد أن يقوم بغزوة هجومية دفاعية، وقد تعددت أسبابها واختلفت أغراضها وتنوعت أهدافها، حيث يذكر أن الرسول (ﷺ) عندما بعث الحارث بن عمير الأزدي إلى ملك بصرى بكتاب قتله شرحبيل بن عمرو الغساني في مؤتة، ولم يُقتل لرسول (ﷺ) رسول غيره، فاعتبر الرسول هذا الفعل تحداً صريحاً، واعتداء مباشراً على الإسلام، في الوقت الذي كان يركز دعوته في أرجاء الجزيرة العربية، فندب الناس، ولبوا نداء الرسول (ﷺ) وعسكروا بالجرف، وهدفهم من ذلك الثأر لقتل الحارث بن عمير الأزدي، والثأر لشهداء ذات أطلاق^(٢).

إلا أن هذا لم يكن السبب الرئيسي والوحيد، وإنما شكل حافزاً لا أكثر، لأن سرايا الرسول (ﷺ) سلسلة متصلة الحلقات وهذا التحرك فرضته في المقام الأول مستجدات المرحلة، حيث الطريق مفتوحة، والقبائل متداخلة الانتماء والمصالح، أضف إلى ذلك فإن الشروع بغزوة إلى بلاد الشام ستكون بمثابة تدريب للمسلمين على خوض المعارك الصعبة، ومواجهة القوى الكبرى، وبالتالي تعويدهم على الصبر، وتحمل المشاق، واستكشاف عدوهم، وقوته، واستطلاع مواقعه وطبيعته أرضه، ومن ثم الحصول على الأسلحة المتطورة التي كانوا بأمس الحاجة إليها في تلك الظروف، خاصة وأن الرسول (ﷺ) كان ينوي فتح

(١) الواقدي: فتوح الشام ٧٥٢/١، الطبري: تاريخ الرسل والملوك ١٠٣/٣، البيهقي: دلائل ٣٢٣/٣.

(٢) البيهقي: دلائل ٣٢٣/٣.

مكة، فقد اشتهرت مشارف الشام وهي وجهتهم والمكان الذي قتل فيه الحارث بن عمير الأزدي بصناعة أحد الأنواع المشهورة من السيوف، وهي السيوف المشرفية^(١). وستظهر أحداث المعركة حقيقة هذا الأمر.

أضف لذلك دراسة ردود الأفعال العربية والأجنبية المعادية للحركة العسكرية المسلمة الناشئة في الجزيرة العربية ورفع المعنويات لدى المسلمين والانتقال إلى مرحلة التفكير بنشر مبادئ الدعوة خارج حدود الجزيرة باستخدام الوسائل المناسبة كافة، وفتح خط تجاري إلى الشام مستقل عن الخط القرشي ومنافس له، ليحل مسألة الأمن الغذائي في المدينة ذات الخصوبة الزراعية، واختراق الحاجز القبلي المتحالف مع بيزنطة في الشام، وإقامة مراكز نفوذ للإسلام على الأطراف الشامية.

هذه الأسباب مجتمعة مع الشرارة الأولى، والتي تمثلت بقتل الحارث عجلت في قيام هذه الغزوة التي استعمل عليها الرسول (ﷺ) زيد بن حارثة فهو شامي المولد وينحدر من قبيلة كلب، وقال إن أصيب فجعفر بن أبي طالب، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة على الناس، فإن أصيب فليرتض المسلمون منهم رجلاً فيجعلوه عليهم.

لذا عرف جيش هذه الغزوة بجيش الأمراء، إذ تم تعيين ثلاثة قادة بالتتابع، وهذا التصرف يظهر لنا إدراك الرسول (ﷺ) صعوبة العمل الذي يقدم عليه، وخطورته، وأن هناك خطة مرسومة يجب تنفيذها بدقة، وقد ربط الرسول (ﷺ) الخروج إلى مؤتة بوصايا تدعو إلى السلام والمحبة^(٢)، أصبحت هي القانون الحربي الذي سار عليه خلفاؤه من بعده.

وما إن وصل الجيش إلى مؤتة حتى وجد جيش هرقل في مآب، فالتقى الجمعان، وقاتل المسلمون ببسالة حتى قتل زيد وجعفر وعبد الله، فاستلم القيادة خالد بن الوليد الذي

(١) الحموي: معجم البلدان ١٣١/٥.

(٢) ينظر ملحق رقم ()، الواقدي: المغازي ٧٥٧/٢-٧٥٨.

استطاع التراجع بجيشه باتجاه المدينة، وظن الروم أنه يريد تخديعتهم، ورميهم في الصحراء فلم يتبعوه^(١).

وبعد هذه الغزوة، قللت بعض القبائل التي كانت في شمال الجزيرة العربية من شأن المسلمين، وكان لابد إزاء هذا الحال أن يبعث النبي (ﷺ) بعونه إلى تلك القبائل لتأديبها حتى تعود للمسلمين هيبتهم.

فعندما سمع الرسول (ﷺ) أن جمعاً من بلى، وقضاعة والروم قد تجمعوا ضد المسلمين يريدون الإغارة على أطراف المدينة^(٢) شعر بأمس الحاجة إلى القيام بحكمة بالغة توقع الفرقة بينها وبين الروم، وتكون سبباً للاتلاف بينها وبين المسلمين، حتى لا تحتشد هذه الجموع مرة أخرى^(٣)، كما أنه لابد من الضغط اقتصادياً لتمهيد السبيل لفتح مكة، وذلك بالحصول على موارد قريش وإمكاناتها وطاقاتها، وزيادة الضغط عليها من أجل التسليم، ومن هنا لابد من حرب استباقية، لذلك وفي شهر جمادى الآخرة من سنة ٨هـ/٦٢٩م حدثت غزوة ذات السلاسل دعا الرسول عمرو بن العاص، وكلفه بقيادة الحملة كون عمر بن العاص يمت بصلة القريش إلى قبائل بلى وقضاعة^(٤)، ولأنه اشتهر بحسن سياسته وخبرته، ودهائه، وذكائه وعقد له لواء أبيض، ثم أنجده بسرية على رأسها أبو عبيدة بن الجراح، فقامت بينهم معركة تمكن المسلمون من خلالها القضاء على تجمع القبائل، وأصابوا غنائم كثيرة.

(١) الواقدي: المغازي ١٦٤/٢، الديار بكرى: تاريخ الخميس ٧٢/٢-٧٣.

(٢) الواقدي: المغازي ٧٧٠/٢، ابن عساكر: التاريخ الكبير ١٠٣/١، ابن الأثير: الكامل ١٠٩/٢.

(٣) المباركفوري: الرحيق المختوم، ص ٣٣٦-٣٣٧.

(٤) البلاذري: أنساب الأشراف ٤٦٠/١.

- فتح مكة ١٠ رمضان ٨هـ / ٦٢٩م:

في الوقت الذي حال الحول على عمرة الحديبية خرج الرسول (ﷺ) بأصحابه الذين كانوا معه في العام الماضي ليقضوا العمرة التي فاتتهم في السنة السابقة، ووصل الرسول وصحبه إلى مكة في السنة السابعة للهجرة، وحينئذ خرج منها أهل مكة فدخلها المسلمون، وأقاموا فيها ثلاثة أيام، أدوا خلالها مناسك العمرة، وبعد ذلك عادوا إلى مدينتهم.

وكان أن نقضت في أثناء ذلك قريش الهدنة مع الرسول بسبب قضية رد النساء المكيات إذا أسلمن، وبعد هزيمتهم في مؤتة قامت قبيلة بكر التي هي في حلف قريش بمهاجمة خزاعة التي هي في حلف الرسول لثارات قديمة بينهما^(١) فشاركتهما في ذلك جماعة من قريش، واعتدوا على خزاعة، وفي ذلك إشارة إلى نقض العهد الموقع يوم الحديبية.

ويبدو أن قريش ندمت على معاونتتها بكر، فأسرعت بإرسال أبي سفيان ليفاوض الرسول، ولما علم الرسول بذلك ونقض قريش للصلح أخذ يستعد للسير إلى مكة. فسار ومعه عشرة آلاف مقاتل، وفي منتصف الطريق، لقي الرسول عمه العباس، وأبا سفيان، فأسلما بين يدي الرسول وأخذوا منه أماناً للقريشيين، فأكرمهما الرسول، وعاملهما معاملة كريمة، وأعلن أن من يدخل دار أبي سفيان في مكة فهو آمن... ومن أغلق بابه فهو آمن. ومن دخل المسجد فهو آمن.

وعاد أبو سفيان مسرعاً إلى مكة ليدعو قريشاً إلى الإسلام والاستسلام للرسول، لأنها لا قبل لها بما جاءها به من رجال وعدة.

(١) ابن هشام: السيرة ٣٨٩/٢.

وكان دخول الجيش المسلم إلى مكة دخولاً يسيراً، ولم يلق مقاومة تذكر، وتوجه الرسول (ﷺ) فور دخوله إلى الكعبة، طاف بها سبع مرات شاكراً الله على ما يسّر له من فتح عظيم مردداً ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾^(١).

وقد كان لدخول النبي مكة أعظم الأثر فقد جاءته قريش معلنة إسلامها بين يديه، ومبايعته على السمع والطاعة لله ورسوله، وقد عامل الرسول القرشيين معاملة تنطوي على التسامح والمحبة، وأجابهم حين سألوه عما تراه فاعل بهم بقولته المشهورة (اذهبوا فأنتم الطلقاء). وأعلن للمجتمعين حوله حرمة مكة، وأصدر أوامره بتحطيم الأصنام الموجودة في الكعبة، كما أعلن بعد فتح مكة مباشرة عن انتهاء الهجرة وبقي في مكة بعد الفتح خمسة عشر أو عشرين يوماً أشرف خلالها على تحطيم الأصنام في الكعبة والأصنام الخاصة الموجودة في البيوت، وعمل على تأمين نفقة الفقراء الذين رافقوه، ولم يغنموا لأن الرسول (ﷺ) منع استباحة مكة.

وأدى فتح مكة مما أدى إلى أن قريش التي كانت حامية الديانة العربية قبل الإسلام، أصبحت الآن في صف الدين الإسلامي وخاضعة لرسوله، وأخذت تعمل على نشره، والدفاع عنه، لذا فإن كفاح الرسول المسلح من أجل نشر الإسلام في الجزيرة العربية بعد فتح مكة سيشهد تأييد قريش لا معارضتها، كما كانت حالها قبل أن تنحاز إلى صفه، وتحققت المرحلة الأولى من توحيد الأمة العربية بالإسلام، وخرجت الدولة العربية الإسلامية من نطاق الدولة المدنية إلى نظام الدولة الكبيرة، ولم يمض عام حتى امتد سلطانها إلى جميع بلاد العرب.

(١) سورة الإسراء: الآية ٨١.

- حصار الطائف:

على الرغم من فتح مكة عاصمة الديانة الوثنية العربية وخضوع قريش حامية هذه الديانة ظلت بعض القبائل على معارضتها للرسول. وأبت أن تظهر الخضوع له، أو القبول بالدين الذي جاء به.

وقد عدت قبيلة هوازن، وقبيلة ثقيف في الطائف، ذلك ضربة قاضية للوثنية في الجزيرة العربية، وأيقنتا أن الضربة التالية سيوجهها النبي (ﷺ) إليهما لارتباط الطائف بمكة منذ قبل الإسلام.

وبناء على ذلك فقد وجد بنو ثقيف أن لا مصلحة لهم في مساهمة الركب القرشي الذي غدا مهبط الجانب، معطل التجارة ففضلوا التحالف، وأملوا أن يحلوا محل قريش في السيطرة على تجارة الحجاز للحلم الذي كان يراودهم من قبل، والذي لم يستطيعوا تحقيقه. فقرروا أن يبادروا الرسول بالحرب، ويهاجموه قبل أن يستكمل استعداداته، وتجمع من ثقيف، وهوازن عدد كبير وساروا يريدون مكة تحت سيادة سيد هوازن مالك بن عوف وساقوا معهم على عادة العرب قبل الإسلام أموالهم، ونساءهم ليكون ذلك حافزاً على الاستبسال في الحرب.

فخرج لهم الرسول على رأس الجيش الذي قدم به مكة فاتحاً بعد أن ضم إليه ألفين من القرشيين، فعدت عدة الجيش اثني عشرة ألف مقاتل، كان من بينهم أبو سفيان بن حرب^(١). فلما انتهى الرسول (ﷺ) إلى حنين ١٠ شوال ٨هـ / ٦٢٩م عسكر بها، وكننت ثقيف وهوازن في شعاب الوادي، وجوانبه، وممراته الضيقة استعداداً لمباغطة المسلمين، وفي صبيحة اليوم التالي سارت تشكيلات الجيش الإسلامي باتجاه وادي حنين،

(١) ابن هشام: السيرة ٨٣/٤، الواقدي: المغازي ٨٨٩/٣، خماش وعامل، تاريخ الدولة العربية الإسلامية، ص ٦٢.

وبدأ المسلمون هجومهم في وقت مبكر لا تزال الظلمة فيه مختلطة بالنور، فلم يروا أعداءهم الذين انقضوا على المسلمين بحركة مباغتة أفرعتهم، وأشاعت الفوضى في صفوفهم، فأسرع بعضهم بالهرب، أما الرسول (ﷺ) فقد ظل صامداً في مكانه، ورأى أن أهم ما يجب عليه عمله هو إعادة تنظيم صفوف المسلمين بعد أن دبت الفوضى بينهم، وسيطر العرب على بعضهم، ففر كثير منهم، وخاصة الذين أسلموا حديثاً من قريش^(١).

لكن سرعان ما استعادوا تنظيمهم، واستأنفوا القتال مبلين بلاء حسناً^(٢)، حتى تمكنوا من إيقاع الهزيمة بهوازن وثقيف وأجبروهما على الفرار، تاركين أموالهم وذرائعهم غنيمة للمسلمين، وهكذا كان نصر الرسول في حنين نصراً مؤزراً استطاع به أن يفرق تجمعاً قبلياً كبيراً كان يريد الشر به وبدينه.

وأرجأ النبي توزيع الغنائم، ورد النساء والذرية إلى هوازن إلى حين عودته من الطائف حتى يفرغ من أمر العدو، وتاهب للسير إلى الطائف لمطاردة فلول ثقيف الذين لجؤوا إليها، وكانت هذه المدينة إذ ذاك محصنة، ويحيط بها سور، يحول دون اقتحامها، فنزل الرسول مع أصحابه على مقربة من حصن الطائف^(٣)، فاعتدى أهل هذه المدينة بنابلهم على المسلمين، مما اضطر الرسول إلى أن يعسكر في مكان آخر يأمن فيه على أصحابه من رميات أهل الطائف^(٤). ونادى مناديه في أثناء حصاره هذه المدينة بأن من يأتي إليه من عبيدها يصبح حراً، فنزل عليه ثلاثة وعشرون رجلاً، فأعتقهم، ووكل أمر النفقة عليهم إلى بعض المسلمين، كما أمر بتعليمهم القرآن والسنن، فشق ذلك على أهل الطائف.

(١) ابن هشام: السيرة ٨٥/٤-٨٦، المقريزي: إمتاع الأسماع ٤٠٦/١.

(٢) الواقدي: المغازي ٩٠١/٣ وما بعد، الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٧٨/٣.

(٣) المقريزي: إمتاع الأسماع ٤١٦/١.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٨٣/٣.

واستمر حصار الطائف خمس عشرة ليلة، اضطر بعدها الرسول إلى رفع الحصار بحلول شهر ذي القعدة، وهو من الأشهر الحرم، ولكن سرعان ما أعلنت هوازن إسلامها، ومن ثم بعثت ثقيف إلى الرسول (ﷺ) تعلن إسلامها، وأعلن الرسول حرمة الطائف، وغدا الثقيفيون بعد ذلك من أشد أنصار الإسلام حماساً، وقدموا للدولة العربية الإسلامية عدداً من أشهر قادتها، ورجال السياسة فيها^(١). وهنا لابد من الإشارة إلى أهمية التنظيم والانضباط فإن غرور المسلمين في حنين كاد أن يصل بهم إلى خسارة المعركة والهزيمة الكاملة وقد ورد ذلك في القرآن الكريم ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَصَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَآرِحَبَتِهَا وَيَسْتَمُ مُذِيرِينَ﴾^(٢).

غزوة تبوك رجب ٩هـ / ٦٢١م:

بعد عودة الرسول (ﷺ) من حصار الطائف إلى المدينة أقام فيها ما بين ذي الحجة إلى رجب ٩هـ / ٦٢١م، ثم أمر الناس بالتهيؤ لغزو الروم، فحدثت غزوة تبوك حيث حاولت بيزنطة بعد مؤتة أن تفرض الحصار الاقتصادي على الحجاز لأن محمد (ﷺ) الذي أراد أن يجعل المدينة مركزاً اقتصادياً وسياسياً وإدارياً لا يستبعد أنه وجه المسلمين إلى خليج العقبة للاستيراد، فقامت بيزنطة بإغلاقه، لذا عمل الرسول (ﷺ) بعد مؤتة، وذات السلاسل، وفتح مكة لكسر هذا الحصار، ثم انقلبت الموازين تماماً، فأصبح الإسلام قوة يحسب حسابها بعد حنين وحصار الطائف، وبذلك متن الرسول (ﷺ) جبهته الداخلية، فعاد، ووجه عدة غزوات وصلت حتى حدود الشام قبل أن يقود بنفسه الغزوة الأخيرة التي عرفت بغزوة تبوك، والتي كانت استكمالاً للغزوة التي سبقتها غزوة ذات السلاسل، إلا أنها كانت أكبر عدداً وعدة،

(١) خماش وعاقل: تاريخ الدولة العربية الإسلامية، ص ٧٠.

(٢) سورة التوبة: الآية ٢٥.

والسبب فيها أن جماعة من الأنباط الساقطة إلى المدينة، والذين كانوا منذ قبل الإسلام يقدّمون المدينة بالدقيق والزيت يبيعونها لأهلها، واستمروا على هذا الحال بعد الإسلام وكان الرسول بعد هجرته إلى المدينة يتلقى منهم أخبار الشام، وما يجري فيها، وما يهيج ضده من قبل حكامها الروم، وصادف أن قدم جماعة من هؤلاء الأنباط من الشام إلى المدينة بتجارهم وأخبروا الرسول أن الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام، وأن هرقل قد رزق أصحابه لسنة كاملة، وعسكروا مع لحم وجذام وغسان، وعاملة في البقاء بانتظار المسير إلى المدينة لحرب الرسول (ﷺ)، وكان الفصل صيف، والحر شديد، والناس منهمكة في جني الثمار، والوقت غير مناسب للطلب من الناس أن يتركوا ديارهم، ويسيروا إلى الحرب.

وهنا وجد الرسول نفسه بين خيارين لرد هذه الجموع، إما تركهم يدهمون الإسلام والمسلمين في عقر دارهم^(١)، وبذلك يكون قد نحسّر المسلمون الكثير من المكاسب التي حققوها، أو مفاجأة الأعداء في مكان تجمعهم، فتكون حرباً وقائية.

وبالطبع أخذ بالخيار الثاني، وذلك لعدة أسباب منها، إظهار قوة المسلمين، وعزّزهم، وحرص النبي (ﷺ) على عدم اقترابهم من المسجد الحرام.

وقد رأى الرسول (ﷺ) أن تحرك الروم في أرض العرب يعني انحسار الانتصار الذي أحرزه الرسول (ﷺ) بعد فتح مكة وحنين والطائف وغيرها، مما كان له أثر في بث الرعب في قلوب العرب، وبالتالي تغيير لصورة القوة التي ظهر بها الجيش الإسلامي.

ولم يعتد الرسول (ﷺ) الإفصاح عن وجهته إلا أنه في هذه الغزوة أعلن عنها^(٢) للأسباب السالفة، واستنفر الناس من مختلف القبائل الموالية له، وحض أهل الغنى على النفقة، فلاقت دعوته قبولاً عند الكثير من الأشخاص كعثمان بن عفان، وأبي بكر

(١) أبو خليل: في التاريخ الإسلامي، ص ١٩٧.

(٢) الواقدي: المغازي ٩٩٠/٣، البيهقي: دلائل ٢١٣/٤، ابن عبد البر: الدرر، ص ٢٣٨.

الصاديق، وعبد الرحمن بن عوف، والعباس بن عبد المطلب، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن عباد، ومحمد بن مسلمة، وعاصم بن عدي وعاصم بن مسلمة وغيرهم كثير، حتى أن النساء ساهمن بما يملكن من مال وحلي^(١).

هذه الظروف القاسية التي جهز الرسول فيه جيشه، دعت الكثيرين إلى تسمية الغزوة بتسميات كثيرة^(٢).

وسار الرسول، وكان دليله في السير إلى تبوك علقمة بن الفغواء الخزاعي، وعندما وصلوا وادي القرى لم يجد المسلمون أيًا من الحشود التي أخبر بها الساقطة (الأنباط) وأقام الرسول (ﷺ) في تبوك عشرين ليلة على خلاف في المصادر، لم يحدث فيها قتال فصالحه أهلها على الجزية، وأثناء ذلك بجنة بن روبة صاحب إيالة فصالحه على أن يؤدي عن كل حالم بأرضه ديناراً في السنة، فبلغ ذلك ٣٠٠ دينار، واشترط عليهم أن يقرأوا من بحرهم من المسلمين^(٣)، كما قدم عليه وهو بتبوك أهل أذرح فصالحهم على مائة دينار في كل شهر، وصالح أهل جرباء على الجزية، وكتب لهم كتاباً أمنهم به، وكتب لأهل مقنا عهداً مماثلاً.

ثم أرسل بعد هذا خالد بن الوليد ليخضع بعض أمراء القرى المجاورة، كأكيدر بن عبد الملك الكندي بدومة الجندل حتى يضمن بذلك خضوع كل منطقة شمال الحجاز، والبادية للدولة العربية الإسلامية، فلا يتمكن أهلها إعانة الروم إذا ما قدموا إلى بلاد الحجاز من هذه الناحية.

ويذكر المؤرخون أن خالداً تمكن من أسر أكيدر، وقدم به على رسول الله (ﷺ) فعفا عنه عندما أعلن إسلامه، وصالحه على الجزية^(٤)، وكتب له، ولأهل دومة الجندل كتاباً مشابهاً.

(١) الواقدي: المغازي ٩٩١/٣، الديار بكرى: تاريخ الخميس ١٢٣/٢.

(٢) الديار بكرى: تاريخ الخميس ١٢٢/٢.

(٣) ابن الأثير: الكامل ١٩١/٢، البلاذري: فتوح البلدان، ص ٧١.

(٤) ابن سعد: الطبقات ١٢٦/٤، البلاذري: فتوح البلدان، ص ٨٥، ابن عبد البر: الدرر، ص ٢٤٢، ابن

سيد الناس: عيون الأثر ٢٢٠/٢، الديار بكرى: تاريخ الخميس ١٢٨/٢.

وعاد الرسول بعد هذا إلى المدينة، وكانت تبوك هذه آخر غزوة يخرج فيها الرسول محارباً.

— حجة الوداع:

ولما كان موعد الحج، عهد الرسول إلى أبي بكر بإمارة الحج، وذلك في نهاية العام التاسع، ثم أصدر بيان براءة تضمنتها سورة التوبة في القرآن الكريم، وفوض إلى علي بن أبي طالب مهمة قراءتها على مشهد من جميع الحجاج بمكة، وفي هذا البيان نبذ عهوده التي كان قد عقدها مع القبائل التي وادعها، والتي لم تدخل بعد في الإسلام، وألغى كل عقد أبرمه معها، وأمهل هذه القبائل أربعة أشهر لإشهار إسلامها، والدخول في الدولة العربية الإسلامية، وإلا عدواً خارجين على نظامها ووجب على المسلمين محاربتهم، وجاء في البيان أن مكة أصبحت بحرمها إسلامية بعد أن برئت الكعبة من الأصنام، وأن الحج أصبح يجري على الطريقة الإسلامية، وأنه لا يجوز لغير المسلم أن يحج، ويقرب من المسجد الحرام، وتعرض البيان للمنافقين فأندبرهم بالعذاب^(١).

وقد كان بيان البراءة إنذار وجهه الرسول إلى المشركين في موسم الحج، وهو الموسم الذي يجتمع فيه كل ممثلي قبائل العرب في بلاد العرب بعد أن مكن لنفسه ولدولته بالانتصارات التي أحرزتها دولة الرسول (ﷺ) في المدينة في السنين التسعة التي مرت بعد الهجرة. وهدف بيان براءة ضم جميع القبائل في شبه الجزيرة العربية إلى الدولة العربية الإسلامية عن طريق تحويلها إلى الإسلام وخضوعها لدين الإسلام.

— عام الوفود:

وبعد إعلان بيان براءة بدأت وفود القبائل العربية تصل تباعاً معلنة خضوعها للإسلام، ودخولها في طاعة الدولة العربية الإسلامية، فسمي عام الوفود ٩هـ / ٦٣٠ م حتى

(١) زكار وخريوطي: تاريخ الدولة العربية الإسلامية الأولى، ص ١٢٧.

المسيحيين في نجران والغساسنة في بلاد الشام، وكان رسول الله (ﷺ) يرسل مع هذه الوفود معلمين مهمتهم تعليم هذه القبائل قواعد الإسلام، وفي الوقت نفسه تحصيل الصدقات منهم^(١)، وبفضل هؤلاء المعلمين، دخلت قبائل العرب في الإسلام، ووصل الفائض من مال الصدقات بعد توزيع ما استلزم توزيعه على فقراء هذه القبائل إلى المدينة.

وأصبح الحج في ذلك العام، يشمل عدداً كبيراً من عرب شبه الجزيرة حتى عرف باسم الحج الأكبر.

وهكذا لم يحل عام ١٠هـ/٦٣١م حتى كانت كل الجزيرة العربية دولة عربية إسلامية موحدة باستثناء منازرة الحميرة وغساسنة جلق والحامية، وهؤلاء الغساسنة خاصة كانوا يشكلون خطراً ماثلاً على الدولة العربية من الجهة الشمالية، وقد أدرك النبي (ﷺ) هذه الحقيقة منذ أمد بعيد، فأراد أن يتبع دعوته السلمية لنشر الإسلام خارج الحجاز، بإعداد جيش لغزو الأراضي الجنوبية لبلاد الشام حيث يقيم الغساسنة، فكان بعث أسامة زيد بن حارثة ١١هـ/٦٣٢م الذي توفي الرسول ولم يكن قد أرسل بعد، وسيتم إرساله في عهد الخليفة أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) لذا سيتم الحديث عنه في حينه.

المهم أن الرسول (ﷺ) وفي السنة العاشرة للهجرة، خرج للحج في أكثر من مائة ألف من المسلمين، وعند جبل عرفات ألقى على المسلمين خطبته الخالدة التي تعتبر دستور الإسلام، فقد بين فيها قواعد الإسلام، ونادى بالمساواة بين الناس، لا فرق في ذلك بين العبد الحبشي والشريف القرشي. ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ﴾^(٢) وقد نزل على

(١) الأنازي في فتوح البلدان، ٨١-٨٢-٨٣.

(٢) سورة الحجرات: الآية ١٣.

الرسول (ﷺ) قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(١).

ولم يمض على حجة الوداع ثلاثة أشهر حتى مرض الرسول عليه الصلاة والسلام، وانتقل إلى جوار ربه يوم الاثنين ١٣ ربيع الأول ١١هـ / ٨ حزيران ٦٣٢م، وهو في الثالثة والستين من عمره^(٢) بعد أن أبلغ الرسالة، وأدى الأمانة على أحسن الوجوه، وأكملها.

موقف اليهود من الدعوة:

آثرنا أن نشير إلى هذا الموقف بشكل مستقل لما له من خصوصية ما تزال قائمة فموقف اليهود من الديانات السماوية كان موقفاً معادياً وما فعله اليهود إزاء المسيحيين والمسيح واضطهادهم لهم، وللمخلص المنقذ وصلبهم له معروف للجميع، وقد حاولوا القيام بالدور نفسه بالنسبة للإسلام لأنهم يدركون أحقية هذا الدين، ولكنهم يرفضون الاعتراف بذلك حفاظاً على مكتسباتهم، ومكانتهم، وطموحاتهم، وقد ناصبوا النبي الكريم العداء، وتآمروا على الإسلام والمسلمين، وحاولوا بث الفرقة، وإذكاء الفتن بين القبائل والأفراد، وتحالفوا مع قريش ضد الإسلام، ولم يلتزموا بأي عهد قطعه أو اتفاق أقاموه مما اضطر النبي الكريم إلى إعلان الحرب عليهم، وهو الذي احترم عباداتهم، وجعل القدس أولى القبلتين، وعاملهم بالحسنى والاحترام.

وقد بدأ الرسول بإجلائهم عن المدينة، وهم بنو النضير، وبنو قريظة وبنو قينقاع، ثم لاحق فلوهم، وحاصر معقلهم في خيبر، وأبعد خطرهم عن الدولة الإسلامية الفتية.

(١) سورة المائدة: الآية ٣-٤.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٣/٢٠٠.

ومن المفيد ذكره كمثال هنا أن الرومان أجلوهم عن القدس أيضاً ومنعوهم من السكن بها، وأقر الإسلام هذه السياسة، ففي العهدة العمرية في أثناء فتح القدس التي سنتعرض لها لاحقاً جاء في هذه العهدة منع سكن اليهود في القدس، وبالتأكيد لم يكن الأمر اعتباطياً، والآن يقومون بالدور نفسه بين الدول العربية، ووصل الأمر بهم إلى إعلان يهودية في القدس تمهيداً لتحقيق دولة إسرائيل الكبرى، ولكن العرب المسلمين لا يوجد بينهم من يسير على هدي الفاروق، وهدي الإسلام والعروبة، بل على العكس أكثرهم يعملون إلى جانب العدو الصهيوني وحلفائه متجاهلين حتمية التاريخ وحقيقة انتصار الشعوب ورفض الجيل العربي الناشئ لكل سياسات الخضوع والإذلال والتفريط بالمقدسات والحقوق...



**بعض مظاهر
حضارة العرب في عصر الرسول (ﷺ)**



بعض مظاهر حضارة العرب في عصر الرسول (ﷺ)

ماهي التنظيمات التي أحدثها الإسلام في شتى المجالات الدينية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية والقضائية، والسياسية والعسكرية؟

١ - النظم الدينية:

يعد القرآن الكريم أساس التشريع الإسلامي، لذا فآثره يظهر في المجالات الدينية، وقد نزل على رسول الله (ﷺ) في مكة، واستكمل التزول في المدينة، فالسور المكية اهتمت بأحكام الله، وما شرع لعباده من أمور دينية، (الشهادة، الصلاة، الصيام، الزكاة، الحج...)، والسور المدنية نظمت المعاملات بين الناس (البيع، الشراء، المكاييل، الموازين، أمور الزواج، المعاملة...).

ومن خلال القرآن نظم الرسول (ﷺ) أمر جماعته المسلمة.

٢- النظم الثقافية:

نزل القرآن الكريم باللغة العربية الفصحى لذا كان لذلك أكبر الأثر في توحيد اللهجات المختلفة للشعوب التي تتكلم العربية فالقرآن حفظ اللغة العربية، بحيث صارت لغة القرآن هي اللغة التي استعملها الكتاب العرب، وأصبح القرآن مثلاً للكتابة الثرية.. فالقرآن أبلغ كتب العرب، وله أسلوب خاص به، يتميز بحسن السبك وقد أغنى وطور اللغة العربية وآدابها وأوجد لهم التشريع والقانون، وعدوبة النثر المسجع البليغ، وموسيقى الألفاظ الأنيقة التي تخرج عن أساليب الكلام المعتاد، هذه البلاغة مهزت العرب، وأثارت إعجابهم، فانساقوا إلى تقليده، ومحاكاته وبلغ من افتتان العرب بلغة القرآن الكريم أن امتنع بعضهم عن قول الشعر كلبيد بن ربيعة^(١)، لأن بلاغة القرآن، وأسلوبه وأفكاره، وأمثاله، وقصصه تفوق ما توصل إليه البلغاء، وعجز الفصحاء عن الإتيان بمثله لأنه خرج عن مألوف كلامهم، وترتيب أفكارهم.

لذا شاعت ألفاظ القرآن، وحكمه بين القبائل العربية، وصار كتاباً للعلم، وأساساً للمناهج الدراسية في الجامعات الدينية.

ولعل فيما قاله الإمام علي بن أبي طالب عن القرآن، يوضح ذلك: (فالقرآن رباً لعطش العلماء، وربيعاً لقلوب الفقهاء، ومخارج لطرق العلماء، وبرهاناً لمن تكلم به، وشاهداً لمن خاصم به، وملجأ لمن حاج به، وعلماً لمن وعى، وحديثاً لمن روى، وحكماً لمن قضى). وقد نسب المستشرقون عظمة القرآن إلى لغته الفصحى والبيان وحسن جمال آياته، وحسن تلاوتها، وإلى نفحة الطهارة الموجودة في سوره، وإن الترجمة تذهب بأكثر من جمال الصيغة، وحسن الصياغة.

(١) حسن: تاريخ الإسلام، ص ١٩٣.

٣- النظم الاجتماعية والاقتصادية والقضائية:

الإسلام عقيدة ونظام، وقد نظم حياة الإنسان العربي في شتى المجالات لأنه اهتم بالدين والدنيا، وكان همه نحو البداوة بين العرب وإقامة حضارة خالية من الفساد، حضارة تقوم على الأخوة التي تسيطر عليها روح الجماعة والعدل ضمن نظام وقانون العقيدة الإسلامية. وقد صاغت الدعوة الإسلامية نظمها الاجتماعية من خلال الآيات القرآنية التي تعتبر مصادر التشريع الديني والاجتماعي بكافة جوانبه، لأن السلوك الاجتماعي للمسلم يبنى على أوامر القرآن، ونواهيه، ومبدأ الحلال والحرام، والعقاب والثواب.

وقد رسم الإسلام للمجتمع مثلاً أعلى للحياة الاجتماعية دعا فيها إلى أن يكون الناس إخوة متحابين في الحياة على أساس المساواة في الحقوق والواجبات، فاستبدل العصبية القبلية بعصبية الدين والطاعة لله ولرسوله ولأولي الأمر، ونفخ فيهم فضائل كانوا يحتقرونها كالعفو والصبر، وتفضيل المصلحة العامة على الخاصة، والزهد بالأمور الدنيوية، وتجنب الرياء، والفخر والغضب والتفكير والعظمة.

أضف إلى ذلك فقد تناولت السور المدنية كافة أمور التشريع للحياة الاجتماعية، من ذلك أصول التعامل بين أفراد المجتمع مثل بر الوالدين، وحسن معاملة اليتيم، وحسن الجوار والاستئذان والتحية، وغض الطرف، واللباس، وصلة الرحم والعدل والطاعة.. الخ.

وبين مفهوم الأسرة، وألغى عادات كثيرة كانت متبعة في الزواج، وأحل الزواج مثنى وثلاث ورباع بشرط العدل، وأن تكون المرأة عاقراً، أو مصابة بمرض، وأباح الزواج من الإماء والجواري، وسمح بالطلاق، ونهى عن الزواج بالمشركات، وحرم الزواج من الأخت والخالة^(١).. وجعل الزواج رحمة ومودة، واشترط المهر للزوجة، والنفقة لها في حال الطلاق، وجعل الزنا اختلاط ومفسدة، وجريمة كبرى أو فاحشة، وأعطى الحقوق للمرأة

(١) سورة النساء.

المسلمة، واهتم بالعبيد والأرقاء، والحوول دون ازدياد عددهم، والحد من انتشاره، وشجع على الزواج من الأرقاء الذين اعتقوا.

واهتم القرآن الكريم بقضية العقوبة، والقصاص ووضع الحد وذلك حرصاً على سلامة المجتمع الإسلامي، ورفع مكانته، وخاصة فيما يتعلق بقضية الثار، فحث على القصاص بقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾^(١)، ومنع أن يأخذ صاحب الثار بثاره شخصياً بل جعل ذلك إلى الإمام، وأوصى بالعفو بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَائْتِ بِ مِثْلِهِ بِمَا عُرِفَ وَأَدَّاهُ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ﴾^(٢).

وأوجب الدية لولي المقتول خطأ ومنع سفك الدماء ومنع الشفاعة للشارق وهي عن الربا، ونظم عقود البيع والشراء واهتم بالموازين والمكاييل، وهي عن الغش، ولم يغفل أي ناحية تتعلق بحياة الإنسان المسلم في كل زمان ومكان.

٤- النظم السياسية:

قضى الإسلام على كل ما يدعو إلى الانقسام والخلاف، ودعا إلى دين ودولة، شعارها توحيد الصفوف في السياسة والإدارة والاجتماع^(٣)، يتبين ذلك من خطبة جعفر بن أبي طالب إلى ملك الحبشة بقوله: (كنا نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرفه، فدعانا إلى الله، وأمرنا بصدق الحديث... ولهمنا عن الفواحش، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام فصدقناه وآمنا به).

(١) سورة البقرة، الآية ٧٩.

(٢) سورة البقرة: الآية ٧٨.

(٣) الخربوطلي: الدولة العربية الإسلامية، ص ٤٧.

وقد عمل الرسول (ﷺ) على إنشاء أمة لها تقاليد وقواعد ولأول مرة في مجتمع الجزيرة العربية، قامت تجربة جديدة للحكم مركزية السلطة، لها قانون وشرعة، حاكمها يملك وحده، لأنه نبي الله ورسوله، لا ينطق عن الهوى، وقد نجح الرسول (ﷺ) إلى أبعد الحدود في إرساء قواعد لحكم الأمة الجديدة التي أقامها وإن كان لم يأت بنظرية ذات أسس ومنطلقات ثابتة واضحة^(١)، وقد أتى بنظرية خاصة في الحكم والسياسة هي نظرية الشورى معتمداً على ما جاء في القرآن الكريم: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾^(٢) وكذلك ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾^(٣).

٥- النظم العسكرية:

بتنوع مفهوم الحروب والسرايا التي قام بها الرسول (ﷺ) كون دولة قوية، مهابة الجانب، فالتف المسلمون حوله، وشكلوا جيشاً واحداً من أجل نشر الدين، وسيادة الإسلام، فالرسول عندما عرضت عليه قريش المال، لقاء ترك الدين رفض، وخسر أبو بكر ماله وتجارته، وعمر وعلي آل إليهما مال وجاه الدولة البيزنطية والفارسية، ورغم ذلك ظلا يعيشان في تقشف وفقر، وسخر عثمان ماله من أجل الإسلام وطمعاً في مرضاة الله ورسوله.

(١) زكار: تاريخ العرب والإسلام، ص ٦٧.

(٢) سورة الشورى: الآية ٣٨.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.





العصر الراشدي



الفصل الثاني:

تاريخ العرب السياسي في العصر الراشدي

- مقدمة.

- تاريخ العرب السياسي:

أولاً: خلافة أبي بكر الصديق (١١-١٣هـ / ٦٣٢هـ / ٦٣٤م):

١ - المبايعة (مؤتمر السقيفة).

٢ - حروب الردة.

٣ - بعث أسامة.

٤ - الفتوحات: أ - في بلاد الشام.

ب - في العراق.

ثانياً: خلافة عمر بن الخطاب (١٣-٢٣هـ / ٦٣٤-٦٤٤م):

١ - سياسة عمر.

٢ - الفتوحات: أ - في بلاد الشام.

ب - في العراق.

ج - في مصر.

ثالثاً: خلافة عثمان بن عفان (٢٣-٣٥هـ / ٦٤٤-٦٥٦م):

١ - متابعة الفتوحات في عهده.

٢ - بناء الأسطول والمعارك البحرية وفتح الجزر.

٣ - الفتنة الكبرى.

رابعاً: خلافة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه (٣٥-٤٠هـ / ٦٥٦-٦٦١م):

١- معركة الجمل.

٢- معركة صفين.

٣- التحكيم.

خامساً: خلافة الحسن ونهاية الخلافة الراشدة.



تاريخ العرب السياسي في العصر الراشدي

مقدمة:

اصطلح على تسمية العصر الذي حكم فيه الخلفاء الأربعة: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، والحسن بن علي، بعصر الخلفاء الراشدين، وهو تجسيد للعصر الإسلامي بمنهجه وممارساته.

ومعنى الخلافة: نيابة عن صاحب الشريعة النبي محمد (ﷺ) ^(١) في حفظ الدين، وسياسة الدنيا، بمعنى أن يكون رئيساً دينياً، وسياسياً نيابة عن رسول الله (ﷺ) يجمع في يديه سلطة دينية بعده إماماً للمسلمين، يؤمهم في الصلاة، ويقوم على تطبيق العدالة ويحمي الدين، ويذب عنه من خطر الخارجين عليه، ودينية لأنه ينظر في مصالح المسلمين الدنيوية ^(٢).

وقد عدّ اليوم الذي انتقل فيه الرسول (ﷺ) إلى جوار ربه الحد الفاصل بين مرحلتين من مراحل حياة الدولة الإسلامية الوليدة التي أرسى دعائمها الرسول الكريم محمد (ﷺ) في المدينة مرحلة الدولة التي يرأسها نبي يوحى إليه، ومرحلة الدولة التي تتطلع إلى حاكم لا نبوة له ولكن لا بد أن يكون قادراً على السير في الطريق التي اختطها صاحب النبوة، ولذلك كانت أولى المشاكل التي طرحت نفسها بشكل عاجل ولا يقبل التأهيل بعد انتقال الرسول الكريم (ﷺ) إلى جوار ربه، هي مشكلة انتقاء قائد جديد للجماعة الإسلامية يخلفه في المهام الدنيوية التي كانت ملقاة على عاتقه والتي يتطلبها استمرار وجود هذه الجماعة من جهة، كما كان على هذا القائد أن يتعهد بالرعاية التامة، والحرص الشديد الجانب الديني من حياة هذه الجماعة من جهة أخرى ^(٣).

(١) زكار: تاريخ العرب والإسلام، ص ٧٠.

(٢) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ٥، ابن خلدون: المقدمة، ص ٥١.

(٣) خمّاش وعافل: الدولة العربية الإسلامية الأولى، ص ٨٧.

أولاً: خلافة أبو بكر الصديق ١١-١٣هـ / ٦٣٢-٦٣٤م:

١- المبايع (مؤتمر السقيفة):

ما إن عمَّ خبر وفاة الرسول (ﷺ)، وتيقن الناس منه، حتى أخذت كل فئة منهم تتحرك في اتجاه رسمته لنفسها من قبل، وذلك نحو غاية، وهدف محدد، ولعله من الممكن القول بأن مسلمي المدينة انقسموا يومئذ إلى فئات:

١- فئة المهاجرين من أقرباء النبي (ﷺ)، أو أهله، منهم علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وسلمان الفارسي وعمار بن ياسر، والعباس بن عبد المطلب، تجمعوا أولاً في بيت فاطمة، ثم تحولوا إلى حيث توفي النبي (ﷺ)، فانشغلوا بأمر غسله، وتجهيزه، وهؤلاء رأوا أفضلية البيت الهاشمي لقربته من الرسول (ﷺ).

٢- فئة ضمت الأنصار، واجتمع هذا القسم فور سماع الخبر في سقيفة بني ساعدة، للمشاورة في انتخاب سعد بن عباد حاكماً للمدينة.

٣- فئة أخرى من المهاجرين ضمت أبا بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وأبا عبيدة بن الجراح، وتحركت بسرعة وذكاء، فأحدثت تغييراً عاجلاً في المدينة، ونجح هذا التغيير بسبب عوامل داخلية، وخارجية، وحين تحرك رجال هذه الفئة، كانوا يعرفون أنه لا يوجد خطر سريع يخشى من المهاجرين الذين شغلوا أنفسهم بتجهيز النبي (ﷺ)، بل الخطر كان يكمن في تحرك الأنصار.

٤- مجموعة أهل مكة، والطائف، والتي وجدت في وفاة الرسول (ﷺ) فرصة لتحويل مكاسب الإسلام، وقوته من أجل تدعيم نفوذها السياسي والاقتصادي.

٥- بعض القبائل العربية رأت في وفاة الرسول (ﷺ) فرصة للخروج من هذا النظام.

اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة للتشاور فيمن سيخلف النبي الكريم لرئاسة المسلمين، ورشحوا لذلك زعيم الخزرج سعد بن عباد لاستلام السلطة، وقد تم إيصال

خبر اجتماع السقيفة إلى أبي بكر، وعمر، وما يدور حوله للاجتماع فأسرعوا إلى السقيفة وأخذوا في طريقيهما أبا عبيدة عامر بن الجراح.

وعند وصولهم وجدوا بأن الأنصار لم يحسموا أمرهم بعد، فقام أبو بكر بينهم خطيباً مبيناً لهم بأن القرشيين لن يقبلوا بهذا الأمر، وهم الأقرب إلى رسول الله (ﷺ)، وأوائل المسلمين، ورغم اعترافه بفضل الأنصار: ودعمهم لصاحب الرسالة، فإنه أصر على أن المهاجرين هم أصحاب الحق، وكانت المفاجأة موقف بشير بن سعد^(١) الذي لم يرض على زعامة الخزرج، فأيد المهاجرين، ودعم رأيهم، وربما كان موقفه حسداً لسعد بن عباد، وعندما كثر الجدل وتباينت الآراء، ورأى عمر أن يحسم الموقف، فأخذ بيد أبي بكر، وبايعه بالخلافة وكذلك فعل أبو عبيدة رغم معارضة زعيم الخزرج، ولم يسروا، أو يأخذوا برأي بني هاشم الذين شغلهم تجهيز الرسول (ﷺ)، ودفعه عن حضور الاجتماع، وسميت هذه البيعة بالبيعة الصغرى لأنه أعقبها بيعة جماعية في المسجد في اليوم التالي رغم اعتراض بني هاشم على الأمر، ورأيهم بأنهم أصحاب الحق في الأمر فهم الأقرب إلى رسول الله (ﷺ) وهي نفس الحجة التي طرحها المهاجرون في السقيفة.

فقد تمت المبايعة بغياب علي بن أبي طالب، والعباس عم الرسول (ﷺ)، وطلحة بن عبيد الله وسواهم ممن كانوا يجهزون الرسول (ﷺ)، ولعل ما دفع عمر إلى السرعة في هذا، الخوف من الفتنة، وتفرق وحدة الصف الإسلامي، لذا في اليوم التالي لهذه البيعة (الخاصة) دخل أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح، المسجد، فصعد أبو بكر المنبر، ووقف عمر إلى جانب المنبر، فتحدث معلناً ما حدث في اجتماع السقيفة وحدث الناس بأفضال أبي بكر، ودعاهم للبيعة (العامة) و بالتالي خطب أبو بكر في المسجد موضعاً سياسته التي تقوم على مبدأ الطاعة، وطلب من المسلمين مساعدته في إحقاق الحق

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٢٢١/٣، بخيت: عصر الخلفاء الراشدين، ص ٤٨-٥١.

وإنصاف المظلومين^(١). وقال: إنما أنا متبع ولست بمبتدع، فإن استقامت فتابعوني، وإن زغت فقوموني^(٢)، ودعا الناس إلى الجهاد، وهذا خواطر الأنصار بقوله: فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا أحد يمثلكم «فنحن الأمراء وأنتم الوزراء»، وكلمة الأمراء لا تعني منصبا إداريا، إنما مركزا استشاريا، فلا يقضى أمر بمعزل عنهم. وقد ترتب على مؤتمر السقيفة عدة نتائج، أثرت في تطور التاريخ الإسلامي بعد ذلك ثمثلت في:

- ١ - اعتماد مبدأ الشورى في اختيار الخليفة مع العلم أنها لم تطبق على شاكلة واحدة وإنما حسب ما فرضته الظروف، وتغير الأمر بعد الخلفاء الراشدين ليصبح وراثيا ضمن منطق ولاية العهد.
 - ٢ - الانتخاب حسب مواصفات يرضى عنها المسلمون كالسابقة في الإسلام والقدرة على تحمل المسؤولية وما يتبعها من مواصفات خاصة من حيث الفضائل التي يحكى بها من يرشح لهذا المنصب، فهو زعيم ديني وديني أيضا.
 - ٣ - اعتماد مبدأ المبايعة أي أن يصافح. (ابسط يدك لنبايعك)
 - ٤ - بداية نشوء الأحزاب في المجتمع الإسلامي.
- هذا ما كان من المسلمين داخل المدينة، ولكن ما موقف بقية المسلمين؟

(١) زكار وخربوطلي: تاريخ الدولة العربية الإسلامية الأولى، ص ١٥٢.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٢٢٤/٣.

٢- حروب الردة ١١-١٢هـ / ٦٣٢-٦٣٣م:

كان للقبائل العربية ردود فعل متباينة كما ذكرنا فقد رأى بعضهم أن استئثار قريش بالسلطة غير صحيح. والبعض الآخر رأى أنه غير ملزم بطاعة أصحاب النظام الجديد فهو قد أسلم والتزم بطاعة النبي الكريم وهذا لا ينسحب على غيره. وهناك الأعراب الذين لم يتمكن الإسلام من قلوبهم وحاولوا العودة إلى جاهليتهم. هذا بالإضافة إلى دور المتبسين «الذين ادعوا النبوة» أمثال.. مسيلمة الكذاب. صاحب بني حنيفة. والكاهنة سجاح في العراق والأسود العنسي في اليمن.. وطلحة بن عبد الله. في الحجاز..

وهناك بعض القبائل كانت ترى في نفسها نداً لقريش أمثال بني ثميم فطرحوا بأنهم يطبقون أركان الإسلام ما عدا الزكاة فإنهم يوزعوها في قبائلهم لأنها في رأيهم إذا دفعوها إلى قريش تُعدّ أتاوة ولم يقبلوا بذلك.

مهما يكن من أمر فقد وجد الخليفة نفسه في موقف بالغ التعقيد فإذا قبل بما هو قائم يسقط عقد الإسلام، وإذا لجأ إلى استخدام القوة فهناك نتائج سلبية لها ما بعدها.. ومع ذلك فلا بد من قرار للحفاظ على الإسلام والدولة العربية الإسلامية الجديدة، فالإسلام كما هو معروف أول من وحد العرب في دولة واحدة لها قوانينها ونظمها، ويرى علماء الاجتماع بأنه أعظم إنجاز للإسلام على الصعيد الاجتماعي.

وكان اختيار الخليفة للمحافظة على ما قام به الرسول (ﷺ) وما جاهد من أجله، وقرر إخضاع مختلف القبائل لسلطة القانون والنظام وقد صرح بذلك بكل وضوح عندما قال: والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونه إلى الرسول (ﷺ) لقاتلتهم عليه، وهناك من يطرح أسباباً عديدة لموقف القبائل أو لحروب الردة.. مع الإشارة إلى أن هذا المصطلح غير دقيق، ولكن مصادر التاريخ اعتمدته وسنفعل ذلك.

فما هي أسباب الردة؟

من بين الأسباب للردة:

- ١ - افتتان العرب بشخصية الرسول (ﷺ)، وخصوصاً أن أحكامه وتشريعاته من وحي الله، فشخصية الرسول، وصفاته، لا يتصف بها أي كائن بشري آخر، مما يجعل قضية الخضوع والطاعة لأبي بكر، ولحكومة المدينة أمراً مستحيلاً، فالعرب ارتبطوا بسيد المدينة محمد (ﷺ) والقرآن.
- ٢ - العصبية القبلية ضد قريش، حيث اعتقدت بعض القبائل أن قريشاً إذا وليت الخلافة سوف تجعلها ملكاً لها، وأن من يخلف الرسول (ﷺ) سوف يحكم على هواه، ومن أجل مصلحة قبيلته، فضلاً من أن الخلافة سوف ترفع من شأن القبيلة التي ينتمي إليها الخليفة وتنتقص من شأن القبائل الأخرى.
- ٣ - احتجت بعض القبائل على نظام الزكاة، واعتبروا أن الزكاة التي كانوا يؤدونها للرسول سقطت بوفاة.
- ٤ - عدم تمكن الإسلام من قلب بعض القبائل، فقد كان إسلام معظم البدو والأعراب ظاهرياً، ولم تترسخ في نفوسهم تعاليم الدين.
- ٥ - لم تعود القبائل العربية الخضوع لحكومة مركزية في المدينة وللنظم الإسلامية. كل هذه الأسباب أدت إلى ارتداد معظم القبائل العربية فأخذ أبو بكر الصديق على عاتقه إخضاع أهل الردة، رافضاً الصلح، أو الهدنة، لأن أي تمأون معناه هدم الإسلام ركناً من أركانه، فقام خالد بن الوليد بمحاربة طليحة بن خويلد في بزانة ومالك بن نويرة بالبطحاء، وسجاح، ومسيلمة..
- وحارب عكرمة بن أبي جهل مسيلمة في اليمامة، ولقيط ابن مالك الأزدي، ولقد سبى ذراري ونساء الأزدي، ومن بينهم قبيلة المهلب بن أبي صفرة التي أرسلت إلى المدينة، فطالب

عمر بقتلهم، ولكن أبا بكر رفض، وفيما بعد قام المهالبة بدور كبير في القضاء على الخوارج.

أما القائد شرحبيل بن حسنة، فقد سيره الخليفة إلى اليمامة، وسار العلاء بن الحضرمي إلى البحرين، واليمن لقتال الأسود العنسي، والأشعث بن قيس في حضرموت^(١). وبأقل من سنة استطاع أبو بكر الصديق القضاء على الفتنة، وأعاد القبائل إلى نور الإسلام وهدية ونظامه، وبذلك عادت الوحدة السياسية والدينية إلى الدولة العربية الفتية. وأصبح العرب المسلمون يسرون وراء زعيم واحد، وانتصر أبو بكر على العصبية القبلية، فتدفق التيار الإسلامي خارج الجزيرة العربية لتكوين إمبراطورية عربية إسلامية.

٣- بعثة أسامة بن زيد ربيع الآخر ١١هـ / ٦٣٢م:

هذه السرية كان الرسول (ﷺ) قد جهزها، وما كان يخرج أسامة بها حتى وصله نبأ وفاة الرسول (ﷺ)، فعاد إلى المدينة المنورة، ومعه بقية الصحابة، ولكن ما إن استلم أبو بكر الصديق حتى طلب من أسامة أن يتجهز لمتابعة المهمة التي أوكلت إليه من قبل الرسول (ﷺ)، إذ إن وفاته لم تمنع الجيش من متابعة مهمته بل استمر في تنفيذها، فالدعوة لم يكن ارتباطها بشخص النبي فقط، بل ارتبطت بكل الأمة، وسيتم نشرها كما خطط لها الرسول وقد هدف أبو بكر من هذا الموقف تنفيذ أوامر الرسول (ﷺ) التي استوعبها بشكل كبير، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد كان الهدف يتمثل بمشيتته من أن يسيء الروم الظن بالدولة العربية الإسلامية بعد انتصارهم على الفرس، فيقتحمون حدودها، ويجوسون أرضها.

(١) زكار وخربوطلي: تاريخ الدولة العربية الإسلامية الأولى، ص ١٧٤، شجاع: دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ٢٨٩ وما بعد.

ومن هنا كان حرصه على إنفاذه^(١) ليكون ذلك دليلاً مادياً على أن الإسلام ما زال قوياً، وأن حالة المسلمين بعد وفاة نبيهم لا تقل عن حالتهم قبل وفاته، وأنهم لم يتزعزعوا من هول المصائب بل هم على استعداد أن يؤدبوا كل متمرد على تعاليم الإسلام^(٢). وانطلق أسامة، ثم عاد، بعد أن حققت الغزوة أهدافها، ونجح الجيش في تحقيق النصر، وزادت هيبة الدولة الإسلامية، وارتفعت المعنويات، ومهدت لبداية مرحلة جديدة من مراحل الدعوة في خارج حدود الجزيرة، وحمّت الدولة من أخطار كثيرة.

٤ - الفتوحات:

بعد الانتهاء من حروب الردة، اندفع العرب للخروج من شبه الجزيرة العربية وفتح العراق، وبلاد الشام، وكان منطلقهم في ذلك نشر الدين الإسلامي، والجهاد الذي حث عليه.

فالإسلام رفع معنوياتهم، وإحساسهم بالقومية، وحثهم على رفض هيمنة الفرس والرومان على القبائل العربية في الدول المجاورة لهم، خصوصاً أن الرسول قد مهد لذلك بغزوة تبوك ومؤتة..

أضف لذلك فإن حروب الردة، أثارت الروح القتالية بين المسلمين أنفسهم، لذا كان لا بد من إيجاد مجال آخر للحرب خوفاً من الفتن الداخلية، وبالتالي ضعف بيزنطة وفارس مما سهل على العرب القضاء عليهما.

من ذلك يقف الباحث مشدوهاً مبهوراً أمام تلك الاندفاعات التي اكتسحت دولاً كبرى، وقبائل ذات شكيمة وقوة، ودانت لها ديانات كان لها صولة وجولة، — اليهودية

(١) الواقدي: المغازي ١١١٨/٣، ابن سعد: الطبقات ١٤٥/٢.

(٢) العقاد: العبقريات، ص ٣١٦.

والمسيحية، واليهودية — وأصبح الإسلام من القوة بحيث ترفرف أعلامه على رقعة واسعة من العالم.

والذي يرصد الأحداث منذ عصر الرسول (ﷺ) يلاحظ أن سراياه وغزواته، كانت تتجه للشمال، وبناء على ذلك جمع الخليفة أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) المجلس الاستشاري لديه، فدعا عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وطلحة بن عبيد الله التميمي، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وأبي عبيدة بن الجراح، رضوان الله عليهم، ووجوه المهاجرين والأنصار^(١)، واستشارهم، وتم الاتفاق على التعبئة العامة، واستنفار القوى حيث قام الخليفة في الناس يحثهم على ذلك قائلاً: (إن الله قد أنعم عليكم بالإسلام وأكرمكم بالجهاد، وفضلكم بهذا الدين على كل دين، فتجهزوا عباد الله إلى غزو الروم بالشام^(٢))، إذ إن الخليفة أبا بكر الصديق بعد أن أمن الإسلام في عقر داره، بدأ بالعمل من أجل تأمين الإسلام في حدوده، ودفع خطر هجوم الأعداء عليه^(٣)، لذا عقد أبو بكر الصديق اللواء إلى خالد بن سعيد بن العاص، وكلفه غزو الروم ٢ ربيع الآخر ١٢هـ/ ١٦ حزيران ٦٣٣م. ثم ما لبث أن عُزل بعد نصيحة عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، وذلك بسبب ترتيبات وخطط الفتح التي اقتضت ذلك، لا كما ادعى بعضهم بحجة تأخره عن مبايعة أبي بكر بالخلافة، وجعله على رأس قوة احتياطية في تيماء فقط^(٤).

وبدأ الجيش بالتجمع في المعسكرات، وفي أثناء ذلك خرج الخليفة أبو بكر الصديق، وتساءل فيما إذا كانت هذه القوة كافية، فرد عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) بأنها لا تكفي،

(١) الأزدي: فتوح الشام، ص ٢، ابن عساكر: التاريخ الكبير ١/١٢٦، الدواداري: كنز الدرر ٣/١٦٢.

(٢) الأزدي: فتوح الشام، ص ١١، ابن عساكر: التاريخ الكبير ١/١٢٧، الكلاعي: الاكتفا ٣/١٠٨.

(٣) لجنة من أساتذة جامعة الأزهر: دراسات، ص ٢٤١.

(٤) الأزدي: فتوح الشام، ص ٦، الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٣/٢١٩، الذهبي: تاريخ، ص ٨١.

فاستشارهم أبو بكر الصديق الرأي فكان الجواب بضرورة مراسلة القبائل ودعوتهم إلى الجهاد، فبعث أنس بن مالك إلى اليمن، وكتب كذلك إلى أهل الطائف ومكة^(١).

وأقبلت قبائل اليمن، ومعهم الذراري والأموال والنساء يتلو بعضهم بعضاً، قبيلة إثر قبيلة، وقوم إثر قوم، وكان لكل قبيلة رايتها وشعارها الذي يجتمعون عليه^(٢).

وبدأ الخليفة بعقد الألوية في أوقات مختلفة، ولجهات متعددة، مراعيًا في ذلك طبيعة الأراضي الشامية واتساعها وتوزيع قوات الروم، إذ إن مركز قوة الروم لم يكن في مكان واحد ومحدد، وإنما كانت عبارة عن حاميات منتشرة في مناطق مختلفة، مما فرض على القيادة في الدولة الإسلامية اتباع هذا الأسلوب من التكتيك العسكري.

أضف لذلك تشتيت صفوف الروم، وتوزيع قواها، فيشكل كل جيش بذلك مددًا للجيش الآخر، مما يسهل تصعيد القتال في المكان المحدد، بالإضافة إلى أنه يزيد من سهولة التموين للجيوش الإسلامية، إلا أن هذا التوزيع للجيوش أدى إلى توزيع العمل والسرعة في تنفيذه، كما أنها دلت على وجود خطة لمتابعة الفتوحات، فقد تابعت بعض الجيوش التي أرسلت إلى الشام الفتوحات فيما بعد في مناطق أخرى مثل مصر، وأرمينية، وآسية الصغرى، وغيرها من المناطق^(٣).

وكان أول لواء عقده هو لواء يزيد بن أبي سفيان، والثاني شرحبيل بن حسنة، والثالث عكرمة بن أبي جهل، والرابع لعمر بن العاص، وقد ركز أبو بكر على أهمية الاستطلاع، وجمع المعلومات عن العدو في الاستراتيجية العسكرية.

(١) الواقدي: فتوح الشام ١١/١، الأزدي: فتوح الشام، ص ٨، ابن عساكر: التاريخ، ١٢٩/١،

أفنديوش: التاريخ المجموع على التحقيق، ص ٩.

(٢) دسوقي: القبائل، ١٣٦، شلبور: الفتح العربي الإسلامي، ١٢٣.

(٣) زكار: القدس في التاريخ، ١٧/٣.

ووقعت الاشتباكات متفرقة مع البيزنطيين، وكانت في مناطق مختلفة من المناطق التي توزعت فيها قوات المسلمين، ثم بدأت المعركة، وكان أول فتح لجيوش المسلمين في تبوك على يد يزيد^(١) وتابع بقية القواد زحفهم فلقوا مقاومة عنيفة، فطلبوا المدد من الخليفة، فأرسل أبو بكر الصديق أبا عبيدة بن الجراح، وأمر خالد بن الوليد بترك العراق، والتوجه إلى الشام^(٢).

ما إن وصل خالد إلى الشام حتى جمع الجيوش في أجنادين وقاموا بالهجوم على البيزنطيين، وأحرزوا النصر في معركة اليرموك ١٣هـ/ ٦٣٤م^(٣)، ونظف المسلمون جل أجزاء فلسطين من العدو، وباتت الطريق مفتوحة إلى دمشق، ومع هذا كان لابد من إكمال عزل هذه المدينة تماماً، ولذلك خاض المسلمون بعد ذلك عدة معارك سيتم الحديث عنها في عهد الخليفة عمر بن الخطاب.

أما جبهة العراق، فبعد أن انتهى أبو بكر الصديق من حروب الردة، أراد التوجه للعراق الذي كان خاضعاً للإمبراطورية الفارسية وكان سكانه، وخاصة سواد الشعب في الأرياف والمدن من أصل عربي، وكانوا يكرهون الفرس، وعلى استعداد للتعاون مع أية قوة تنقذهم منهم، وعندما كان النبي محمد (ﷺ) يبشر بالإسلام حققت هذه القبائل نصراً كبيراً على الفرس في معركة ذي قار، وكانت قبائل بكر بن وائل من أعظم قبائل العرب المعادية للفرس، وعندما عمّ الإسلام شبه جزيرة العرب تأثرت هذه القبائل بالإسلام، وتبناه عدد كبير من أفرادها^(٤). وقد كان خالد بن الوليد أول القادة الذين تولوا عمليات الفتح في العراق زمن أبي بكر، وكان له الفضل الأول في رفع راية الإسلام في العراق وفارس، فلم

(١) الأزدي: فتوح الشام، ص ٤٠.

(٢) شنيور: الفتح، ص ١٢٦.

(٣) البلاذري: فتوح، ص ١٤٦، اليعقوبي: تاريخ ١٤٠/٢، ابن حبيش: غزوات ٢٠٩/١.

(٤) زكار: تاريخ العرب والإسلام، ص ٧٧.

يكن يفرغ من نصر يتوح به هامات المسلمين إلا ليستقبله نصر أعظم، وأروع، ولم يكن
الفرس يفيقون من غمرة هزيمة منكرة إلا ليسرعوا أمام البطل المظفر إلى هزيمة أنكر، وأوجع
حتى أصبحت الجيوش الإسلامية على مشارف الحيرة حيث دخلها في ربيع الأول
١٢هـ/٦٣٣م^(١)، وكان ذلك فتحاً عظيماً وسع أمل المسلمين، وفتح باب فارس، وقد
اتخذها خالد بن الوليد مقراً لقيادته العليا، ومركزاً رئيسياً يتلقى منه جيوش الإسلام أوامر
المحجم، والدفاع، والإمداد، والنظم، وكذلك جعلها قاعدة عامة للتدبير والسياسة التي
يقوم عليها تنظيم ما وقع في يد المسلمين.

ثم فتح عدداً من المدن إلى أن أتاه أمر أبي بكر بالتحويل إلى الشام، فحل محله المسثنى في
قيادة قوات الجبهة العراقية^(٢)، وبقي في منصبه حتى توفي أبو بكر الصديق (رضي الله عنه).

(١) ابن خنيس: غزوات ٤٢٨/٢، شجاع: دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ٣٤٦.

(٢) ابن خنيس: غزوات ٤٤٣/٢.

خلافة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ١٢-٢٣هـ/٦٣٤-٦٤٤م:

ما كان أبو بكر الصديق يحس بدنو أجله حتى دفعته الظروف إلى ترشيح عمر بن الخطاب لتولي منصب الخلافة على أساس أهليته ومناقبه، فقد خاف على المسلمين الفرقة، وأحب أن يجمعوا أمرهم بين يديه قبل وقوع القضاء.

فعمر بن الخطاب أظهر منذ زمن الرسول (ﷺ)، وفي خلافة أبي بكر الصديق اهتماماً كبيراً في شؤون الحكم، وكان واسع النفوذ زمن خلافة أبي بكر الصديق، لدرجة أن أبا بكر الصديق أجاب بعض المحتجين على تدخل عمر في أمور الحكم قائلاً: إن عمر هو الأمير، لكن الطاعة لأبي بكر الصديق^(١).

أضف لذلك أن عمر كان أسن من علي، لأن عمر ولد عام ٤٠ق.هـ، وولد علي سنة ٢٣ق.هـ، مع العلم أنه كان للسن شأن، وما زال عند العرب، وغير العرب في ولاية رئاسة الدولة، وعلى الرغم من كل ذلك، لم يستأثر أبو بكر برأيه، ولم يفرض عمر فرضاً، وإنما شاور كبار الصحابة^(٢). ففتح بعمله هذا باب الاجتهاد... لقد أراد أبو بكر رجلاً شديداً من غير عنف وليناً في غير ضعف، فوجد هذه الصفة متوافرة في عمر، وعلي، ولكن وجد في علي شدة تغلب على اللين، بعكس عمر الذي يشتد، ثم يدور ليصل إلى مبتغاه.

وقد أمر وهو علي فراش الموت عثمان بن عفان بكتابة عهده لعمر بن الخطاب، وطلب منه أن يقرأ الكتاب على الأمة، فقرأه عليهم، فأقروا بذلك جميعاً، وبايعوا، فالمبايعة جاءت على شكل توصية خاضعة لموافقة الأمة، فأبو بكر في الحقيقة لم يكن يوصي بفرد، بمقدار ما كان يوصي باستمرار منصب الخلافة على النهج الذي أخذ به.

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٢٧٥/٣.

(٢) خمّاش وعاقل: الدولة العربية الإسلامية الأولى، ص ٩٥.

وهكذا بوصية أبي بكر، يمكننا القول بأن ذلك كان بداية تحول في الفكر السياسي لدى العرب، وفي استعداداتهم وسيتطور هذا التحول مع الأيام إلى درجة القبول بفكرة الملكية الوراثية كما سلف ذكره.

لقد تم استخلاف عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يوم الثلاثاء ٨ جمادى الآخرة ١٣هـ/٦٣٤م، فأضاف إلى تسمية الخليفة لقب أمير المؤمنين.

١- سياسة عمر:

يُعد عمر بن الخطاب المنفذ لفكرة الدولة الإسلامية التي بدأ بإرساء قواعدها الرسول (ﷺ) من خلال الصحيفة وحافظ على أسسها الصديق بقضائه العنيف على الردة. ولكن في أثناء حكم عمر انطلق الإسلام خارج دولة المدينة، فاحتك بدول عظمى ذات أنظمة، وعراقية في القوانين والحكم، والإدارة، فوضع تشريعات، وأنظمة تتلاءم مع تعاليم الإسلام، والتنظم السائدة لدى الدول المغلوبة، يساعده في سلطته الدينية، والسياسية المطلقة مجلساً استشارياً يضم أهل الشورى، ويعقد جلساته في مسجد الرسول (ﷺ)، ويساعدهم أعيان المدينة، وزعماء البدو، وللحاضرين في المسجد حق إبداء الرأي، ويشكل ذلك تقليداً معروفاً منذ أيام الرسول (ﷺ)، ويشابه تقريباً ما يسمى بالملأ في عصر قبل الإسلام.

من هذا المنطلق، وضع عمر تشريعاته السياسية، وتنظيم دولته الفتية تنظيمًا لم يعهده العرب من قبل، فقد دون الدواوين، وكون جيشاً لحماية الحدود، ونظم له مراتب ثابتة ليكفل حماية الدولة، وعزل الجنود المسلمين في معسكرات خاصة، ونتيجة ذلك تكون من الفاشحين المسلمين ارستقراطية عسكرية، وعين على الأقاليم قضاة يفصلون في القضايا بين الناس مستقلين عن الولاة والعمال، ورتب البريد بحيث يصل بصورة منتظمة إلى الأماكن التي يريد أن يصل إليها، وأنشأ نظام الحسبة، ووضع التاريخ الهجري، وبالإجمال فقد

استحدثت للدولة العربية الإسلامية نظاماً إدارياً، ومالياً وقضائياً يؤمن سير العلاقات بين أفرادها سيراً حسناً.

أما أهالي البلاد فقد انصرفوا إلى أعمالهم التجارية والزراعية والصناعية، فأهل الدمة تم إعفاؤهم من الخدمة في الجيش شرط دفع الجزية، وتسقط عنهم، وعلة ذلك أن العديد منهم، أخذوا يعتنقون الإسلام قربة من دفع المال، لا اقتناعاً وقناعة بالدين الجديد، وقد أدى ذلك إلى خطر حقيقي على الصعيد المالي والاقتصادي، فلجأ عمر إلى هذا التدبير.

وترك للجيش خمس الغنائم، وأن تستأثر الدولة بالفيء من الأراضي التي تركت لأصحابها، نظير الأتاوة ولقد رأى المحاربون أن يشتركوا في الفيء، ولكن صوهم لم يرتفع في أثناء حكمه، وبعد انتهاء حكمه تدمروا وثاروا، هذا وقد تحولت هذه المراكز العسكرية إلى مدن فيما بعد.

لقد حمل عمر نفسه من المسؤولية ما جعله يهتم بكل صغيرة وكبيرة في أمور المسلمين، يتفقد رعيته، ويدرس أمورهم، يداري أشجانهم، ويقضي حوائجهم بما أوتي من طول أناة وفكر ثاقب، وقد وطن نفسه إن أمد الله بعمره أن يجعل من المجتمع الإسلامي مجتمعاً يسوده الأمن والعدالة الاجتماعية وتفرغ عليه أجنحة السعادة.

لكن حياته لم تطل حتى يحقق غايته، فتشده في تنفيذ تعاليم الإسلام، والتزامه بفكرة الدولة، والقانون أدت إلى ازدياد الناقمين عليه بسبب ضربه لمصالحهم التجارية، ونزعائهم الفردية، وراثهم القبلي بصرف النظر عن انتمائهم لقريش أو غيرها من بطون القبائل العربية، وتعاطفه في العطاء مع الطبقات الوسطى، والفقيرة بقوله: لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه، كل ذلك عجل في قتله، وإنهاء حكمه، ففي أواخر ٢٣هـ / ٦٤٣م

طلع عمر بن الخطاب من قبل أبي لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة^(١)، ولما تجمع الناس لاعتقاله، طعن منهم اثني عشر رجلاً، توفي ستة منهم ثم انتحر بطلعة من خنجره.

٢- الفتوحات:

أ- فتح الشام:

بتوجيه من الخليفة عمر بن الخطاب بعد استلامه الخلافة طلب من الجنود متابعة الفتوح في الشام، وقد افتتح عهده بعزل خالد بن الوليد عن القيادة العامة للقوات العربية في الشام وأحل محله أبا عبيدة بن الجراح^(٢)، فأخفى خالد الأمر عن جيشه وتابع القتال، حتى صار بين خيل الروم، وجندهم، وأعمل فيهم القتل مما اضطر فرسانهم للهرب في كل وجه، وهال هرقل إمبراطور الروم انتصار المسلمين، فعين قائده ماهان قائداً على جيوشه، فخاف المسلمون جيوش الروم، وقرروا ترك الشام إلى الجزيرة، ولكن خالد قال: (إن الحكم لله)، فثزل المسلمون في وادي اليرموك، وانتظروا الإمدادات، وبدأت المعركة، واختار العرب يوم ضباب غابت الشمس فيه، وعصفت الرياح، وسقت الرمال، فاهزم الروم، وسبق معركة اليرموك واحدة من المعارك الحاسمة في التاريخ حتى يومنا هذا.

وبعد اليرموك حل أبو عبيدة بن الجراح محل خالد بن الوليد وتوجه لفتح دمشق، وبيت المقدس، حيث أقام أبو عبيدة بمرج الصفر، ثم هاجم منطقة فحل، فعاقبت المياه تقدمهم، فتوجهوا إلى دمشق، فحاصروها، وكان على مقدمة الجيش عمرو بن العاص وعلى الساقة خالد بن الوليد، ولما وصلوا أسوارها نزل عمرو بباب الفرديس، وشرحبيل بباب توما، وخالد بن الوليد على رأس فرقة من الجيش قوامها خمسة آلاف مقاتل على بابها

(١) المسعودي: مروج الذهب ٢/٣٢٠.

(٢) تعددت الروايات واختلفت المصادر في ذكر أسباب العزل، الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٢/٦٢٣، ابن الأثير: الكامل ٢/٢٩٣، ابن عساكر: تاريخ دمشق ١٦/٢٦٧، زيود: تاريخ العرب والإسلام، ص ٢٠٨. إنما الأقرب للصواب أن العزل كان لأسباب تتعلق بجيش المسلمين.

الشرقي وأنزل يزيداً على الباب الصغير المعروف بباب كيسان، أما أبو عبيدة نفسه فقد نزل على باب الجابية^(١).

وتختلف الروايات في كيفية وقوع الفتح، وشرائطه كما اختلفوا في تاريخ الفتح، ومدة الحصار، وأغلب الظن أن المدينة قد فتحت صلحاً في قسم منها، وحرباً في قسم آخر، وأنه فتحت مرتين، مرة قبل معركة اليرموك، والثانية بعد اليرموك فقبل اليرموك كان المسلمون قد وصلوا إلى ما بعد حمص، ثم اضطروا إلى التراجع حتى اليرموك.

ولما تم فتح دمشق، ترك أبو عبيدة يزيد بن أبي سفيان في خيله في دمشق، وتوجه مع بقية قادته إلى فحل، وجعل خالداً على المقدمة، واشتبك المسلمون مع البيزنطيين في معركة انتهت بهزيمة البيزنطيين، وانتصار المسلمين انتصاراً باهراً، على الرغم من المياه والأوحال^(٢).

وانصرف أبو عبيدة مع خالد إلى حمص فصالح أهلها مجدداً على مثل ما صالح به أهل دمشق، ثم قصد بعلبك، وحماة، وشيزر فخرج إليه أهلها مسلمين مصالحين، واصل أبو عبيدة زحفه فسار إلى معرة النعمان، وافتتحها صلحاً، وعهد أبو عبيدة بفتح سواحل سورية إلى عبادة بن الصامت، ففتحها عنوة^(٣)، ثم افتتح انطرسوس وكانت خالية من سكانها، وافتتح جبلة عنوة.

أما أبو عبيدة فقد سار، وعلى مقدمته خالد بن الوليد إلى قنسرين، فغلب المسلمون على أرضها وقراها، وقتلوا ميناكس قائد جيش الروم، وصالح أبو عبيدة أهلها على مثل صلح حمص، ثم دعاهم إلى الإسلام، فأسلم بعضهم، وأقام على النصرانية بنو مليح بن حلوان^(٤).

(١) البلاذري: فتوح، ص ١٤٦، ابن حبش: غزوات ٢٠٩/١، اليعقوبي: تاريخ ١٤٠/٢، عرجون: خالد ابن الوليد، ص ٢٥١-٢٥٢.

(٢) الأزدي: فتوح الشام ١٤٦/١، البلاذري: فتوح، ٢٥٥.

(٣) ابن الأثير: الكامل ٤٩٢/٢، البلاذري: فتوح، ١٣٩-١٤٠.

(٤) ابن الأثير: الكامل ٤٩٣/٢-٤٩٤.

ورحل أبو عبيدة إلى حلب، وفي مقدمته عياض بن غنم، وافتتحها صلحاً، ومن هناك زحف إلى أنطاكية، واشتبك مع أهلها، وأجأهم إلى المدينة، فصالحوه على الجزية والجلاء^(١).

وما زال أبو عبيدة يفتح المدن، ويستول القلاع حتى بلغ الفرات، وسير قواده في بعوث إلى منبج، ودلوك، ورعبان وبالس، فافتتحوها صلحاً، ثم عبرت جيوش المسلمين حتى أنطاكية ووصلوا إلى مرعش^(٢).

هذا وتوجه المسلمون بقيادة عمرو بن العاص إلى فلسطين فسار إلى أجنادين التي كان فيها بقايا من الروم فحاصروهم حصاراً شديداً وهزمهم، فهربوا إلى إيلياء، فسار وراءهم، وحاصروهم، فطلب أهلها الصلح، على أن يكون المتولي لشروط الصلح عمر بن الخطاب نفسه، خوفاً من أن تتعرض كنيستهم العظمى لأعمال التخريب فقبل عمر بن الخطاب أن يتولى هذا الشرط، وكتب إلى عماله أن يوافوه بالجالية — بلدة قرب دمشق — والمسير معه إلى القدس، وفعلاً وافاه الأمراء، والقادة، وسار إلى القدس أواخر شهر ربيع الأول، وقيل ربيع الآخر ١٦ هـ/٦٣٧ م، راجلاً يقود زمام ناقته، وقد ركب عليها غلامه لأن نوبته بالركوب تواءمت مع ساعة الدخول، وبعدما تحول بين معالم المدينة يقوده البطريق صفرونيوس، رفض مصادرة أي كنيسة، أو مكان من أمكنة أهل الذمة، واختط المسجد العمري في القدس، وأمضى صلح المدينة المقدسة بنفسه^(٣).

لقد أوقف قدوم عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) إلى القدس نزيف الدم، وصان المدينة، وأماكنها المقدسة من الدمار، مقتدياً بما فعله النبي (صلى الله عليه وسلم) يوم فتح مكة، وليؤكد للناس جميعاً

(١) ابن الأثير: الكامل ٤٩٤/٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٤٩٦/٢.

(٣) البلاذري: فتوح، ١٤٤، الحنبلي: الأنس الجليل ٢٥١/١-٢٥٧، ينظر ملحق رقم ().

المكانة السامية لبيت المقدس لدى العرب المسلمين، فهي عندهم أولى القبلتين، وثالث الحرمين الشريفين.

بدخول عمر بن الخطاب إلى القدس، انتهت حقبة من عدم الاستقرار السياسي، والمظالم الدينية الكنسية التي مارسها أباطرة بيزنطة ضد الذين خالفوهم بالمعتقد الكنسي، وتبين للناس أجمع أن المسلمين أقدر الناس على حماية أماكن العبادات، وصيانة المقدسات فحرية المعتقد التزم بها المسلمون دون سواهم.

ومن ناحية أخرى علمنا قدوم أمير المؤمنين إلى القدس وتوقيعه للوثيقة أنه لا بد للمتصرف أن يحترم اعتقادات الآخرين، ودياناتهم حتى ولو كانوا مهزومين عسكرياً، وذلك ينسجم تماماً مع القاعدة المعروفة إسلامياً (العفو عند المقدرة) وعلى هذا نظف المسلمون بلاد الشام كلها من الجيوب البيزنطية.

٢- فتح العراق:

في أثناء خلافة عمر بن الخطاب زادت الاضطرابات في فارس فكتب المثنى بن حارثة إلى الخليفة عمر يستحثه على انتهاز فرصة جلوس يزيد جرد الثالث على العرش (وكان حديث السن) للهجوم، وخصوصاً بعد انتصار العرب في أجنادين، ونفذ الخليفة ذلك، ولكن الجيوش الفارسية بقيادة رستم دحرت جيوش العرب في موقعة الجسر، وردتهم إلى الصحراء، وقتل في هذه المعركة المثنى، وأبو عبيدة مسعود الثقفي، فعهد الخليفة بالقيادة إلى سعد بن أبي وقاص، فقصده سعد القادسية وكان الفرس يضحكون من نبال العرب التي يشبهونها بالمغازل ولقد اجتمع رستم بالمغيرة بن شعبة، وسأله ما يريد العرب من مال، فلبأخذه، ويرحلوا، ولكن المغيرة طلب منه اتباع الإسلام، فقال له رستم: لن تطلع الشمس، إلا ونقتلكم، وقاتل الفرس العرب، وما لبثت الرياح أن ثارت عليه، وعلى جنده حتى أعماهم الغبار، وقتل رستم، وهرب أتباعه، وغنم المسلمون أموالهم، وكتب سعد إلى الخليفة يعلمه بالنصر، فطلب منه أن يكتفي بذلك، وأن يتخذ للمسلمين دار هجرة، فأسس

سعد الكوفة، وبين الجامع، واختط المنازل، ثم توغل سعد واستولى على الحدائق قرب دجلة، بعد أن قطع الجسور، فهرب يزدجرد إلى أصبهان، وجمع حوله جيشاً مكوناً من ستين ألف مقاتل فتبعه سعد إلى جلولاء، وأوقع بهم، وأسر إحدى بنات كسرى، وقتل عدداً كبيراً منهم، ومن أثر ذلك أن اعتنق الدهاقون الإسلام، فأقرهم الخليفة عمر على ما بيدهم، ورفع الجزية عنهم، وما لبث يزدجرد أن هرب إلى مرزبان خراسان^(١).

ثم أرسل الخليفة عمر مجموعة من القادة، ففتحت نهاوند، والأهواز، وقم، وقاشان، وأصبهان، والري وقومس، وجرجان، وطبرستان صلحاً، وفتحت أذربيجان عنوة، وسار القواد إلى بلاد الترك، وساعدتهم ملكها على غزو أرمينيا، وما لبث الخليفة أن قتل، فتوقفت الفتوحات في هذه الجهات.

والواقع أن تأثير هذه الفتوحات، كان إيجابياً على العرب الذين أصابوا الكثير من الغنائم، وضموا بلاداً جديدة، وتعرفوا على حضارات راقية.

فما الذي ساعد العرب في التغلب على الفرس؟

بالطبع هناك عوامل عدة، منها ترحيب أهالي البلاد بهم فلاضطرابات الدينية من زرادشتية إلى مانوية إلى مزدكية وممارسة الطبقة الاجتماعية، إضافة إلى ظلم الحكام (ظل الله على الأرض) وفرض الضرائب.

كل ذلك أدى إلى اعتناق بعض الفرس الإسلام، نظراً لما وجدوا في المسلمين من تسامح ديني، وعدم تعرض لمعابدهم، وتقديم الحماية لهم، مقابل دفع الجزية التي تسقط بالإسلام وإعفائهم من الخدمة العسكرية، ورغم أن الأرض باتت ملكاً للفاطحين المسلمين، فلقد تركوها لهم، مقابل جزء من الغلة، أو ما يسمى الخراج^(٢).

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ١٩٠-١٩١-٢٨٦-٢٨٧، البلاذري: فتوح البلدان، ٣٠٦-

٣١١.

(٢) أبو يوسف: الخراج، ص ٢٨.

هـ - فتح مصر:

مصر امتداد طبيعي لبلاد الشام، وقد كانتا خاضعتين للدولة البيزنطية، وباعتبار أن العرب المسلمين انتزعوا منها بلاد الشام، فلا بد من انتزاع مصر، لأنه لا يؤمن جانب البيزنطيين في انتهاز أي فرصة للانقضاض على الدولة الإسلامية، خاصة إذا انتبهنا إلى أن الدولة البيزنطية، كانت تملك أسطولاً بحرياً، فليس بعيد أن تعد لهجوم مفاجئ عن طريق البحر، فتهاجم كل الشواطئ الغربية للجزيرة العربية، وتهدد بلاد الشام عبر السواحل المطلّة على البحر المتوسط، وبذا تكون مصر قاعدة انطلاق لبيزنطة.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فالقبط (المسيحيون) في مصر يعانون من اضطهاد بيزنطة، وأن هؤلاء لا يعيشون في مصر إلا بمثابة حاميات عسكرية، فلماذا لا تنهز الفرصة خاصة وأن عدل وإنصاف المسلمين لابد أن يكون قد سبقهم إلى مصر^(١).
أما الحامية نفسها، فإن الرعب لابد وأن يكون قد تملكها حينما رأت هرقل يترك بلاد الشام لتصبح جزءاً من الدولة الإسلامية.

كل هذا كان يدركه عمرو بن العاص، ويخلص إلى نتيجة، وهي أن البيزنطيين في مصر سيكونون عاجزين عن الوقوف في وجه المسلمين، بينما لو تركت مصر دون فتح، فستظل مصدر تهديد لهم وهذا ما صرح به عمرو بن العاص نفسه^(٢).

وتعددت الروايات حول أول من فكر في فتح مصر^(٣)، إلا أن الواقع يوضح، أن فتح مصر كان استجابة لخطّة مرسومة سلفاً عند الخليفة وقواده، فبعد أن انتهى من الشام، سار عمرو بن العاص ١٨هـ/ ٦٤٠م في الطريق المخاذي لساحل البحر المتوسط، فوصل العريش ففتحها، دون مقاومة، ثم سلك طريق مصر، وفي أول الحدود المصرية عند قرية الفرما لقيته

(١) قدورة: تطور تاريخ العرب، ص ١٣٢.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٥٧.

(٣) الأزداعي: فتوح الشام، ص ١١٨، ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٥٦.

حامية رومانية، فحاصرها طويلاً إلى أن سقطت في أيدي المسلمين في شهر محرم من عام ١٩هـ/٦٤١م^(١).

ويقال أن القبط ساعدوا العرب وذلك بسبب الاضطهاد الديني الذي لاقوه من البيزنطيين، وبعد احتلال الفرما سقطت بليس، وانصرف عمرو إلى حصار الإسكندرية ٢٠هـ/٦٤٢م التي امتنعت على العرب بسبب قوة أسوارها، فحاصرها أربعة أشهر إلى أن سقطت عنوة، فجعل الخليفة أهلها، أهل ذمة^(٢)، وأبقى المقوقس على رئاسة قومه، واستمر في هذا المنصب طيلة حياته، وكان العرب المسلمون يشاورونه في أمور الحكم كلما بدت لهم مشكلة استعصى عليهم حلها.

ولم يكتف عمرو بن العاص عقب سقوط الإسكندرية بالوقوف في مصر، فبنظرته الاستراتيجية كان يريد القضاء على جيوب البيزنطيين في الشمال الأفريقي، فلا بد من الزحف نحو الغرب، فاكتمح برقة، وكانت تعرف بمدينة أنطابلس ٢١هـ/٦٤٢م. وتبعها بفتح طرابلس ٢٣هـ/٦٤٤م.

وبعد ذلك فكر عمرو بن العاص أن يغزو بلاد المغرب كلها إلا أن عمر بن الخطاب نهاه عن التسرع في ذلك، وربما تخوف الخليفة من تفرق المسلمين في بلاد كثيرة، ولم تثبت أقدامهم فيها بعد، لذا اضطر عمرو بن العاص إلى الانصراف إلى مصر بعد أن أقام قائده عقبة بن نافع على هذه البلاد ببرقة يدعو إلى الإسلام، وأصبحت برقة قاعدة لجيوش المسلمين في غرب مصر.

(١) شجاع: دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص ٣٥٨.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ٢٥٩، شجاع: دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ٣٥٩.

خلافة عثمان بن عفان ٢٣-٣٥هـ/٦٤٤-٦٥٦م:

لما طعن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) عاش بعدها بضعة أيام فدخل عليه نفر من الصحابة، فسألوه أن يخلف أحداً، فقال: عليكم هؤلاء الرهط الذي مات الرسول (ﷺ) وهو راض عنهم وهم: علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وعبد الله بن عمر، وليس له أي أمر، وأوصى أن تكون الخلافة للرجل الذي يقع عليه الاختيار، وقال: هؤلاء رؤساء الأمة وقادتها فإن اختلفوا بعد موتي فعليكم بالشورى.

وبعد سجالات طويلة واختلاف في الرأي، طرح عبد الرحمن بن عوف فكرة الترشيع على ما جاء في كتاب الله وما قام به الرسول (ﷺ) أبو بكر وعمر وعندما عرض الأمر على علي قال: كتاب الله وسنة نبيه، نعم، أما ما فعله أبو بكر وعمر فقد اجتهدا وسأجتهد بحدود علمي ومعرفتي وما يصلح للمسلمين، فلم يقبل عبد الرحمن بن عوف بهذا الجواب، وأصر على اتباع ما قام به الخليفتان السابقان، ولم يقبل علي بهذا الشرط، أما عثمان فعندما عرض الأمر عليه وافق دون تحفظ على جميع الشروط، وهكذا تمت المبايعة له^(١) على هذا الأساس، وبايعه المهاجرون والأنصار^(٢).

وكان عثمان قد بلغ السبعين من عمره، حين آلت إليه الخلافة، وكان سهلاً، ليناً، ولم يكن له حزم أبي بكر وعمر، تلك الصفة التي لا بد منها لإدارة دولة مترامية الأطراف كالدولة الإسلامية، بعد عصر الفتوح، لذا فمصادرنا تقسم عهده إلى قسمين، أولهما ست سنوات جيدة، وثانيهما ست سنوات أخرى متبدلة.

(١) قدورة: تطور تاريخ العرب، ص ٣٣٣.

(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ١٧٠.

١ - متابعة الفتوحات:

تابع الفتوح في أول عهده في جهات المشرق والمغرب وقد تمرت عليه منطقة خراسان بعد أن فتحها المسلمون في عهد عمر فبادر إلى إرسال الجيش لإعادة فتحها، وإحباط مؤامرات حكامها الفرس السابقين الذين أرادوا من وراء التمرد استعادة سلطانهم القاتم، كما أحبط محاولة استعادة البيزنطيين سلطتهم، وحكمهم في مصر باحتلال الإسكندرية، وأرسل جيوشاً بقيادة عبد الله بن أبي سعد بن أبي سرح في أفريقية، وصلت قفصة وافتتحتها^(١).

٢ - بناء الأسطول والمعارك البحرية، وفتح الجزر:

وفي عهده تمكن معاوية والي الشام من تحقيق حلمه ببناء الأسطول العربي الذي كان عمر بن الخطاب قد مانع في تكوينه خوفاً على المسلمين من ركوب البحر، وقد كانت موافقة حسب ما تردده بعض المصادر، ولكن بناء الأسطول يحتاج إلى فترة زمنية طويلة وكان هذا الأسطول قد أصبح جاهزاً عند موافقة الخليفة عثمان مما يرجح أن الموافقة تمت زمن الخليفة عمر وبُني بناء الأسطول الذي أصبح جاهزاً في زمن عثمان، وهذه الروايات أقرب إلى الصواب. إن موافقة عمر كانت مشروطة بالألا يحمل مسلماً على ركوب البحر والغزو فيه إلا بمحض إرادته واختياره، فاتفق معاوية وعامل مصر عبد الله ابن أبي سرح على غزو جزيرة قبرص ٢٨هـ/٦٤٨م، وشارك في هذه الغزوة نفر من الصحابة، منهم أبو الدرداء، وأبو ذر الغفاري، وفضالة بن عبيد الأنصاري، والمقداد بن الأسود وعبادة بن الصامت، الذي حمل معه زوجته أم حرام بنت ملحان الأنصارية، فاستشهدت في قبرص، ودفنت هناك، وعرف قبرها باسم قبر المرأة الصالحة^(٢)، وقد أبلى معاوية في هذه الغزوة بلاءً حسناً، واقتحم جيشه عاصمة قبرص، فطلب القبارصة الصلح، فشرط عليهم ألا

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ٧٢، الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٤/١٠٤.

(٢) ابن حبيب: غزوات ١/٣٧٧.

يساعدوا البيزنطيين في غاراتهم على الشام، ولا يطلعوهم على أسرار العرب، وأن يقوموا بتزويد معاوية وحامياته بنبا التحركات البيزنطية، وحملاتهم ضد الثغور العربية فقبلوا^(١). ونظم معاوية بعد ذلك شؤون الغزو البحري، حيث حاصر جزيرة أرواد، وألحقها بحكومة الشام^(٢).

وفي عام ٣٢هـ/٥٦١م، اتجه الأسطول العربي إلى صقلية^(٣)، وكانت القوات البيزنطية قد تجمعت فيها، وبدأت قواتها المرتدة من الشام ومصر، تستعد لمهاجمة القوة البحرية العربية، ومحاولتها منع التعاون بين الشام ومصر، وهذا ما شجع القبارصة على نقض الصلح الذي كانت عقده مع معاوية، فهاجمتها القوات العربية المصرية الشامية بقيادة معاوية بن حديج ونزلت أرض الجزيرة، وانتصرت على بعض مدنها، وقضت على مراكز الإغارة البيزنطية القريبة من السواحل العربية.

وفي عام ٣٤هـ/٦٥٤م^(٤) بعث معاوية حملة بحرية لفتح رودس، وجزيرة أقريطش بقيادة جنادة بن أمية الأزدي.

أما أهم المعارك البحرية فكانت معركة ذات الصواري (السواري) هذه المعركة التي طغت على أسطورة البحر الرومي ولم يعد بعدها بحيرة رومية، حيث تشير المصادر إلى خروج قوة بحرية من الشام ومصر قوامها مائتا سفينة بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح، هادفة الدولة البيزنطية فتصدى لها قسطنطين بن هرقل بقوة بحرية هائلة قدرت بخمسمائة سفينة، وقيل ستمائة، أو أكثر على خلاف في المصادر^(٥).

(١) زيود: التاريخ الاقتصادي، ص ١١١.

(٢) زيود: التاريخ الاقتصادي، ص ١١١.

(٣) زيود: التاريخ الاقتصادي، ص ١١١.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٢٨٨/٤ وما بعد.

(٥) ابن حبيش: غزوات ٣٧٨-٣٧٩، زيود: التاريخ الاقتصادي، ص ١١٣.

ودارت المعركة على ساحل الأناضول بالقرب من كليكياء وعلى الرغم من الفارق الكبير بين القوتين البحريتين، فإن نصر العرب جاء نتيجة لحظة غير عادية، إذ قام العرب بربط سفنهم بعضها إلى بعض بسلاسل ثقيلة فاستحال على أعدائهم اختراق صفوفهم، واستخدموا في تلك المعركة الخطاطيف الطويلة يصيبون بها سفن الأعداء، الأمر الذي انتهى بكارثة بالنسبة للبيزنطيين بعد أن حول العرب المعركة البحرية إلى معركة أقرب ما تكون إلى المعارك البرية، ونجا القائد البيزنطي قسطنطين بفضل سفينة من السفن السريعة، وبهذا الانتصار تثبت للعرب السيطرة على حوض البحر المتوسط، والتفوق على البيزنطيين^(١).

وتوقفت المعارك البحرية كغيرها من المعارك بسبب تفجر أحداث الفتنة الكبرى، ومقتل الخليفة عثمان بن عفان والحروب الأهلية ومن بعد انتقال الخلافة إلى البيت الأموي ليعاود معاوية معاركه البرية والبحرية بعد أن يصبح حاكماً على المسلمين.

٣- الفتنة الكبرى:

كثرت الكتابات عن الفتنة الكبرى وأسبابها، لأنها تعد بحق منعطفاً تاريخياً في حياة الأمة الإسلامية حيث تباينت المواقف والخلافات إلى مستوى الصراع المسلح واللجوء إلى العنف والقتال الذي كان له الأثر الكبير في تغيير وجه التاريخ الإسلامي إذا جاز التعبير.

والبعض يحمل الخليفة مسؤولية الفتنة متناسين بحمل تطور المجتمع بشكل عام وظهور قوى سياسية واجتماعية تضاربت مصالحها وأصبحت السيطرة عليها أمراً بالغ الصعوبة، فهناك من يرى أن الخلاف بين بني هاشم وبني أمية تاريخياً هو السبب، ولكننا نرى أن الأسباب أبعد من ذلك وليست مجرد خلاف لأنه من الثابت تاريخياً أن بني هاشم قبلوا بسياسة الأمر الواقع بدافع الحرص على الإسلام والمسلمين زمن الخليفين أبي بكر وعمر والسنوات الست الأولى من حكم عثمان بالرغم من عدم اقتناعهم ورأيهم بأنهم أصحاب الحق في استلام الخلافة. لذلك

(١) زيود: التاريخ الاقتصادي، ص ١١٣.

فحصر الأمر بأنه مجرد خلاف ضمن قريش لا يصلح لأن يؤسس نزاعات وخلافات بهذا الحجم، وما تبعها من إهراق لدماء المسلمين والحروب بينهم.

لذلك نرى بأن من أهم أسباب الفتنة هو تضارب المصالح بين أصحاب رأس المال.. والنزاع القبلي إضافة إلى سوء الإدارة واستغلال السلطة من قبل ولاة عثمان. والتذمر الشعبي حيال هذا الأمر. إضافة إلى اتباع سياسة مالية لم تكن ناجحة.

وما نريد قوله هو عدم تحمل المسؤولية بشكل شخصي للخليفة عثمان، ولا بد من دراسة بحمل العوامل التي أدت إلى الفتنة الكبرى التي ذهبت بحياة الخليفة عثمان.. وفي العودة إلى بداية أسباب الفتنة نرى أنه من المعروف أن الفتوحات الإسلامية كانت على يد القبائل العربية فشعرت بالغبن ومع ذلك فالذين تولوا شؤون البلدان التي فتحت انحصرت تقريباً في البيت الأموي وحلفائهم.

وما لبثت أن ظهرت النقمة على الخليفة في الأمصار، (البصرة، والكوفة والقسطنطية)، التي غدت محور الفعالية الاقتصادية بسبب تدفق أموال الفتوحات عليها، وكانت الفتوحات أيام الخليفة عمر عاملاً مهدئاً لطبيعة العلاقة بين الاتجاه الإسلامي، والاتجاه القبلي، فحُمل السلاح من أجل العقيدة، وبذلك أهدمت الثورة في نفوس العرب، ولكن بعد وفاة الخليفة عمر، وبمجيء عثمان إلى الخلافة، بدأ الصراع القبلي مع الاتجاه الإسلامي يعود إلى الواجهة، فبدأت شكوى الأمصار من الدولة، وسبب ذلك النظام المالي الذي كان مطبقاً أيام الخليفة عمر، وجاء عثمان فاتبع نظام سلفه، وخصوصاً فيما يتعلق بانتزاع الفبيء من الجيش، وجعله للدولة، والخليفة عمر يطبق في ذلك أحكام القرآن، ورفض الخليفة عمر أيضاً تقسيم الأراضي على المقاتلين حتى لا يتركوا الجهاد، ويصبحوا فلاحين، وعندما توقفت الفتوحات تدهورت الأوضاع الاقتصادية للجنود المقيمين في الأمصار، فاعترضوا على إرسال أموال الأمصار إلى المدينة مقابل أخذ العطاء، فزاد ذلك من تدميرهم وحقدهم على

الخليفة وولاته، فتوجه أبو ذر الغفاري إلى معاوية الذي أخذ مال أهل الشام قائلاً بأنه مال الله، فقال أبو ذر: إنه مال المسلمين^(١).

وتوجهت الانتقادات إلى سياسة عثمان المالية والدينية من موارد الصدقة في الحروب، وأخذ الزكاة على الخيل، وقدم الخطبة في العيد على الصلاة، وأتم الصلاة في منى.. كل ذلك كان مخالفاً لما قام به الرسول وصحابته.

وظهرت النزعة الإقليمية لدى القبائل، وكان سببها عدم ارتياح الأقاليم لسيادة قريش والمدينة، ولشعور القبائل في الأقاليم بأن من حقها حكم مصرها كما تشاء، وتبع ذلك ظهور النزعة الإقليمية بالنسبة للهجات القرآن، فصار لكل مصر قارئ خاص، فكان جمع الخليفة عثمان للقرآن خطوة دينية سياسية للحد من نفوذ القرآن، والاتجاه اللامركزي، وصار هناك نسخة واحدة للقرآن، فاعترض عبد الله بن مسعود على إحراق الخليفة كل النسخ الأخرى^(٢).

أضف لذلك سياسة التساهل واللين والإقبال على الدنيا وانتشار الترف والبدخ بين الولاة واقتناء القصور والجواري^(٣) دفعت أبا ذر الغفاري إلى الابتعاد عن عثمان، فنفاه إلى الربة... ولا ننسى تقسيم عثمان ولايات الدولة بين أقربائه^(٤)، فمروان بن الحكم في الحجاز، ومعاوية بن أبي سفيان في الشام، وربما حاول من خلاهم ضبط أمور دولته، فانعكس ذلك سلباً عليه، وزاد الأمور تعقيداً عندما سمح لكبار الصحابة بترك المدينة واستملاك الأراضي خارج شبه الجزيرة، فالتف حولهم المعجبون والطامعون.

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٢٨٤/٤، زكار وخربوطلي: تاريخ الدولة العربية الإسلامية الأولى، ٢٦٣ وما بعد، الدوري: مقدمة، ص ٥١.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ٢١٨/٧.

(٣) المسعودي: مروج ٣٣٣/٢.

(٤) زكار وخربوطلي: تاريخ الدولة العربية الإسلامية الأولى، ص ٢٦٣.

وبدأت عوامل التذمر من النظام المالي الذي وضعه عمر، ومن غنى قريش، ورغم أنه في الأساس اختلاف قبلي، إلا أنه تطور إلى تباين اقتصادي واجتماعي، فأدى الصراع بين التيار القبلي والتيار الإسلامي، فظهر بينهما التيار الإقليمي الذي أدى إلى تحرك الأقاليم ضد حكم المدينة.

وهكذا بدأت الثورة تظهر بين الجنود، فناصرتها المدينة من خلال بعض الصحابة (علي، وزيد وطلحة) فعلي برفضه المتكرر لمبايعة الخلفاء الثلاث، هياً بذور المعارضة عند أتباعه، فكان خروج الخليفة عن بعض تقاليد الإسلام سبباً لتمردهم، وذلك من منطلق حماية المصلحة العامة، والنظم والتقاليد الإسلامية.

وما لبثت أن انتقلت الثورة إلى الكوفة التي رفضت تعيين سعيد بن العاص والياً عليها، فخرج أهل الكوفة بالسلاح بعد أن يمسوا من حكم المسلمين الشبيه بحكم الفرس، فعاد الخليفة عن قراره، وأقر الوالي الذي طلبه أهل الكوفة، فعين الخليفة أبا موسى الأشعري، وثار أهل مصر بسبب تسلط الولاة على رقاب الناس وخصوصاً بعد عزل عمرو بن العاص، ورغبة ابن حذيفة بالولاية وتعيين الخليفة لعبد الله، فهددوا بالسلاح إذا لم يستجب الخليفة إلى مطالبهم، ولم يتفجر الوضع في الشام، لأن معاوية كان ممسكاً بزمام الأمور هناك، وبدأ التذمر في المدينة، وجاءت وفود البصرة والكوفة ومصر وانضم إليهم في المدينة، فحاصروا الخليفة عثمان فاعترف الخليفة بأخطائه، وبأنه سيصلح الأمور، ويبدو أن مروان ابن الحكم ساءه أن يدعن الخليفة لمطالب الثوار، فزوّر رسالة إلى حاكم مصر طالباً منه جلد وقتل الوفد المصري، فوقعت الرسالة في أيدي الثوار، فحاصروا الخليفة للمرة الثانية،

وقتلوه الجمعة ١٨ ذي الحجة ٣٥هـ/ ٦٥٦م^(١)، وهو يقرأ القرآن، وسقطت قطرة من دمه على الآية ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾^(٢).

وقد قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، لما أتاه خبر مقتلته رحم الله عثمان، وحلف علينا بخير، وقيل له، قد ندم القوم، فقرأ ﴿كَذَلِكَ الشَّيْطَانُ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣)، وخرج إلى دار عثمان وضرب صدر الحسن والحسين، وشتم أولاد الصحابة، وأنكر عليهم قتل عثمان وهم حضور. وهكذا ذهب عثمان (عليه السلام) شهيداً إلى ربه، يشكو ظالميه وقد ثار الصحابة والتابعون لعرفتهم بمقامه، وللفاعجة التي لحقت الأمة بقتله.

لقد كان مقتل عثمان من الخطورة والأهمية بمكان كبير، إذ إنه منذ ذلك الحين، أصبح للسيف القول الفصل في تقرير أمر رئاسة شؤون المسلمين، وفتح باب الفتنة الذي لم يغلق بعد ذلك أبداً، وانشقت الجماعة الإسلامية شيعاً وأحزاباً، يحاول كل منها أن يفرض وجهة نظره بقوة السيف، وهكذا يمكننا القول إن مقتل عثمان كان نقطة البدء في الصراع السياسي الذي طبع تاريخ العرب والإسلام بطابعه قروناً طويلة.

وقد كتبت نائلة زوجة عثمان إلى معاوية تعلمه بالحادثة وأرسلت قميص عثمان الملطخ بالدم، والممزق، وأصابها التي قطعت، ونخصلة كانت قد انتزعت من لحيته، لينبزي معاوية فيما بعد للمطالبة بدم عثمان.

(١) المسعودي: مروج الذهب ٣٤٥/٢.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٣٨.

(٣) سورة الحشر: الآية ١٦.

ومن المدهش حقاً أن مصرع عثمان لم يوصل الثوار إلى تحقيق أغراضهم، بل عجل في انهيار نظام الشورى للخلافة الراشدة ومن ثم تحول وبسرعة نحو الملكية المطلقة، وذلك على يد معاوية الذي كان أول الملوك في الإسلام.



خلافة علي بن أبي طالب ٣٥-٤٠هـ/٦٥٦-٦٦١م:

بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) انسحب الأمويون فترك اختيار الخليفة للأنصار، والمهاجرين، والهاشميين وعرب الأمصار (الثوار)، ولم يكن في قريش من يتمتع بنفوذ ومكانة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه الاجتماعية والسياسية والدينية. فهو أكبر الصحابة سناً، وأكثرهم حظاً في تولي الخلافة، لأنه أكبر مقاماً من طلحة والزبير، وكان في أثناء الحصار الذي فرض على عثمان هو الذي يؤم الناس في الصلاة، أضف لذلك أن علياً كان يتمتع بثقة الأنصار التامة، حتى إن الطبري يذكر أنه لم يتخلف أحد منهم عن بيعة علي، كما أن هوى المصريين كان معه وكانت خطبتهم في التخلص من عثمان تقضي أن يكون الأمر بيد عثمان، لذا اندفع عرب الأمصار (الثوار) لمبايعته، فرفض وطلب مبايعة أهل بدر، أتى طلحة والزبير لمبايعته، واختفى بعض الصحابة من المدينة، أو تخلفوا عن المبايعة.

إذاً بعد تولي علي الخلافة، كان لابد له حتى تستكمل سلطته جميع أوجه الشرعية المطلوبة أن يرسل الكتب إلى الأقاليم والأمصار يشرح فيها ظروف توليه السلطة، ويطلب البيعة من الحكام والناس.

وهكذا انتقل الصراع على السلطة من المدينة إلى الأقاليم، وانقسم الناس هناك إلى فئات تؤيد الخليفة الجديد، وفئات تقف منه موقف المعارضة، وتطرح قضية رئاسة الأمة الإسلامية من وجهات نظر أخرى، وقد زاد الأمر سوءاً بالنسبة لعلي أنه بادر، وبتحريض من الثوار على عثمان إلى عزل عمال عثمان^(١)، وتولية أشخاص غيرهم، وقد أذعن جميع عمال الأمصار إلى طلب الخليفة الجديد، ما عدا والي الشام معاوية بن أبي سفيان^(٢) الذي

(١) زكار وخربوطلي: تاريخ الدولة العربية الإسلامية الأولى، ص ٢٧٨.

(٢) زكار وخربوطلي: تاريخ الدولة العربية الإسلامية الأولى، ص ٢٧٨.

فتح امتناعه عن الانصياع لأوامر الخليفة المنتخب صفحة دامية من صفحات التاريخ العربي الإسلامي.

وقام باسترداد الإقطاعات التي كان عثمان قد منحها لبعض أقربائه، واتبع في توزيع الصدقات والأرزاق القواعد التي سنّها عمر، فأدى ذلك إلى سحق الولاة، وخصوصاً معاوية الذي رفض الإذعان للأمر مطالباً بدم ابن عمه المقتول عثمان، وأعلن الثورة على الخليفة.

مما تقدم يُلاحظ أن علياً جاء ليسير وفق الاتجاه الإسلامي وهذا الأمر يفرض عليه عزل هؤلاء الولاة لتهديد الأوضاع، ولكن الظروف لم تواتيه بسبب قوة الاتجاه القبلي، والعصبية التي أحيّاها معاوية بطلبه الثأر الذي يشكل خرقاً لتعاليم الإسلام فأدى ذلك إلى تفجير الأوضاع الداخلية في الدولة الإسلامية، وعاد السيف ليحل المشكلات التي نشأت عن تضارب المصالح السياسية والاقتصادية، والاجتماعية بين الخليفة وأتباعه، وولاة الخليفة المقتول عثمان، فاندلعت المعارك، وانتهى الأمر بمقتل الخليفة علي بن أبي طالب.

١- معركة الجمل ٣٦هـ/٦٥٦م:

إن هذا الحدث اتخذته الكثيرون — من شتى الاتجاهات — مشجاً علق عليه ما يريد من آراء وأفكار، فمنهم من يتهم طلحة والزبير بأنهما ما خرجا إلا غضباً على الخليفة لأنه لم يولّ أحداً منهما على ما أراد من الولايات (طلحة على البصرة، والزبير على الكوفة)^(١)، ومنهم من جعل باعث خروج عائشة هو حقدها على الخليفة لموقفه الذي وقفه منها يوم حادث الإفك^(٢).

(١) قدورة: تطور تاريخ العرب، ص ١٣٩.

(٢) خمّاش وعاقل: تاريخ الدولة العربية الإسلامية الأولى، ص ١٩٩.

ومنهم من جعل الحادث نوعاً من أنواع الصراع بين بني هاشم وبني أمية بسبب الصراع على السلطة.

لا شك أن هناك عوامل وأسباب عدة لمعركة الجمل، منها ما ذكر في أسباب النقمة على عثمان بن عفان، ولا سيما الجانب الاقتصادي من هذه النقمة بسبب توقف الفتوح، واستئناف الارستقراطية المكية القديمة نشاطها التجاري، ونقلها لهذا النشاط من الحجاز إلى الأمصار حيث أترى بعض رجالات قريش ثراء فاحشاً كطلحة والزبير، فرجل مثل علي سيقف حجر عثرة في طريق مصالحها المادية فلا بد من وسيلة، أو حجة يتستران بها لتسوية ثورتهما عليه، فكان إعلانهما بأن الثائرين على عثمان غوغاء، وعبيد، وأعراب، وأن علي ابن أبي طالب استقطب ولاء غالبيتهم علماً أن المصادر التاريخية تؤكد أنه كان من بين الثائرين على عثمان أشراف، وسادة، وأبناء صحابة، ورجال فضل ودين، هذا فضلاً عن عامة رجال القبائل في الأمصار، وبعض أهل المدينة.

وقد رأى طلحة، والزبير، أن في جلب السيدة عائشة إلى جانبهما قوة هامة، لما تتمتع به هذه السيدة من مكانة كبيرة في نفوس المسلمين جميعاً، ولما لها من كلمة مسموعة فيهم، فهي زوج الرسول، وحجة للرجال والنساء في أمور الدين، فاتصلا بها، وبولادة عثمان الذين عزلهم علي، واتفق الجميع على المطالبة بدم عثمان، ولما كانت مكة بلداً حراماً، توجه الجميع إلى العراق وأعلنوا الحرب على الخليفة علي الذي جهز جيشه، وانتقل إلى العراق لمحاربتهم، وأشرفت عائشة على المعركة من هودجها المحمول على جمل، وقد أدى وجودها في المعركة إلى انقسام أهل البصرة بين مؤيد ومعارض، مما سبب في قبضها على حاكم البصرة^(١).

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٨٦/٥.

ودارت معركة سقط فيها العديد من المسلمين، وقتل فيها طلحة والزبير، وعقر جمل عائشة التي سميت المعركة باسمه.

ورغم موقف عائشة المعادي للخليفة، فإن علياً أعادها مكرّمة إلى مكة^(١).
والمفيد ذكره، أن خروج السيدة عائشة للحرب نقده الكثيرون، وسمي يوم خروجها، بيوم النحيب، حتى إن أخوها محمد بن أبي بكر، والذي وقف إلى جانب الثوار ضد سياسة عثمان وحارب إلى جانب الخليفة علي فيما بعد عارض تحركها، ولقد ندمت السيدة عائشة بعد معركة الجمل، واعتزلت الحياة السياسية^(٢) وعاشت عيشة هادئة حتى ماتت عام ٥٨هـ/٦٧٨م، وثمنت أنها لم تكن خرجت قط^(٣) وكانت إذا ذكرت أحداث الجمل تبكي حتى يبتل خمارها.

من استقراء الأحداث يتبين أن اتفاق طلحة والزبير اتفاق مصلحة، واتفاقهما مع السيدة عائشة أيضاً غاية منه الحفاظ على مكاسبهما التجارية، وعلاقتهما بعلي أيضاً قامت على المصلحة، فقبل الخلافة كانا من أنصاره، وبعد الخلافة باتا من ألد أعدائه، وربما لأتهما كانا يطمعان بالخلافة فهما من أهل الشورى، أضف لذلك أن وصول علي إلى الخلافة معناه كساد تجارتهما، وطمع الزبير بالخلافة لابنه، وفي ذلك يقول الخليفة علي للزبير (كنا نعدك من بني عبد المطلب، حتى فرق بيننا وبينك)^(٤).

وهناك من يأخذ على الخليفة علي عدم مراعاته لتطور الأحداث والتفاعل معها ضمن ما هو قائم ولم يعط الأهمية الكافية إلى ما آلت إليه الأوضاع السياسية والاجتماعية..

(١) اليعقوبي: تاريخ ١٨٣/٢.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٢٤/٢.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٢٤/٢.

(٤) شجاع: دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص ٤٢٢.

وبالطبع هناك آراء مختلفة كثيرة بعضها يرى أن الاعتماد على أهل العراق أذكى الخلاف القبلي.

والبعض الآخر يدرس الموقف بشكل أكثر شمولية فهو يرى أن علي.. يمثل التيار المحافظ في الإسلام، وحتى المتشدد في تطبيق الشريعة والقيم والمبادئ كما كان عليه الحال زمن الخليفة عمر.. وليس جهلاً منه بالتطورات التي حدثت في المجتمع فقد حاول بهذا الأمر أن يكبح جماح التيار السياسي الديني الذي طرح نفسه بقوة في المجتمع.. ولكن الأمور لم تنته إلى ما كان يرغب فيه الخليفة..

وقد أسفرت المعركة عن سقوط الآلاف من القتلى، وألم، وحسرة، وحزن في نفس كل واحد من الطرفين ونقل مقر الخلافة إلى الكوفة، بطلب من أهل العراق المعروفين بزعيمهم الإقليمي، وعصبيتهم القبلية، علماً بأن الخليفة يمثل النهج الإسلامي، والمدينة تعتبر معقل الإسلام، ولقد أدى ذلك فيما بعد إلى اصطدامه مع نزعتهم، وتقاليدهم القبلية، وبذلك باتت قوة الدولة في الأمصار (الكوفة) وانتهى دور الحجاز (المدينة) السياسي، وظهرت العصبية القبلية، وبدأ صراع الأمصار من أجل نيل الخلافة، فظهر التيار الإقليمي (العراق والشام) من أجل نيل الزعامة السياسية.

٢- معركة صفين ٣٧هـ / ٦٥٧م:

صفين اسم يطلق على موضع يطل على الشاطئ الغربي من نهر الفرات في طرفه الشمالي^(١).

بعد انتصار علي في معركة الجمل، ونقل مقره إلى الكوفة استطاع من عاصمته الجديدة (الكوفة) أن ينشر سلطانه السياسي على أغلب أقاليم الدولة الإسلامية ما عدا

(١) قرب مدينة القرّة. الحموي: معجم البلدان، مادة صفين.

الشام، وقد انتظم له الأمر في العراق ومصر واليمن والبحرين وعمان واليمامة وفارس
وخراسان وغيرها.

وظل والي الشام معاوية بن أبي سفيان لا يبايع، بل جمع صفوفه في بلاد الشام، وألب
أهلها على الإمام علي، وأهمه على منبر جامع دمشق بأنه تستر على قتلة عثمان، وأن دمه
في عنقه، ومبالغة منه في استشارة أهل الشام على الإمام علي، واجتذاهم حوله نصب قميص
عثمان، وقد خضب بدمه على منبر دمشق، وعلى أurdائه أصابع زوجته نائلة مدلاة، وكان
يذكر لهم في خطبة ما صفة قتلة عثمان فيبكي الناس، فينتهز هذه الفرصة ليدعوهم إلى
الطلب بدمه كما أنه تزوج من ميسون بنت بحدل الكلبي النصرانية، فأمن هذا الزواج سنداً
قوياً له^(١). ونجح في خطته نجاحاً لم يكن بالحسبان.

لكنه خاف من خضوع مصر للخليفة علي، لأنه شعر بالخطر لقرب مصر من الشام،
ومخافته أن يلجأ الإمام علي إلى خطة الإطباق عليه بجيش يقدم عليه والي مصر منها،
وجيش يقدم به الإمام علي من العراق بعد خضوعها له فيقع بين كفي كماشة قوية لا قبل
له بمحاجمتها^(٢).

وأمام هذا الأمر، حاول استمالة والي مصر قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري، ومناه
بتوليته للعراق، وتولية من يشاء من أهل الحجاز، وينفذ كل طلب أو أمر له.

وبعد مراسلات عديدة أظهر قيس فيها ولاءه الأكيد لعلي ووقوفه إلى جانبه دون
تحفظ لاعتقاده بأن علياً صاحب الحق في الخلافة^(٣)، ولما رأى معاوية أن متاورته مع قيس
مخففة، لجأ إلى تشويه موقف قيس، مما أدى إلى تسرب الشك في ولاء قيس إلى نفس علي،
فعزله عن ولاية مصر، وعين عليها بدلاً عنه محمد بن أبي بكر وقد عرف علي بعد عزله

(١) سالم: تاريخ الدولة العربية، ص ٣٠٨.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٥٥٠/٤.

(٣) زكار وخربوطلي: تاريخ الدولة العربية الإسلامية الأولى، ص ٢٨٤.

قيساً، أن قيساً بريء مما دس ضده، وأنه تسرع في عزله^(١). فاستعد الطرفان للحرب، وتلاقى الجيشان في صفين، وبدأت الحرب بتبادل الخطب، والمبارزات، وتبادل علي ومعاوية الرسل، ولقد خاض الطرفان تسعين وقعة تبادل الطرفان فيها النصر والهزيمة، وقتل من الجانبين أعداد كثيرة، ورجحت كفة علي، وأوشكت قواته على سحق قوات معاوية وعمرو بن العاص^(٢).

فلما رأى عمرو أن أهل العراق قد اشتد، وخاف الهزيمة، عمد إلى اصطناع الخديعة، فأمر برفع أوراق من المصاحف على الرماح، وبالمناداة بتحكيم كتاب الله بين معاوية وعلي^(٣).

والظاهر أن عمرو ومعاوية، دبرا ذلك مقدمات، ووضعوا علي بذلك موضعاً حرجاً، فاختار أبا موسى الأشعري، ليكون ممثلاً للعراقيين في التحكيم المقترح، واختار معاوية عمرو بن العاص، وتمت كتابة صحيفة التحكيم التي تتضمن ذكر المتقاضيين علي ومعاوية دون أن يذكر للأول لقب أمير المؤمنين، وحددوا زمن التحكيم نهاية رمضان، وإلا فالطرفان في حل من الحرب، وسموا الحكيمين وهما عمرو بن العاص، وأبو موسى الأشعري على أن يتخذا القرآن والسنة وحدهما، وأن يقبل علي ومعاوية حكمهما، واجتمع الحكماء بأذرح بين الشام والعراق وصحب كل واحد مجموعة من أنصاره، ثم قام أبو موسى بخلع علي وفق الاتفاق الذي تم بينه وبين عمرو على خلع علي ومعاوية، لكن عمرو أحل بالاتفاق، وثبت معاوية.

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٥٥٣/٤.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٥٥٣/٤.

(٣) المسعودي: مروج ٣٩٠/٢، ابن الأثير: الكامل ٣١٦/٣.

٣- التحكيم:

وقعت الخسارة على علي، لأن معاوية لم يكن خليفة، بل كان أمير ولاية متمرد، ومجرد التسوية بينهما رفعٌ للثاني وخط من شأن الأول، فحسر علي منصبه في الخلافة، بينما لم يخسر معاوية سوى حقه في الخلافة، هذا الحق الذي سعى إليه بالحيلة، ونسي الخليفة في التحكيم أن يفرض على معاوية عدم مقاتلة أهل مصر.

لقد أدى قبول الخليفة علي بالتحكيم إلى انقسام جيشه إلى فرق، فمنهم من أنكر عليه وضع حقه في الخلافة (وهو مقدس) للتحكيم بين الناس، والحكم لا يكون إلا للمعركة لأنها الناطقة بحكم الله، وعرف أصحاب هذه الفئة بالحكمة، وانسحبوا إلى حروراء بزعامة عبد الله الراسبي وسموا بالخوارج^(١).

وفئة من جيشه اعتزلت التحكيم، واعتزلت بيعة علي ومحاربتها، أو الحرب معه، وسموا بالمعتزلة^(٢). وظهرت مجموعة من جيش الخليفة علي، أيده، وأيدت معاوية، ودعت المسلمين إلى إرجاء العقاب ليوم الدين، مع الإشارة أنهم أول من قبل فكرة التحكيم وهناك قول مأثور لعلي.. إنها كلمة حق أريد بها باطل، ولقد عرفوا بالمرجئة^(٣).

وظهرت مجموعة التفت حول الخليفة، وشايعته، ورفضت التحكيم، لأن الخلافة ولاية من الله، ولا يجوز تركها لحكم الناس فيها، واعتمدوا في ذلك على وصية الرسول للإمام علي في غدير خم.

وظهرت القدرية^(٤)، وهؤلاء يؤكدون حرية الإرادة، ومسؤولية البشر عن أعمالهم، وانتقدوا الأحكام، لأنهم يأخذون أموال الناس ويظلموهم، ويسوغون أعمالهم بأنها قدر من

(١) البغدادي: الفرق بين الفرق، ص ٥٧، معلوف: الخوارج، ص ١٠٠.

(٢) الشهرستاني: الملل والنحل، ص ٦٠، التوتنجي: فرق الشيعة، ص ٥.

(٣) الشهرستاني: الملل والنحل، ص ٦٠، التوتنجي: فرق الشيعة، ص ٥.

(٤) قدورة: تطور تاريخ العرب، ١٥٠.

الله، وكانوا ضد الأمويين، وهناك من يرى أن القدرية جاءت رداً على أصحاب النظرية الجبرية.

والجدير بالذكر أن علي بن أبي طالب، رأى ضرورة استئناف القتال مع أهل الشام، فجمع جموعه في معسكر النخيلة، ودعا فئة من الخوارج للانضمام إليه في مسيرة لحرب أهل الشام، لكنهم رفضوا الاستجابة لدعوته، فحاربهم، وانتصر عليهم. وأراد مجدداً الزحف ضد معاوية بالشام، لكنه في هذه المرة فوجئ بخلو المعسكر من الرجال، فاضطر أن يعود للكوفة^(١).

وفي هذه الأثناء كان أهل الشام أنصار معاوية في غاية الطاعة، والانضباط، لذلك نجد معاوية يطور صراعه مع علي فيتحول من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم، ويخطط للاستيلاء على مصر المتاخمة لحدوده، وذات الموارد الكبيرة المتعددة، والموقع الاستراتيجي الهام، فأرسل عمرو بن العاص في حملة من ستة آلاف مقاتل للاستيلاء عليها.

وما إن حل عام ٣٩هـ/٦٦٠م حتى بدأت سرايا أهل الشام تغير على الأقاليم التي احتفظت بمبايعتها لعلي كالبصرة، والجزيرة ومكة، واليمن^(٢). وفي ذلك دلالة على ازدياد قوة معاوية، وأنصاره، إذ يبدو من وراء ذلك تثبيت معاوية وإظهار عجز الخليفة علي عن حماية الولايات التي تتبعه.

وبسبب كثرة غارات معاوية على العراق، وبعد أن وجد الخليفة علي أن أتباعه قد ملوا القتال، أعلن الهدنة بينه وبين معاوية، وذلك حقناً لدماء المسلمين، على أن يكون لعلي العراق والمشرق، ولعواوية الشام ومصر^(٣).

فقرر الخوارج قتله، وقتل معاوية، وعمرو بن العاص وبالفعل قام عبد الرحمن بن ملجم بقتل الخليفة علي بقوله: الحكم لله، وليس له، ونجا معاوية وعمرو^(٤).

(١) المسعودي: مروج ٣٩٥-٤٠٤-٤٠٧.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ١٤٠/٥، ابن الأثير: الكامل ٣٧٥/٣ وما بعد.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ١٤٦/٥-١٤٧.

خامساً: خلافة الحسن بن علي وتنازله (٤١هـ/٦٦١م):

اختلفت الروايات، والآراء، حول وصية علي، فمن قائل إنه أمر أن يكون الأمر من بعده لابنه الحسن، ومن قائل إنه قال حين سئل لمن يكون الأمر من بعدك: (ما أمركم ولا أنماكم أنتم أبصر)^(١).

وقد بويع الحسن بن علي بن أبي طالب بالخلافة بعد أبيه من قبل أهل العراق، ولقد بايعه قيس بن سعد بن عباد (بيعة أهل العراق). وعبيد الله بن العباس (بيعة بني هاشم وآل البيت)^(٢).

وباشر الخليفة الحسن سلطته بترتيب أوضاع البلاد الإدارية، فزاد عطاء المقاتلين، وبدأ أهل العراق بحث الخليفة على القتال، وخصوصاً وأن معاوية نزل بلدة مسكن... في حين أن الخليفة كان لديه الشكوك والحذر من أهل العراق، وسرعان ما عدل عن متابعة القتال متخذاً موقفاً بالتوجه مع بعض القبائل إلى المدائن، ودعا الخليفة الحسن عبيد الله بن عباس، وأمره بالتوجه إلى الشام لمقاتلة معاوية، ورسم له الخطة، وخطب بجند طلبة السمع والطاعة في أمره^(٣).

يتبين من انسحاب الحسن إلى المدائن، وتوجه عبيد الله إلى الشام المواقف المتناقضة بين الخليفة الحسن وأهل العراق، يضاف إلى ذلك قيام معاوية بشراء ولاء بعض القادة، مع الحرب الإعلامية الكاذبة، ومفاوضة الحسن بشأن التنازل عرضت الحسن للطعن، بيد أحد الخوارج، عندما وجدوا ميوله للسلم والصلح مع معاوية، فقام أهل العراق بالاتصال بأنحيه

(١) ابن الأثير: الكامل ٣/٣٨٨ وما بعد.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٥/١٤٦-١٤٧.

(٣) الأصبهاني: مقاتل الطالبين، ص ٥٢.

(٤) ابن الأثير: الفتوح، ص ١٥٤.

الحسين لمبايعته فرفض^(١)، كل هذه الأسباب دفعت الخليفة الحسن إلى التنازل عن الحكم، وكان بذلك أول خليفة يخلع نفسه، ويسلم الأمر لسواه.

وبذلك اُثارت الجبهة السياسية العسكرية في العراق وقُضي على معارضي خلافة معاوية الذي أرسل صحيفة بيضاء مذيلة بخاتمه مبدياً استعدادة لقبول شروط الحسن كافة، والتي تمحورت حول عودة الخلافة إلى الحسن في حال وفاة معاوية والأمن لأهل الكوفة وأتباعه، وأن يأخذ أموال الأهواز، وضمان عطاء وامتيازات آل هاشم، ودخل معاوية الكوفة وأخذ البيعة من الحسن والحسين، وانصرف الحسن والحسين إلى المدينة، وما لبث الحسن أن مات مسموماً.

ونتيجة عن تنازل الحسن أن انتصرت أسرة بني أمية على الأسرة الهاشمية، أي انتصرت الارستقراطية القرشية وأصحاب رؤوس الأموال، والمضاربات التجارية (تجارة مكة)^(٢)، على أصحاب المبادئ والمثل، أي انتصار التيار القبلي على التيار الإسلامي. وخسر العراق بسبب انتقال العاصمة من الكوفة إلى الشام العطاء، وتحولت أموال السواد إلى خزائن معاوية.

(١) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة ٦٥/١.

(٢) بيبضون: تاريخ العرب السياسي، ص ٨٤.

وكون ذلك منعطفاً تاريخياً خطيراً في التاريخ الإسلامي وتغيّر في المبادئ السياسية
الدينية التي نادى بها الإسلام (الشورى، الوراثية)، (الإمامة، آل البيت)، وترك الحسن قضية
الإمامة والائتمان على النهج الديني الذي يمثلته آل البيت العلوي، وربما كان ذلك دافعاً فيما
بعد لتمسك آل البيت العلوي بالإمامة حتى الشهادة (الحسين ومن تبعه من آل البيت).







حضارة العرب في العصر الراشدي



حضارة العرب في العصر الراشدي:

ظهر الأثر الحضاري للعرب المسلمين في العصر الراشدي في كافة التنظيمات السياسية والإدارية، والقضائية، والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية.

أولاً: النظم السياسية:

وتشمل الخلافة والوزارة والحجابه والكتابة.

١- الخلافة:

نظام مستحدث في الإسلام، ظهر كضرورة اقتضتها الحالة الإسلامية عقب وفاة الرسول (ﷺ) دون أن يعين للمسلمين من يقوم مقامه، ويعرفها ابن خلدون: (الخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها)^(١).

وأول من لقب خليفة أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب خليفة خليفة رسول الله، فاستبدل هذا اللقب بلقب أمير المؤمنين وهو يحمل معنى السلطتين السياسية والإدارية.

ويصل الخليفة للسلطة بالبيعة على مبدأ الشورى، مما يدل على أنه يختار مباشرة من قبل الأمة، ومن يمثلها من أهل الحل والعقد، وأنه لا وراثه في الحكم، ولا يسمون أحداً من أبنائهم أو أقربائهم، فأبو بكر عهد بالخلافة إلى عمر، وعثمان صار خليفة باختيار الستة المشاورين، ولكن ولاية العهد لا تعد صحيحة إلا عندما يبايعه المسلمون جميعاً.

أما مجلس الشورى فمهمته استشارية، ينتخب الخليفة ويراقب أعماله (ستة من كبار الصحابة)، والغاية من الشورى تحقيق العدالة، والتعاون بين الحاكم والمحكوم، وقضية الشورى كما وردت في القرآن لا تخضع لأي تحديد في شكلها، ونظامها وزمنها، وهي تفسر كل مفاهيم الديمقراطية القائمة على العدالة والرحمة بين الحاكم ورعيته بقوله:

(١) ابن خلدون: المقدمة، ص ٢٤١.

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾^(١)، وبعد أن ينتخب الخليفة الراشدي يخطب بالناس في المسجد، ويوضح سياسته التي ينتهجها.

٢- الوزارة:

النظام السياسي في الخلافة الراشدة، لم يعرف تسمية الوزارة رغم أنها وردت في أحاديث الرسول (ﷺ) بقوله: (من ولي منكم عملاً، فأراد الله به خيراً جعل له وزيراً صالحاً)، ووردت في حديث السقيفة عندما قال أبو بكر للأَنْصار: منا أمير، ومنكم أمير نحن الأمراء، وأنتم الوزراء، ووردت لدى زيد بن ثابت عندما قال لخطيب بني ثميم (نحن أنصار الله ووزراء رسوله)^(٢).

وقد استعمل الرسول (ﷺ) كبار الصحابة في قضاء شؤون دولته، وأعمال رعيته دون أن يتسموا بالوزراء لسببين: إن الوزارة من مستلزمات الملك وسياسة الرسول والخلفاء تقوم على البساطة مما يتعارض مع مظاهر الملك، والثاني أن الرسول (ﷺ) والخلفاء الراشدين (رضي الله عنهم) كانوا أقوياء يجمعون بين السلطة التنفيذية والتشريعية والقضائية^(٣).

كذلك كان حال عمر مع أبي بكر حيث قام بالقضاء، وتوزيع الزكاة، والخليفة عمر خص عثمان بأمور الدولة، وخص علياً بالقضاء وكتابة الرسائل، وفداء أسرى المسلمين، واستعان بالعباس بن عبد المطلب وابنه عبد الله، والخليفة عمر أرسل إلى الكوفة عمار ابن ياسر أميراً، وعبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً^(٤).

(١) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

(٢) الخالدي: شذرات في مادة النظم، ص ٤٩.

(٣) ابن خلدون: المقدمة، ص ٢٠٦.

(٤) حسن: النظم الإسلامية، ص ١١٤.

٣- الكتابة:

استعان الرسول (ﷺ) بعدد من الكتبة، وكانت ثقافة الكاتب تتعدى معرفته عدة لغات فزيد بن ثابت ترجمان الرسول بالفارسية والرومية والحبشية والعبرية، هذا عدا الصحابة فعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب كانا يسجلان الوحي، وزيد بن ثابت، وأبي بن كعب يقومان بذلك في أثناء غيابهما، وخالد بن العاص، ومعاوية كانا يكتبان بين يديه في حوائجه، وزيد بن ثابت يحرر أيضاً الرسائل إلى الملوك، ومعقيب بن أبي فاضحة يدون دخول الدولة، ومغامم الفتوح وحنظلة بن الربيع كاتب الرسول الخاص، ويعهد له أحياناً بخاتمه.

ولما ولي أبو بكر الخلافة عين عثمان بن عفان كاتباً له، وساعده زيد بن ثابت، وعبد الله بن الأرقم، واتخذ عثمان مروان بن الحكم، وعبد الله بن الأرقم كاتباً له، وصار عبد الله ابن أبي رافع كاتباً لعلي^(١).

٤- الحجابة:

لم تكن هذه الوظيفة في عهد الخلفاء الراشدين، لأنهم كانوا يسمحون للناس بالدخول عليهم دون حجاب.

ثانياً: النظم الإدارية:

وتشمل الدواوين، والإمارة على البلدان.

١- الدواوين: الديوان يعني سجل أو دفتر^(٢)، وأطلق اسم الديوان من باب المجاز على

المكان الذي يحفظ فيه هذا السجل.

(١) قدورة: تطور تاريخ العرب، ص ١٥٤.

(٢) الجهشباري: الوزراء والكتاب، ص ١٢-١٤.

والواقع أن الديوان موجود منذ أيام الرسول دون أن يتسمى هذه التسمية، والدليل على ذلك أن الرسول أراد إحصاء المسلمين فكتبوا له ألفاً وخمسمائة رجل، فإحصاء المسلمين الأول خطوة أولى نحو التدوين، وذلك من أجل دفع أموال الزكاة والأخذ ممن يتوجب عليه الدفع، وللتأكد من أعداد المسلمين للاشتراك في الجهاد. وعندما ضمت الدولة الراشدية دولاً كثيرة، وأثرت بما ملكته من أموال الفتوحات، استدعى ذلك إنشاء ديوان لتوزيع هذه الأموال على المسلمين.

هذا وقد أشار أحد مرازمة الفرس على الخليفة عمر بإنشاء ما يسمى الديوان، وقد أنشأ ما يسمى ديوان الجند لكتابة أسماء الجند، وما يخصهم من عطاء، وألف ديوان الخراج، أو الجباية لتدوين ما يرد إلى بيت المال، ويخرج منه كعطاء لكل مسلم حسب منزلته في الإسلام، وقد نشأ فيما بعد ديوان الإنشاء، وديوان الرسائل، واهتم بالبريد، وأوجد محطات له، وكان استعمال النار إشارة لنقل الرسائل، وفيما بعد أقر الخليفة عثمان، والخليفة علي التنظيمات الإدارية التي وضعها عمر^(١).

٢- الإمارة على البلدان (العمال والولاة):

يشمل النظام الإداري حكم الولايات، والمدن العربية بواسطة عمال بينهم الخليفة، وقد أخذت هذه التنظيمات الإدارية عن الفرس والرومان، وكانوا يأخذون رواتبهم من بيت المال، أما كبار الصحابة فمن الغنائم، وقد اقتصر حكم الولايات من قبل العامل على الشؤون السياسية والعسكرية والدينية، ولكن إدارة المدن التي أنشئت كالبصرة والكوفة والقسطنطين ما لبثت أن تطورت أنظمتها الإدارية والعسكرية إلى إدارة مدنية نتيجة تحولها إلى مراكز اقتصادية واجتماعية مهمة، وفي أثناء خلافة أبي بكر أقر عمال الرسول، وعندما اتسعت الدولة الراشدية في خلافة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أحدث في بلاد الشام نظاماً

(١) زكار وخربوطلي: تاريخ الدولة العربية الإسلامية الأولى، ص ٣١٤ وما بعد.

إدارية حيث قسمها إلى أقسام إدارية كبيرة، ليسهل حكمها وأقام عليها عمالاً يستمدون سلطاتهم من الخليفة، وتولى العمال أمور الصلاة، والشؤون القضائية وحماية أموال الدولة، وقيادة الجند وسمي حاكم الولاية عاملاً، ثم فيما بعد صار يسمى والياً.

فالولاية أقاليم استقرت فيها فرق من الجيش إسلامية لحمايتها، وقبض أفرادها أعطيتهم منها^(١) ولخصوصية بلاد الشام قسمها عمر إلى أجناد أربعة، هذه الأجناد كانت شبيهة بنظام البنود البيزنطي الذي بدأ هرقل بتطبيقه^(٢). وقد ذكر ياقوت الحموي أنه لم يبلغه أن كلمة أجناد استعملت في غير أرض الشام^(٣).

ويرجح أن الضرورات العسكرية هي التي أوجبت تقسيم الشام إلى هذه الأجناد، فكل جند يضم منطقة ساحلية وأخرى داخلية بحيث تستطيع كل منطقة أن تعتمد على الأخرى عسكرياً واقتصادياً، وبما أنه لم يكن للعرب في البدء أسطول قادر على حماية السواحل، فإن مراكز الأجناد كلها كانت مدناً داخلية^(٤).

وقد واصل الخليفة عثمان السياسة التي انتهجها الخليفة عمر في إدارة الدولة في أول خلافته غير أنه في النصف الثاني من خلافته لحقها الضعف بسبب وقوعه تحت تأثير أفراد أسرته الذين تولوا إدارة الولايات الكبرى في الدولة، وخولهم سلطات واسعة، وهذا مما مهد لإدارة اللامركزية في العصر الأموي.

وباستلام علي بن أبي طالب الخلافة عزل ولاية عثمان، وعين غيرهم، ولكن طريقته في إدارة شؤون الأمصار الإسلامية بقيت على طريقة من سبقه، وذلك في إمامة المسلمين فكان يعقد للعمال، ثم يضع لهم المنهاج الذي يسيرون عليه في إدارة شؤون ولاياتهم، وله

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ١٣٧.

(٢) خمّاش: الشام في صدر الإسلام، ص ٢١٥.

(٣) الحموي: معجم البلدان ٣٨/١.

(٤) خمّاش: الشام في صدر الإسلام، ٢١٥-٢١٦.

في ذلك رسائل كثيرة إلى عماله^(١)، يؤكد عليهم فيها الرفق بالرعية، وحسن اختيار معاونيهم.

ثالثاً: النظام المالي والاقتصادي:

النظام المالي والاقتصادي في الإسلام نظام إلهي، راعى مصالح الفرد والجماعة، وازن بين الرعة الفردية للإنسان في التملك، وبين مصلحة الجماعة، فمنع الاحتكار والربا، والغش والقمار، وشجع وسائل العيش الكريم من خلال تشجيع الزراعة والصناعة، وإعانة المحتاجين، وقد أنشأ الرسول (ﷺ) بيت مال للمسلمين من الزكاة لمساعدة المسلمين، وتأمين العطاء للمقاتلين من أجل الجهاد، ونشر الدعوة الإسلامية، فأوجد التوازن بين مداخيل الدولة ومصاريفها.

وقد تطور نظام المال في عصر الخلفاء الراشدين، وخصوصاً عهد الخليفة عمر بن الخطاب بعد أن اتسعت الدولة الراشدية، وتدفقت الأموال من البلاد المفتوحة، فشملت موارد بيت المال إضافة للزكاة، الخراج الذي فرض على الأرض التي صولح عليها عند الفتح، وبقيت بأيدي أصحابها، وهي مقدار معين من حاصلات الأرض الزراعية، وهذا ما يسمى بالمزاعة أو المقاسمة أو يفرض مبلغ مقرر من المال^(٢). ويرفد بيت المال الجزية وهي ضريبة كان يدفعها غير المسلمين على الرؤوس، ولم تكن متساوية، وكانت تسقط بالإسلام.

ومن موارد بيت المال الفيء، وهو الذي كسبه المسلمون دون قتال، وكان يضم خمسة أقسام عملاً بقوله تعالى: ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٢٤٢/٤-٢٤٣.

(٢) أبو يوسف الخراج، ص ٨٨-٨٩.

وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ^(١)، وبعد موت الرسول رد نصيبه من الفبيء إلى بيت المال، وقام عمر بإحصاء الناس ليضبط عملية توزيع الفبيء والغنيمة بين أقرباء الرسول والمهاجرين والأنصار والصحاباء، وأهل السيف والمقاتلين والمعوزين والموالي.

والغنيمة هي كل ما أخذه المسلمون من المشركين بالقتال وهي تشمل الأسرى (المخاريون) و السبايا (نساء وأطفالاً وشيوخاً) والأرض والمال تقسم خمساً للإمام، وأربعة أخماس هي حق للفاتحين، حسب قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَلِالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾^(٢).

والمفيد ذكره أن الخليفة عمر كان يشرف بذاته على الجباية ويخصي أموال العامل المختص بالجباية قبل استلامه المنصب، وبعد تركه منصبه، إلا ما أتاه عن طرق مشروعة، وهؤلاء العمال مستقلون عن الولاة، ويقومون بدفع أرزاق الجنء، وينفقون ما تحتاجه المصلحة العامة، ويرسلون ما تبقى إلى بيت المال.

وهناك صفات لمن يلتزم الجباية، كأن يكون فقيهاً مشاوراً لأهل الرأي، عفيفاً لا يخاف في الله لومة لائم^(٣). وكان للجباية أنظمة مختلفة قسمت بين المحاسبة والمقاسمة والالتزام. أما نفقات بيت المال، فكانت تنفق رواتب للموظفين عموماً وأعطيوات للجنود، وتسليحهم، وبناء المصانع الحربية، وصيانة المنشآت العامة، وتحرير العبيء، وكفالة اليتامى والمساكين، وابن السبيل، وإنما يتوخى في ذلك إقامة العدل.

(١) سورة الحشر: الآية ٧.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٨.

(٣) الصال: النظم الإسلامية، ٢٢٤.

ولعل التعامل في هذه الأمور تم بالعملات التي كانت سائدة البيزنطية والفارسية والتي كان يجري التعامل بها قبل الإسلام إلى أن كان عهد عمر بن الخطاب، فضرب دنانير نقش عليها عبارة الحمد لله ومحمد رسول الله، وذلك إلى جانب العملات البيزنطية والفارسية^(١). ثم نقش عثمان نقوداً عليها عبارة الله أكبر، وضرب علي نقوداً في البصرة كذلك^(٢)، ولكن ظل التداول بالنقود العربية محدوداً حتى كان تعريب النقود في عهد الدولة الأموية. أما النشاط الاقتصادي، ويشمل الزراعة والصناعة والتجارة، فقد حث الإسلام بالقرآن والسنة على العمل، وعلى الاهتمام بالزراعة، وإحياء الأرض الموات، واستصلاحها والاستفادة من الأنهار في البلاد التي فتحوها، وضموها إلى الدولة الراشدية فتحسنت المواسم. وتطورت الصناعة بشكل أفضل بسبب الفتوحات، والحصول على المواد الأولية كالحديد والنحاس والذهب، والفضة، فاشتغلوا بالصناعات المرتبطة بهذه المواد كالأسلحة وصناعة أدوات الزراعة، وحولوا المزروعات إلى صناعات، وتبع تطور الحياة الاقتصادية فيما بعد ظهور النقابات فصار لكل مهنة نقيب مسؤول عن إدارتها. وفي المناطق الساحلية ازدهرت صناعة السفن، وذلك بسبب توافر الأخشاب اللازمة لصناعاتها.

وتبع تطور الزراعة والصناعة، واتساع البلاد ازدهار التجارة، والتي كانت سبباً في دخول الإسلام إلى بعض المناطق عن طريق التجارة، وارتبط بتطور الأسواق، ومع تطور الأسواق أحدثت وظيفة المحتسب لمراقبة الأسواق، ومنع الغش، والاحتكار وخدمة مصالح المسلمين في المدن وسيتم الحديث عنها في النظم القضائية.

(١) قدورة: تطور تاريخ العرب، ١٦٤.

(٢) قدورة: تطور تاريخ العرب، ١٦٤.

وقد ارتبطت بعض الأسواق ببعض المهن كمهنة الصرافة التي وجدت منذ عصر الرسول، واكتسبت شأنًا كبيراً بعد الفتوحات، وأوجدوا نظام الحوالة المالية لتسهيل التبادل التجاري^(١).

رابعاً: النظم العسكرية:

حين أذن الله سبحانه وتعالى للرسول بالقتال، دعا أتباعه للجهاد دفاعاً عن النفس، ومن أجل نشر الدعوة الإسلامية داخل شبه الجزيرة العربية وخارجها، وكان الجيش الإسلامي في زمن الرسول وفي خلافة أبي بكر يتكون من المتطوعة الذي يحثهم على الجهاد، ولقد أمن الرسول أرزاقهم من أربع أحماس الغنائم وبعد انتهاء الحرب يعود المتطوعة إلى أعمالهم.

ولكن بعد فتح العرب بلاد الشام، والعراق، وفارس، ومصر، أنشأ الخليفة عمر بن الخطاب ديوان الجند، وذلك من أجل إنشاء جيش دائم في السلم والحرب، وتأمين حراسة مستمرة لحدود وتغور الدولة الراشدية، وأقام الخليفة عمر للجند مدناً عسكرية وحصوناً لراحتهم في أثناء تنقلهم، ومنعهم من العمل في الزراعة والاختلاط مع أهل البلاد^(٢).

وقد استعمل الرسول النبال، والرمح والسيف، والمنجنيق والدبابة والطنبور. وتألف الجيش من المقدمة والرجالة والفرسان ولقد حرص المسلمون على اصطحاب نسائهم اللواتي يبقين في المدن الحصينة، ويقمن بقرع الطبول لإثارة حماس الجنود^(٣).

وقاد الرسول (ﷺ) غزواته بنفسه، كذلك الخلفاء من بعده، ولكن لما تعددت الجيوش صار الرسول يرسل من ينوب عنه في قيادة الجيش مثل خالد بن الوليد، وسعد بن أبي

(١) حلاق: مقدمة في تاريخ العرب السياسي، ص ١٧١.

(٢) حسن: النظم الإسلامية، ص ٤٧٩.

(٣) ابن هشام: السيرة ٣/٣٠٣.

وقاص، والمثنى بن حارثة، والذين كان لهم الفضل الكبير في تغيير أسلوب الحرب من الكر والفر إلى الوقوف صفوفاً للقتال، أو التنظيم حسب الكراديس.
أما الجيش البحري فقد أنشأ أول أسطول بحري عربي في زمن الخليفة عثمان بن عفان.
خامساً: النظام القضائي:

القضاء في الإسلام يعتمد استنباط الأحكام على القرآن الكريم والسنة والاجتهاد والفتيا^(١). وقد قام الرسول (ﷺ) بمهمة الفصل في المنازعات بين المسلمين والمشركون واليهود، ووضع الصحيفة لتنظيم العلاقات بين سكان المدينة.
ولما توسعت الدولة الإسلامية أذن الرسول (ﷺ) لبعض الصحابة بالقضاء بين الناس وفقاً للقرآن والسنة والاجتهاد والفتيا.

وفي أثناء خلافة عمر ولي الخليفة أشخاصاً سمووا بالقضاة فعين أبا الدرداء على المدينة، وشريح بن الحارث على الكوفة وأبا موسى الأشعري على البصرة، وقد سن هؤلاء القضاة نظاماً يمشون على هديه في إصدار الأحكام التي كانت تنفذ على أثر صدورها.
ولعل نظام الشرطة ملحق بالقضاء لتنفيذ أحكام القاضي ومساعدته في إقامة الأدلة على المتهم، وإثبات جرمته، وإقامة الحدود، وفي عهد عمر أدخل نظام العسس في الليل، وحراسة المدينة وأزقتها من عبث اللصوص، وقام الخليفة علي بتنظيم الشرطة، وعين رئيساً لها سمي صاحب الشرطة، أو صاحب الليل، وأسند ذلك المنصب إلى علية القوم ممن اشتهروا بالعصبية والقوة^(٢)، واهتم الخليفة عمر بإيجاد ما يسمى بالسجن.

وسلف ذكر وظيفة المحتسب عند الحديث عن النظم الاقتصادية والأسواق، هذه الوظيفة ليست قضائية فحسب إنما تشمل النواحي الدينية والاجتماعية والاقتصادية، وقد

(١) حسن: تاريخ الإسلام، ٤٨٣.

(٢) الصالح: النظم الإسلامية، ٣٣٠.

ظهرت كتب كثيرة قُتِمَ بهذا النظام، الذي عرف منذ أيام الرسول فقد كان سعيد بن العاص محتسباً في سوق مكة، وعلي بن أبي طالب، وأبو موسى الأشعري، لمراقبة الأسواق وتجارة اليمن ومحاربة فساد الأسواق، واهتم عمر بنظام الحسبة، فقام بمراقبة الأسواق بنفسه مع مجموعة من الرجال سمووا بالعرفاء.

سادساً: النظام الاجتماعي:

حطَمَ الإسلام منذ أيامه الأولى النظام الاجتماعي الذي كان سائداً بين العرب قبل الإسلام، وقرر لهم نظاماً آخر يقوم على أسس جديدة مما أدى إلى صقل، وتهذيب المجتمع الراشدي وصهره في بوتقة الحضارة والرقى.

أضف إلى ذلك أن انتشار الدولة الراشدية خارج شبه الجزيرة العربية أدى إلى احتكاك المسلمين بدول وحضارات مزدهرة، فزاد ذلك من ارتقاء المسلمين في شتى مجالات الحياة، وظهر في المجتمع الإسلامي طوائف من أهل البلاد المفتوحة من النصارى أو اليهود، والذين سماهم العرب أهل الذمة، وتركوا لهم حرية ممارسة شعائرهم الدينية، ولم يتعرض المسلمون لأماكن عباداتهم، وقد صهر الإسلام هذه الطوائف الاجتماعية المتباينة في بوتقة المساواة التي عدت من أهم مبادئ الحكومة الراشدية.

والفريد ذكره أن الخلفاء الراشدين عاشوا حياة التقشف في المأكل والملبس، فكان لباسهم لا يتعدى العباءة والشملة وجة الصوف المرقعة بالأدَم، واستعملوا العمامة والطيلسان فوق العمامة، ليتقوا حر الشمس، ولبسوا العباءة، وفوقها القباء من وبر الجمّل، أما لباس المرأة فعبارة عن سروال فضفاض، وقميص مشقوف عند الرقبة، وعليه رداء قصير ضيق وإذا خرجت المرأة لبست الحبرة، وهي ملاءة لتقي ثيابها من التراب.

وأشهر أطعمتهم التمر مع الزبدة، والخبز في الرائب، واللحم مع الماء واللبن، والسلاء،
والجراد، والإبل أفضل الذبائح^(١).

وقد حمل الفن العربي خصائص مشتركة في الهندسة على الرغم من اختلاف المواد
المستخدمة من بلد إلى آخر.

ولقد تم بناء المساجد، وكانت غاية في البساطة، ثم قاموا بعمارة المدن، وأحاطوها
بأسوار منيعة، وكان لأصحاب كل حرفة أحياء خاصة في المدينة، ولكل حي أبواب منيعة،
وهناك حراس على هذه الأبواب.

سادساً: الحياة الفكرية:

اقتترنت الدعوة الإسلامية منذ بدايتها بنشر التعليم، والهداية من الجهل، والضلال،
وذلك كضرورة لتطوير الإنسان العربي، فأول آية نزلت على الرسول (ﷺ) اقرأ، وهناك
العديد من الآيات القرآنية تحث على العلم مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا
يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^(٢) وقوله أيضاً: ﴿مَنْ تَلَوَّاهُ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣)
وكذلك ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾^(٤)، وأكد الرسول على
أهمية العلم حرصاً منه على بناء أمة تقوم على طبقة متعلمة راسخة في العلم، لها قوة الحجة
والقدرة على الإقناع، وقد جاء في الحديث: (من سلك طريقاً يلتمس به علماً سهل الله له
طريقاً إلى الجنة) فجمع حوله (ﷺ) أفضل شباب العرب، وجعلهم نواة زرعها في أنحاء
الدول الإسلامية فأنبعت نبوغاً وإشراقاً في سماء الإسلام، يقول الرسول (ﷺ) أرحم أمي
بأمي أبو بكر، وأشدهم في دين الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأفضاهم علي،

(١) الأبيهي: المستطرف في كل فن مستظرف ١/١٦٢.

(٢) سورة الزمر: الآية ٩.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ٧.

(٤) سورة المجادلة: الآية ١١.

وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل وأفرضهم لـ (علم الفرائض والمواريث) زيد بن ثابت، وأقرؤهم لكتاب الله أبي بن كعب، ولكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة^(١). هؤلاء صحابة الرسول (ﷺ) أخذوا عنه العلوم الدينية كافة، فحرصوا على نشر تعاليم الإسلام في كل أنحاء الدولة الراشدية.

وكان الرجل والمرأة متساويين في التعليم بدليل أن الرسول (ﷺ) طلب من الشفاء بنت عبد شمس أن تعلم زوجته حفصة الكتابة ولقد وجه الرسول (ﷺ) أصحابه لتعلم اللغات الأعجمية كالفارسية والرومية والقبطية والحبشية لأغراض مراسلة الحكام الأجانب والترجمة إلى العربية وأولى عليه الصلاة والسلام بعض الاهتمام لمعارف العرب العامة كالشعر والأمثال والأنساب والخطابة، ووجهها لخدمة الدعوة الإسلامية.

واهتم بالمعارف العلمية فكان الحارث بن كلدة ورمثة رفاعية بن يثري من جملة الأطباء في عهد الرسول (ﷺ).

وواصل الخلفاء الراشدون ما ابتدأه الرسول (ﷺ). ولكن اقتضت اهتمامات الخلفاء الراشدين على علوم الدين فشملت القراءات وتدوين القرآن الكريم والتفسير والحديث. هذا وقد كان للأدب حظ وافر في صدر الإسلام، ولم يخرج عن مألوف عصر قبل الإسلام مع ذكر المعاني الجديدة التي بشر بها القرآن كالبعث والجنة والنار والحساب.

ثامناً: النظم المعمارية:

ارتبطت العمارة والفن عند العرب المسلمين بتعاليم دينهم، وانعكس ذلك على هندسة وعمارة المساجد والمدن.

وقد عرف العرب المسلمون بعد حروب التحرير فنون البلاد المفتوحة، فاقتبسوا منها ما ينسجم مع عقيدتهم، وذوقهم وطباعهم، ثم ما لبثوا أن طبعوا ما أبدعوه بطابعهم المميز.

(١) ابن عساکر: تاريخ دمشق ٨٠/٣٣.



الفصل الثالث
تاريخ
العرب السياسي في العصر الأموي



أولاً: تاريخ العرب السياسي في العصر الأموي:

أ- الفرع السفلي:

- ١- معاوية بن أبي سفيان ٤١-٦-٥٠هـ / ٦٦١-٦٨٠م.
- ٢- يزيد بن معاوية ٦٠-٦٣هـ / ٦٨٠-٦٨٣م.

ب- الفرع المرواني:

- ١- مروان بن الحكم ٦٤-٦٥هـ / ٦٨٤-٦٨٥م.
- ٢- عبد الملك بن مروان ٦٥-٨٦هـ / ٦٨٥-٧٠٥م.
- ٣- الوليد بن عبد الملك ٨٦-٩٦هـ / ٧٠٥-٧١٥م.
- ٤- سليمان بن عبد الملك ٩٦-٩٩هـ / ٧١٥-٧١٧م.
- ٥- عمر بن عبد العزيز ٩٩-١٠١هـ / ٧١٧-٧٢٠م.
- ٦- يزيد بن عبد الملك ١٠١-١٠٥هـ / ٧٢٠-٧٢٤م.
- ٧- هشام بن عبد الملك ١٠٥-١٢٥هـ / ٧٢٤-٧٤٣م.
- ٨- الوليد الثاني ١٢٥-١٢٦هـ / ٧٤٣-٧٤٤م.
- ٩- يزيد الثالث وإبراهيم بن الوليد ١٢٦هـ / ٧٤٤م.
- ١٠- مروان بن محمد ١٢٧هـ / ١٣٢م.

ج- سقوط الدولة الأموية.



أولاً: تاريخ العرب السياسي في العصر الأموي:

تبدلت معطيات كثيرة مع تنازل الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان، فانتقلت الخلافة إلى الأمويين ٤١هـ/ ٦٦١م حيث سمي عام الجماعة، وكان معاوية بن أبي سفيان أول حاكم أموي أسس لهذه الدولة بنقلة موضوعية لحاضرة الخلافة الإسلامية إلى دمشق، وانتزعها من الكوفة التي عايشة احتضار الخلافة الراشدة وسقوطها، مع العلم أنها لم تفقد دورها الاستقطابي بل تمحورت فيها المعارضة السياسية متزامنة مع دولة الأمويين بمراحلها المختلفة.

أما العاصمة الأولى (المدينة) فقد تراجع دورها، وتراجع معها دور الحجاز أيضاً إلى الهامش من المحاور الرئيسية التي زحفت إلى الأضواء لا سيما العاصمة الجديدة دمشق. وكان لهذا التراجع أسباب، تعود إلى أن أهل الشام قدموا الطاعة لمعاوية منذ عشرين سنة كوال، تمكن خلالها من توطيد سلطانه، وتعزيز مكانته، وإثبات قدراته ومهارته كحاكم، ورجل دولة، ثمافت الناس على خطب وده، والالتفاف حوله فبادهم حباً بحب، وولاء بولاء، وتوطد مركزه في بلاد الشام وغدا أهلها رجاله المخلصين الذين يبذلون دمههم رخيصة في سبيله.

وهذا ما دفع البعض للقول بأنه كان يعد العدة للوصول إلى السلطة منذ توليه دمشق واستطاع أن يمتلك القوة التي أوصلته لذلك ولم يكن مقتل الخليفة عثمان إلا الذريعة التي اعتمدها والسبب المباشر الذي استغله للوصول إلى هدفه.

وهنا لابد من التأكيد على ما ذكر في فصول سابقة، وهي أن الفتنة التي أودت بحياة عثمان فتحت الباب واسعاً أمام عهد جديد من عهود دولة الإسلام، وهو العهد الذي بدأت فيه بوادر الحزبية السياسية تطل برأسها في مجتمع لم يكن فيه إلا حزب واحد، وهو حزب الرسول وصحابته، كما أن مركز الثقل السياسي والاقتصادي للدولة لم يعد الحجاز، وصحابة الرسول (ص) والاقتصاد البدوي، بل أدخل عصر

الفتوح متغيرات كثيرة شغلت دوراً بارزاً في المجالين السياسي والحضاري، وكان لها دورها البارز في تفسير الأحداث السياسية الداخلية في أقيية تختلف عن الأقيية التي كانت تسير بها سابقاً.

واتخذ معاوية من قضية هاون علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في قصاص قتلة عثمان حجة للخروج عليه، وأدعى أنه وليه وأنه إنما يعمل بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّتِهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ﴾^(١).

وهكذا، وبعد مراسلات تحفظها المصادر التاريخية بين علي ومعاوية، ومعارك كان أولها موقعة الجمل، وآخرها معركة صفين آل أمر الخلافة إلى الأمويين.

والمفيد ذكره أن مولد الجبهة الأموية التي تسعى للوصول إلى السلطة يعود إلى ما قبل خلافة عثمان، وأن معاوية بجهده الشخصي، و رصيده الشعبي في بلاد الشام، استطاع أن يمهّد للوصول إلى السلطة، وأن الدعم المادي والمعنوي الأهم لم يأت من أسرته فقط، وإنما أتاه من جبهة شامية متماسكة كانت تقف وراءه، بمعنى أن قوة قبلية قوامها وأساسها القبائل التي كانت تزول الشام، اعتمدها معاوية في تحقيق ما حققه. فالفترة بين مقتل عثمان، وانتقال الحكم إلى معاوية، شهدت مولد عصبية من نوع جديد، وغريب على الإسلام، ألا وهي عصبية الأقاليم، إذ أخذ كل إقليم من الأقاليم الكبيرة في الدولة يسعى أن يكون مركزاً للسلطة في أرضه، وأن أهل الشام، شعوراً منهم بهذه العصبية، وقفوا وراء معاوية الذي حقق لهم ما كانوا يسعون للوصول إليه، ألا وهو نقل السلطة إلى أرضهم، وبالتالي غدا عماد الدولة، ورجالها المعتمدين.

^١ سورة الإسراء: الآية ٣٣.

هذا وقد قسم العصر الأموي إلى قسمين: السفلي والمرواني، السفلي الذي امتد من ٤١-٦٣هـ / ٦٦١-٦٨٣م والمرواني الذي امتد من ٦٤-١٣٢هـ / ٦٨٤-٧٤٥م وانتهى بسقوط الدولة الأموية وانتقال السلطة إلى العباسيين.

أ- الفرع السفلي:

١- معاوية بن أبي سفيان ٤١-٦٠هـ / ٦٦١-٦٨٠م:

هو معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب، أحد أبرز رجالات الأسرة الأموية، وأول خلفاء الفرع الذي تعارف المؤرخون على تسميته بالفرع السفلي من البيت الأموي نسبة إلى أبيه أبي سفيان. هذا ويسمى المؤرخون عام ٤١هـ / ٦٦١م عام استلام معاوية بن أبي سفيان الخلافة بعام الجماعة، لأنه العام الذي اتفقت فيه كلمة غالبية المسلمين على خليفة واحد بعد طول نزاع وخصام، وسفك دماء.

وقد عاشت الدولة العربية الإسلامية في ظل معاوية ما يقارب العشرين عاماً بين السلام والازدهار في الداخل، والانتصارات الحربية في الخارج، ولعل أكبر هموم معاوية الداخلية كان إقليم العراق، وكان على رأس اهتماماته أن يولييه من يثق بهم أشد الثقة.

١- العراق في ظل خلافة معاوية:

شكل العراق الجزء الأهم من أجزاء التاريخ الأموي، واحتل الحيز الأكبر من كتابات المؤرخين، وروايات الإخباريين الذين تناولوا هذا المصير بالحديث والرواية. وتتركز هذه الأخبار حول الصراع الذي قام آنذاك بين السلطة المركزية متمثلة بالخلافة الأموية من جهة، وبين رجالات القبائل، والشيعية، والخوارج من جهة أخرى، ويصح هذا التحديد بوجه خاص على النصف الأول من حكم بني أمية. فما هي الأسس التي بنيت عليها سياسة الأمويين تجاه هذا المصير؟

وما هو موقف الفئات العراقية المختلفة من حكم معاوية؟

انقسم العراقيون إلى فئتين إزاءبيعة معاوية، فريق وهو الأقلية أيدها، وفريق يضم غالبية العراقيين بمختلف آرائهم، ومذاهبهم عارضها، ولم يرض عنها، واستعمل مختلف الأساليب للتعبير عن هذه المعارضة، أما الذين أيدها فكانتبيعة بعضهم عن رضا وقناعة، وكانتبيعة الآخرين سعيًا وراء منفعة، وإقراراً بواقع ليس بممكنهم دفعه، فليستفيدوا منه حيث تكمن الفائدة، وكانوا يرون في حزب بني أمية (حزب السدين والنظام)^(١)، وأن بيعتهم واجبة بعد تنازل الحسن، فمن غير المعقول أن يظل منصب الخلافة شاغراً بعد تنازل الحسن، وأن تظل الأمة دون من يرعى شؤونها، وأن تسليم الحسن لمعاوية بالخلافة عقد منه له^(٢)، وهذا العقد ليس ملزماً للحسن فحسب، بل هو ملزم في رأيهم لكل من بايع الحسن أيضاً، كما سلف ذكره.

أما الفئة التي أيدت معاوية، لا عن قناعة، إنما سعيًا وراء مصلحة، أو رهبة من سلطان فهي الفئة الغالبة بين رجالات الفريق الأول، أعني الفريق المؤيد. فقد كان من أسس سياسة معاوية إغداق الأموال على معارضيه، وشراء ولائهم بالمال قبل السيف، فشرء الناس أحدى من قطع أعناقهم، وقد أكسبته هذه السياسة أنصاراً لا في العراق فحسب بل حتى في الحجاز، وكان خير وسيلة لذلك الشعر والشعراء، وكان أول الشعراء الذين حملوا لواء الدفاع عن معاوية الشاعر حسان بن ثابت، وكعب بن جعيل، وحارثة بن بدر الغدائي، وعبد الله بن الزبير الأسدي، ويزيد بن مفرغ الحميري وغيرهم. إضافة إلى القصاصين رغم رأي الإسلام بهم قاموا بدور كدور الإعلام في العصر الحاضر.

(١) فلوين: السيادة العربية، ص ٧٠.

(٢) ابن العربي: العواصم والقواصم، ص ١٩٩.

ولم يكن المال، وشراء الذمم الوسيلة الوحيدة التي اتبعها معاوية في سبيل استقطاب الأنصار في العراق، فقد كان هناك فريق دفعه الخوف من بطش الخليفة إلى بيعته، كما يتضح من نص اليعقوبي الذي يتعلق بقدوم معاوية الكوفة في طلب البيعة، موقف الناس من بيعته حيث يقول: (وأحضر — أي معاوية — الناس لبيعته، وكان الرجل يحضر فيقول: والله يا معاوية إني لأبايعك وإني لكاره لك)^(١)، وهؤلاء يمثلون الأقلية بين الطرفين إذ كانت الغالبية ضد بيعته، وتكن له أشد العداوة وبين هذه الفئات الخوارج والشيعة، ورجال القبائل الذين حرمتهم خلافة معاوية السيادة، والخيرات، ووضعتهم في مرتبة دنيا لا تقارن بما كانوا يحلمون به، لو أن الأمر تم لهم، أو ظل على أرضهم وكان في مقدمة القبائل العراقية المعادية لمعاوية قبائل تميم، وباهلة، وبكر وغيرها^(٢). ولم تكن هذه القبائل بعد انكسارها في صفين، ومقتل الإمام علي في وضع يمكنها من إشهار السيف في وجه معاوية، فاكثفت بإظهار اشمزازها، أو بإطلاق التهديدات بالحرب^(٣). ولكن معاوية بما كان له من حنكة ودهاء استطاع أن يتفهم هذه المواقف، وأن يضع حلمه، وسعة صدره موضع سيفه، فأنحنت له الهامات، وتقبلته النفوس على مضض، لأنها لم تكن تملك أن تدخل معه في صراع مسلح، مع العلم أن هذا الموقف اللين لم يكن الطابع الذي اتسمت به سياسة معاوية إزاء العراق طيلة فترة حكمه، بل كان صحيحاً فقط بالنسبة للفترة الأولى التي كان فيها يوطد أقدامه، وبشيت دعائم حكمه، وستتبدل هذه السياسة المتساهلة فيما بعد، لا سيما حين يغدو حكمه وطيد الأركان، وحين يشعر أن سياسة اللين هذه لم تكن ثانوية الجوانب إذ إن عوامل الفتنة ما لبثت أن بدأت تطل برأسها.

(١) اليعقوبي: تاريخ ٢/٢١٦.

(٢) اليعقوبي: الدولة الأموية في الشام، ص ١٠.

(٣) اليعقوبي: تاريخ ٢/٢١٦-٢١٧.

وقد اعتمد معاوية على رجال من ثقيف في حكم العراق، وتوطيد النفوذ الأموي فيه، وتسهب كتب التاريخ في نقل أخبار الرجال الثقفين الذين تولوا حكم العراق، حتى لتكاد أخبارهم تغطي على أخبار معاوية نفسه، ومعروف أمر الصلة الوثيقة التي كانت قائمة بين بني أمية، وحلفائها من ثقيف قبل الإسلام، وأن الطائف مستقر ثقيف لم تسلم إلا بعد فتح مكة، وإسلام أبي سفيان، وأن أبا سفيان والد معاوية هو الذي أوكل إليه الرسول (ص) أمر فتح الطائف للصلة التي تربطه برجالها، هذا فضلاً عن العدد الكبير من القرشيين الذين كانوا يعيشون في الطائف قبل الإسلام، وما كان لبني أمية من أموال وبساتين في الطائف في تلك الفترة^(١).

أما أبرز ولاته فهما، المغيرة بن شعبة، وزيد بن أبيه. فالمغيرة بن شعبة أرسله معاوية عاملاً على الكوفة سنة ٤١هـ/٦٦١م^(٢) واعتمد عليه في تهدئة الأحوال، وأظهر ليناً في معاملة الخوارج والعلويين وقدم لمعاوية خدمة عظيمة هي أنه استمال إليه زيد بن أبيه.

ولما تسلم هذا المنصب كانت قد تقدمت به السن، فرغب في الراحة، فلم يندفع في نصرة معاوية، ولم يسرف في معاداة الثائرين والمعارضين، كالمستورد بن علقمة الخارجي، وحجر بن عدي وغيرهما، وذلك أنه أراد أن يظل في منصبه، وأن يخلد إلى الراحة والهدوء، فلا يثير على نفسه شغب المشاغبين.

وقد قل عدد الخوارج في الكوفة في زمنه، وساعده الكوفيون على التخلص منهم، لأنهم أعداء مشتركون للأمويين، والكوفيين الذين هواهم في علي، وقد ارتكزت سياسة المغيرة بأن طلب منهم أن يحبوا علياً ما أرادوا شريطة ألا يظهرُوا ذلك، فتقوم بينه وبينهم خصومة يساق إليها سوقاً بوصفه ممثلاً للأمويين^(٣).

(١) البيعقوبي: البلدان ٣١٣.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ١٦٦/٥.

(٣) عاقل: دراسات في تاريخ العصر الأموي، ص ٢٢.

ولقد عين معاوية زياد بن أبيه والياً على البصرة، وضم إليه سجستان، والهند، والبحرين، وعمان، ولما قدم زياد البصرة، والفسق فيها ظاهر، فاش، خطب خطبته البتراء^(١)، وكان لها أثر حاسم في نفوس البصريين، وفي سلوكهم، لأنه أتبعها بالعمل، وأظهر أنه كان ينفذ ما يهدد به، فانتشر الأمن في البصرة وأطرافها، وعم أقاليم المشرق، حتى وصل البادية، وخافه الخوارج وغيرهم من أصحاب الفتن والقلاقل.

وكان زياد يأمر صاحب شرطته بالخروج بعد صلاة العشاء ليتفقد أحوال المدينة، وكانت تعليماته إليه أنه لا يجد أحداً خارج بيته في هذا الوقت إلا قتله، وقد ألزم الناس بالطاعة، وجرّد السيف، وأخذ بالظنة، وعاقب على الشبهة، وخافه الناس في سلطانه خوفاً شديداً حتى أمن الناس بعضهم بعضاً، فكان الشيء يسقط من الرجل والمرأة، فلا يعرض له أحد، حتى يأتيه صاحبه فيأخذه، وتبيت المرأة لا تغلق عليها باهما^(٢).

وقد ضُمت الكوفة إلى زياد بعد وفاة المغيرة ٥٠هـ/٦٦٩م فكان يقيم ستة أشهر في البصرة، وستة أشهر في الكوفة، وكان يستعين برجال القبائل بدل الشرطة في إخماد شغب أهل الكوفة^(٣)، عن طريق تفريقهم، والإيقاع بينهم، واستمالة البعض الآخر، أضف لذلك فإنه قرب إليه رجال القبائل، وأحضرهم مجلسه، واستشارهم، وأجزل لهم العطاء، وعهد إلى كل شيخ قبيلة بأمر قبيلته، فجعله مسؤولاً عنها جملة وتفصيلاً، فأخذ رجال القبائل يتنافسون في التقرب إليه بسبب منافساتهم وحزازاتهم التي استغلها، ولا سيما وأنه استعمل بيت المال كوسيلة لتقريب القلوب إليه^(٤)، فضعفت عصبية القبائل، وذلك عن طريق جمع المقاتلين من كل قبيلة في فرق مختلفة بحيث لا يقاتل أبناء القبيلة

(١) مؤلف مجهول: تاريخ الخلفاء، ص ١٦٢ وما بعدها.

(٢) مؤلف مجهول: تاريخ الخلفاء، ص ٦٣، الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٢٢٢/٥.

(٣) عاقل: دراسات في تاريخ العصر الأموي، ٢٥.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٢٢٣/٥.

في فرقة عسكرية واحدة، بل كانت الفرقة العسكرية عبارة عن خليط من أفراد عدة قبائل، وكان يعين لقيادة هذه الفرق قواد من أتباعه، وبذلك استطاع أن يجعل ولاء المقاتلين للدولة، وليس للقبيلة التي ينتمون إليها.

هذا وقد أظهر زياد براعة في ميدان الخطابة بقدر ما أظهرها في ميدان السياسة، وكان المسجد هو الميدان الذي يستعمله لإظهار هذه البراعة، وكانت خطبه كالببائيات الوزارية في عصرنا الحاضر، يحدد فيها خطوط سياسته، ويشرحها شرحاً يزيل كل لبس، أو غموض، وكان يتبع القول بالعمل، وقد عرف الناس عنه هذا فهابوه، وأطاعوه أضف إلى ذلك أن زياد رجل دولة من الطراز الأول، وكان له فضل كبير في تثبيت روح الجماعة، والانقياد للحكم المركزي، هذه الأفكار التي حاول الإسلام زرعها في نفوس العرب، والتي لاقت من القبائل مقاومة شديدة منذ حياة الرسول (ص) وعصر الخلفاء الراشدين (ر).

وقد عرف الأمويون في زياد الإخلاص، فاعتمدوا عليه اعتماداً مطلقاً، وأطلقوا يده في تسيير شؤون العراق دون معارضة، حتى إن معاوية أحقه بنسبه وأصبح يدعى زياد بن أبي سفيان وحين توفي استعملوا أبناءه بنفس الثقة التي استعملوه بها^(١).

٢- المنجزات العسكرية زمن معاوية:

بعد أن وطد معاوية دعائم حكمه، اتجه بكليته إلى الجهاد والفتح، وتوجيه الطاقات والاهتمام إلى الخارج، لذا ما إن حل مشاكله الداخلية حتى نقض هدنته مع البيزنطيين واستأنف العمليات العسكرية البرية والبحرية، والتي كان قد بدأها منذ ولايته على بلاد الشام، وقد تابع معاركه ضد البيزنطيين، وقصدت جيوشه آسية الصغرى غازية، وقد ساعده في تحقيق حلمه سوء الإدارة البيزنطية، واستشرء الفساد، وانتشار الثورات على

(١) عاقل: دراسات في تاريخ العصر الأموي، ص ٢٨.

الحكم البيزنطي، ولا سيما الثورة التي قام بها سابور قائد الجيوش البيزنطية في أرمينية الذي ثار على الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الرابع سنة ٤٩٩هـ/٦٦٨م وبعث لمندوب من قبله إلى معاوية يطلب منه المساعدة، ويعدده مقابل ذلك بتمهيد الطريق للمسلمين للاستيلاء على آسية الصغرى وإبعاد الجيوش البيزنطية منها، ولا سيما المراقبة منها على تخوم الشام الشمالية^(١).

وقد عرف قسطنطين الرابع بمحاولة سابور للاتصال بمعاوية فأرسل بدوره رسولا إلى البلاط الأموي ليحذر الخليفة من التورط في هذا الأمر، وأدرك معاوية أن الفرصة مواتية لاسترداد أرمينية فأرسل إلى أهلها يدعوهم إلى الاعتراف بسلطته والاندخول في تبعية المسلمين، ودفع الجزية مقابل حمايتهم، وطرد البيزنطيين من أرضهم^(٢). وأرسل في الوقت نفسه جيشاً لطرد فلول البيزنطيين من أرمينية، وحقق جيشه النصر على أرمينية، وعادت أرمينية إلى التبعية العربية، وظلت كذلك طوال فترة الحكم الأموي^(٣).

وقامت بين معاوية والبيزنطيين حرب سميت حرب الثغور^(٤)، حيث كان يسكن الثغور الجراجمة النصارى الذين كان ولاؤهم يتذبذب بين العرب والروم حسب ما تلميه المصالح^(٥)، وقد وضع العرب نظاماً لحرب الثغور يتلخص بأنه كانت تخرج بانتظام حملات سنوية من سورية إلى بلاد الروم بدءاً من العام ٢٩هـ/٦٥٠م تعرف باسم الصوائف والشوائف، وهي عبارة عن غارات تجري في مواسم معينة من صيف وشتاء

(١) العدوي: الأمويون والبيزنطيون، ص ١٢٦.

(٢) العدوي: الأمويون والبيزنطيون، ص ١٢٦.

(٣) العدوي: الأمويون والبيزنطيون، ص ١٢٧.

(٤) الثغور مفردتها ثغر ومعناها: كل موضع في أرض العدو يكون في بطن واد أو فرجة جبل.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان ٢/٢١٧ وما بعدها.

كل عام لاختبار قوة عدوهم، ولإيقاع الأذى به، وأخذ ما يمكن أخذه من غنائم، ولم تنقطع إلا بسبب الأوضاع الداخلية.

هذه الصوائف والشواتي، كانت بمثابة تمرين سنوي على اجتياز أسية الصغرى، وقد استؤنفت منذ العام ٤٢هـ/٦٦٢م^(١) واستمرت بعد ذلك، وأشهر قادتها يسر بن أبي أرطاة، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، ومالك بن هبيرة، وسفيان بن عوف الأزدي، وأبي عبد الرحمن القيني، وفضالة بن عبيد وغيرهم.

وترافقت الغزوات البرية بأخرى بحرية، ففي سنة ٥٣هـ/٦٧٢م احتل المسلمون جزيرة رودوس بقيادة جُنادة بن أبي أمية الأزدي^(٢)، وفي سنة ٥٤هـ/٦٧٣م تابعوا احتلالهم للجزر المتوسطة التي تقود إلى القسطنطينية، فاحتل جنادة جزيرة أرواد أيضاً^(٣)، وكانت هذه الغزوات البحرية والبرية تصل إلى حدود مدينة القسطنطينية، وفي إحدى هذه الحملات سلم معاوية ابنه يزيد قيادتها، فاستطاع دحر الروم، وكان يقصد من وراء تسليم ابنه قيادة الحملة إعلاء مركزه وإظهاره كعبقريه عسكرية تصلح لقيادة المسلمين، ولنفي نسبة المجون عنه^(٤)، وقد شارك في هذه الحملة كبار رجالات الصحابة وعلى رأسهم صاحب الرسول (ﷺ) أبو أيوب الأنصاري الذي استشهد في هذه الحملة، ودفن بالقرب من أسوار العاصمة البيزنطية.

كان هدف معاوية من حملاته احتلال القسطنطينية، وقد أدركت بيزنطة هدفه، فاستعدت لخوض المعارك مع العرب التي استمرت أربع سنوات، اضطرب العرب بعدها للانسحاب إلى ما وراء أسوار المدينة متخفين مؤقتاً عن مشروعهم في فتح القسطنطينية

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ١٧٢/٥.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٢٢٩/٥-٢٣١-٢٣٢-٢٨٨.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٢٩٣/٥.

(٤) الأصبهاني: الأغاني، ج ٧، ص ٢١٠.

وقد ساعد البيزنطيون في معاركهم البحرية ضد العرب استعمالهم النار الإغريقية التي اخترعها مهندس يوناني من أصل سوري اسمه كالينيكوس^(١).

فما الذي جعل معاوية يقرر سحب قواته المحاصرة للقسطنطينية؟ يبدو أنه من جملة العوامل شعوره بدنو أجله، ورغبته بأخذ البيعة إلى ابنه يزيد، وشعوره أن هذه البيعة ستلقى معارضة الكثيرين، وأنه لا بد له أن يضع تحت تصرف ابنه جيشاً قوياً يساند حكمه في الداخل.

ويبدو أن بيزنطة دخلت في مفاوضات مع دمشق من أجل إنهاء حالة الحرب، وعقد صلح بين الطرفين مدته ثلاثون سنة^(٢).

أما بالنسبة للجهة الغربية، فقد قامت الجيوش العربية الإسلامية زمن معاوية بغزو البلاد التي تلاصق مصر من جهة الغرب والتي كان العرب يسمونها بالمغرب، ويسكنها البربر، وكانت تقع تحت الحكم البيزنطي، وتعيش فترة من الاضطراب سببها سوء الحكم البيزنطي من جهة، وكره البربر، وثورتهم ضد هذا الحكم من جهة أخرى، وقد سلف القول، أن العلاقات بين العرب وبلاد المغرب بدأت منذ خلافة عمر بن الخطاب، واستمرت في عهد الخلفاء الراشدين.

وبعد استتباب الأمر لمعاوية، وجه اهتمامه لأفريقية فسير والي أفريقية معاوية بن حديج سنة ٤٥هـ/٦٦٥م فاشتبك مع الروم^(٣)، وانتصر عليهم عند حصن الأجم، وبعدها سار القواد المسلمون في اتجاهات مختلفة لفتح بعض المواقع الأفريقية، ففي سنة ٥٠هـ/٦٦٩م قام عقبة بن نافع بأعظم عملية فتح، وتوغل في مفاوز المغرب الأقصى وأنشأ مدينة القيروان لتكون عاصمة للولاية الإسلامية في أفريقية وقاعدة لرد

(١) عاقل: الإمبراطورية البيزنطية، ص ١١٤-١١٥.

(٢) العدوي: الأمويون والبيزنطيون، ص ١٧٥.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٢٢٩/٥.

المهجمات^(١)، وذلك بأمر من الخليفة معاوية بن أبي سفيان الذي ولاه على أفريقية، وعهد إليه برد هجمات الروم المضادة لاستعادة ما فقدوه من أرض في تلك الأنحاء، وقد استطاع عقبة في أثناء ولايته أن يعيد سيطرة المسلمين على المدن الساحلية، وحين عزل عقبة عن أفريقية وتولاها أبو المهاجر الأنصاري^(٢)، توقفت عمليات الفتوح هناك، وانحصر نشاط أبي المهاجر في غزو الدربر، وكان يقيم في أفريقية الصيف والشتاء^(٣).

وسيستأنف عقبة نشاطه العسكري في خلافة يزيد بن معاوية الذي عزل أبا المهاجر، وأعادها لعقبة ٦٢هـ/٦٨٢م كوال على أفريقية.

أما الجبهة الشرقية، فقد كانت تحكم من قبل ولاية تبغون ولاة البصرة والكوفة، وكان من واجب هؤلاء إرسال الحملات للقيام بعمليات فتح في آسية، فزار جيش من خراسان إلى وادي الأندوس ووصلت طلائع هذا الجيش حتى لاهور سنة ٤٤هـ/٦٦٤م، كما سار جيش آخر وصل إلى الحدود الشمالية الشرقية لخراسان، حيث اصطدموا للمرة الأولى بالأقوام التركية.

٣- بيعة معاوية لابنه يزيد:

رأى معاوية بثاقب بصره أن يحل قضية المنازعات والخلافات والفتن التي تحدث بعد موت الخليفة، وقرر أخذ البيعة لابنه يزيد من وجوه الناس، وسادتهم، كما أخذها منهم لنفسه من قبل، لأن بيعة الناس كانت له وحده، ولا يحق له أن يجعلها لغيره من بعده، وكان هنالك أناس ينتظرون موته للخلاص منه، ومن بني أمية، وقد اعتبر الكثيرون دعوته إلى مبايعة ابنه بدعة ليس لها سابقة عند العرب، واعتبروها تقليداً للملوك الروم والفرس.

(١) عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ص ١٦.

(٢) عاقل: دراسات في تاريخ العصر الأموي، ص ٤٢.

(٣) ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٩٧.

وقد أدت دعوة معاوية الناس إلى بيعته ابنه ليكون خليفة من بعده إلى انقسام الناس إلى فريقين، فريق ينكر هذا الأمر، ويعارضه وهم غالباً خصومه السياسيون، وفريق يقبل به، ويتحمس له، لأنه من أنصاره، وأتباعه، وكان المغيرة بن شعبة أول من أيد معاوية في بيعته يزيد^(١). واستمال بعض أهل الكوفة بالمال، وحشهم على الذهاب إلى دمشق لمبايعة يزيد، وبالتالي فقد استشار معاوية زياد قبل إعلان ما عزم عليه، فوافق عليه ذلك، بالوقت الذي حاول فيه يزيد الكف عن كثير مما كان يصنع.

وبدأ معاوية جهوده في سبيل توطئة الأمر لابنه في المدينة فعارضه الكثيرون، وكان أكثرهم معارضة الحسين بن علي، وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله ابن الزبير^(٢)، لذا ذهب معاوية إليهم لأخذ البيعة ومن ثم عاد إلى دمشق.

أما بقية الأمصار فقد دعا معاوية الوفود المختلفة فأتته إلى العاصمة، واجتمع بسادات القوم في قصره، فبايعت الوفود بالقوة.

خلافة يزيد بن معاوية ٦٠-٦٣هـ / ٦٨٠-٦٨٣م:

تولى يزيد الخلافة بعد أن مهد له أبوه الأمر، وروض الناس^(٣) لتقبل الواقع والافتناع بخلافة يزيد على الرغم من أن معاوية كان يدرك بأن الموضوع ليس سهلاً، وهناك من لم يقبل بسلطة يزيد، وهناك من يشير إلى أن معاوية أوصى يزيد برأيه في معالجة الموقف، ومما جاء في وصيته له.. بأنني أترك لك الأمر، وأحشى عليك من ثلاثة: الأول: هو عبد الله بن عمر بن الخطاب وأظنه سينصرف عن الدنيا إلى الآخرة والثاني هو.. الحسين بن علي بن أبي طالب، وهو ليس بطامع فيها، ولكن أهل الكوفة لن يدعوه حتى يخرج عليك، فإذا ظفرت به فارق، أما الثالث: كما يصفه معاوية بالخـب

(١) مؤلف مجهول: تاريخ الخلفاء، ص ٧٠.

(٢) مؤلف مجهول: تاريخ الخلفاء، ص ٧٠.

(٣) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٣٠٢/٢.

الضرب الذي يجثم جسوم الأسد، ويرأغ مراوغة الثعلب، فهو عبد الله بن الزبير، ويوصيه: إذا ظفرت به فقطعه إرباً إرباً.

وهذا يعني بأن تشكل المعارضة، والخروج على خلافة يزيد كان متوقعاً، وهذا ما حدث فعلاً، وكان معاوية يقرأ الأحداث على أرض الواقع فعبد الله بن عمر انصرف عن السياسة والحسين بن علي شجعه أهل الكوفة على الخروج سيما وهو لم يبايع يزيد ولم يعترف بخلافته وتبعه عبد الله بن الزبير أيضاً في موقفه، وهكذا تشكلت المعارضة ضد حكم يزيد بثورة الحسين (كربلاء) وثورة عبد الله بن الزبير (المدينة).

١- ثورة الحسين (كربلاء):

إن ثورة الحسين ليست وليدة ظروف آنية أو عملية رد فعل إنما جاءت نتيجة تراكمات للعديد من المواقف التعسفية التي ما انفك معاوية وولاته يقومون بها منذ صفين، وانتقال السلطة إلى البيت الأموي، فأدى ذلك إلى تكون نواة حزب لم يتبعي فكر وهج وسياسة علي، وأبنائه من بعده، وسمي بحزب الشيعة الذي وقف ضد الحكم الأموي، وكان العراق (الكوفة) منطلقاً له، رغم أن المعارضة لم تلجأ إلى السلاح، وأن آل البيت لم يروا الأمر من هذا الإطار، على الرغم من أن هناك العديد من المسلمين بقوا على ولائهم لآل البيت ولمهجهم الفكري الملتزم بالشرعية والمبادئ، وقد نقل معاوية ببعض هؤلاء الرموز كحجر بن عدي الذي قضى عليه زياد بن أبيه، وموت الحسن المفاجئ، وجاءت تولية يزيد تحدياً صارخاً لمبادئ الإسلام التي سار عليها الخلفاء الراشدون ولمفهوم حزب الشيعة حول أحقية الخلافة للحسن والحسين لأئمتهم، ورثوا مرتبة علي في الحكم والإمامة، وكل إمام أوصى لسلفه.

ورأت الشيعة أن الفرصة قد حانت لإعادة الخلافة إلى آل بيت النبي، فاجتمعوا في منزل زعيمهم سليمان بن صرد، واتفقوا على مراسلة الحسين يسألونه القدوم عليهم ليسلموا الأمر إليه^(١).

وتتابعت الكتب والرسل ما ملأ منه نخرجين^(٢)، فأرسل ابن عمه مسلم بن عقيل ليتأكد من ولاء شيعتها، وأنه سيقدر موقفه على ضوء ما يصله من ابن عمه^(٣)، وما إن وصل مسلم للكوفة حتى أتته الشيعة مبايعة للحسين^(٤)، وكان والي الكوفة آنذاك النعمان بن بشير، وكان في نظر الحزب الأموي فيها مستضعفاً لا يقدر على الوقوف في وجه مسلم^(٥)، ورأى يزيد أن خير من يصلح لمعالجة الوضع الجديد في الكوفة هو عبيد الله بن زياد، الذي كان والي البصرة، والذي كان يزيد ساعطاً عليه وبهم بعزله عن البصرة والكوفة، ولكنه وجد نفسه مضطراً لتولية الكوفة إلى جانب البصرة، والطلب إليه أن يلاحق مسلم بن عقيل، وأن يجده ويقتله^(٦).

واستعمل عبيد الله كل أنواع الحيلة والدهاء والرشوة للبحث عن مسلم، والقبض عليه، ولتفريق الناس من حوله، ويبدو أن مسلم كان قد اكتسب ود عدد كبير من الكوفيين أول الأمر، وحصل على تأييدهم، ولكن شدة ابن زياد في ملاحقته واستعماله أسلوب الخديعة في التعرف على مخبئه، وفض الناس من حوله، أديا في النهاية إلى تفرق أصحابه، ومقتله على يد رجال عبيد الله^(٧).

(١)

(٢) الدنيوري: الأخبار الطوال، ص ٣٢٩.

(٣) الدنيوري: الأخبار الطوال، ص ٢٣٠، الأصبهاني: مقاتل الطالبين، ص ٩٦.

(٤) الأصبهاني: مقاتل الطالبين، ص ٩٦.

(٥) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٣٤٨/٥.

(٦) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٣٤٨/٥.

(٧) الدنيوري: الأخبار الطوال، ٢٣٥ وما بعد.

وكان مسلم قد كتب قبل ذلك إلى الحسين بأخذ البيعة له، واجتماع الناس عليه، وانتظارهم إياه، فقرر إزاء كل هذا أن يشخص إلى الكوفة، وشجعه على هذا القرار عبد الله بن الزبير وبالمقابل نصحه عبد الله بن عمر بالعودة عن قراره، وحذره من غدر أهل العراق^(١)، وعندما التقى الحسين الفرزدق العائد من العراق سأله عن أحوالهم، قال: القلوب معك، ولكن السيوف عليك، والنصر من عند الله^(٢).

إن تشجيع ابن الزبير هو محاولة لإبعاد الحسين عن المدينة لأنه يشكل منافساً قوياً، وعقبة في طريق طموحات ابن الزبير بينما كانت نصيحة ابن عمر نصيحة رجل يريد الخير للحسين ويحاول أن يجنبه مغبة مفاجآت قد تعصف به، خاصة وأن ابن عمر لا يثق بولاء العراقيين، ويرى أنهم مثقلبي المواقف لا يأمن جانبهم، وستدل الأحداث القادمة صحة رؤية ابن عمر.

وخرج الحسين من مكة قاصداً الكوفة، وفي الطريق جاءه خبر مقتل ابن عمه مسلم، وأراد العودة، ولكن إخوة مسلم منعه، وأجبروه على متابعة القتال، ودارت معركة لا تكافؤ فيها، قتل فيها الحسين، ورجاله، وأهل بيته، وحمل رأسه إلى الشام مع أبنائه، وإخوته، ونسائه^(٣) ١٠ محرم ٦١هـ/ ٦٨١م، وقد سطرت هذه الفاجعة صفحة صفحة سوداء في تاريخ الخلافة الأموية، وكان المنطلق الذي انطلقت منه المعارضة الشيعية المسلحة لحكم بني أمية، وكانت في المدى البعيد أحد الأسباب التي أدت إلى سقوط الحكم الأموي، ولم تنته مأساة الشيعة بزوال حكم بني أمية، وستستمر في ظل الحكم العباسي.

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٣٨٣/٥، الأصبهاني: مقاتل الطالبين، ص ٦٧.

(٢) حسن: تاريخ الإسلام، ص ٣٩٦.

(٣) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة ٣/٢-٤.

هذا وما زال الشيعة حتى يومنا هذا يحيون ذكرى فاجعة كربلاء واستشهاد الحسين يوم العاشر من محرم الذي يعرف باسم عاشوراء، والذي يظهرون فيه مختلف ضروب الحزن، والتفجع على ما حل بحفيد الرسول الكريم وآل بيته.

٢- يزيد وعبد الله بن الزبير:

بعد مقتل الحسين خلا الجو في الحجاز لعبد الله بن الزبير، وأصبح سيد الموقف، لأنه من غير المعقول أن يتنطح لرئاسة المسلمين، والحسين حي لذا ما إن سمع بمقتل الحسين حتى اعتصم بالبيت الحرام، اعتقاداً منه أن البطش به يتعذر على يزيد، لأن المسلمين يستنكرون القتال، وإراقة الدماء في حوار البيت الحرام، واستغل حادثة استشهاد الحسين ليستثير عواطف الحجازيين، فكان يخطب فيهم، ويعظم من مقتل سبط رسول الله، ويهول فيه مشهراً بيزيد، وبفعلته التي وصفها بالنكراء. فهب المسلمون طالبين منه أن يبايع نفسه، ولكنه أظهر الزهد، وصار يبايع الناس سرّاً^(١)، ولم يعلن تمرده تجاه يزيد بل ظهر، وكأنه يريد العدل والإصلاح، وليس كشائر ضد يزيد.

فما هي الأسباب التي سمحت لدعوة ابن الزبير أن تجد متنفساً لها؟

بالطبع هناك عدة أسباب منها:

١- الصفات الشخصية لكل من ابن الزبير، والخليفة يزيد بن معاوية.

٢- عدم دعوة أبناء الصحابة للبيعة لأنفسهم، ونقص بذلك عبد الله بن عمر، وعبد الله بن العباس، ومحمد بن الحنفية.

٣- سياسة معاوية الاقتصادية تجاه الحجاز، وامتناعه عن دفع العطاء لأهل الحجاز، مما أثر في موقفهم السياسي، لذا دعموا ابن الزبير ليتخلصوا من ظلم الأمويين، خصوصاً

(١) البلاذري: أنساب الأشراف، ص ٣٠١.

وأن الحجاز منطقة فقيرة اقتصادياً، لذا اضطر أهل الحجاز إلى بيع أملاكهم، وفيما بعد رأى يزيد أن يغير هذه السياسة الاقتصادية، برصد عطاءين إذا أقرروا بيعته.

٤- تعدد الولاة في الحجاز، وضعف الحماية، فلقد أرسل عمرو بن العاص، عمرو ابن الزبير لمحاربة عبد الله بن الزبير، فأخفق عمرو، وسجن وعذب والواقع أن سياسة معاوية تثير العجب، فهو يعين الولاة الدهاة على العراق، بينما يحكم الحجاز ولاة اتصفوا بعدم الحرم، بل ويحاول أيضاً الإيقاع بين ولاته (مروان بن الحكم، الوليد بن عتبة) ويكتفي معاوية بنسبهم، وإخلاصهم للبيت الأموي، ولعل ذلك شغل الولاة عن الحركات السياسية (حركة ابن الزبير) التي كانت تنمو وتكبر في الحجاز.

٥- السخط العام على الخلافة الأموية، وذلك من منطلق تحولها إلى حكم وراثي، إضافة إلى تعيين الولاة القساة (زياد بن أبيه، والمغيرة بن شعبة)، وإعطاء المناصب للأمويين دون سواهم.

هذه الأسباب مجتمعة ساعدت على نشر دعوة ابن الزبير ولما بلغ الخليفة يزيد أن ابن الزبير أخذ البيعة لنفسه، أقسم ليوثقنه بالسلاسل، ولكنه أثر المفاوضات، فرفض ابن الزبير ذلك، فنتج إثر ذلك الموقف موقعة الحرة، وحصار مكة.

٣- موقعة الحرة، وحصار مكة ومؤتمر الجابية ٦٣هـ/٦٨٣م:

بعد تولي يزيد الخلافة، ذهب وفد لمبايعته، ولكن أهل المدينة ما لبثوا أن خلعوا بيعة الخليفة، وردوا ولاته وحاصروهم، فاستغاث بنو أمية بالخليفة، وأرسل يزيد مسلم بن عقبة المري، الذي قاتل معهم في صفين، على رأس جيش لتأديب أهل المدينة الذين عينوا والياً عليهم (عبد الله بن حنظلة)، ولفك الحصار عن بني أمية، ولم يكد مسلم

يصل إلى منطقة الحرة شمال المدينة حتى يخرج أهلها، ودارت معركة رهيبة هزم فيها أهل المدينة واستبيحت مدينتهم ثلاثة أيام، وقتل المئات من الأنصار والمهاجرين^(١). وهكذا نجد أن التطاحن على السلطة أدى إلى هذه الحرب التي يلاحظ فيها أن التهور سيطر على موقف أهل المدينة الذين لم تكن رؤياهم السياسية واضحة، فربما أرادوا الاستقلال عن بقية الأمصار، وتتعجب أيضاً من شدة الخليفة، فبدلاً من محاصرتها يأمر باستباحتها، وتتساءل لم قام أهل المدينة بمعركتهم دون الاستعداد الكافي للأمر. وبعد وقعة الحرة، أمر الخليفة يزيد قائده مسلم بن عقبة بالتوجه لقتال ابن الزبير، ولكن مسلماً ما لبث أن توفي، فخلفه الحصين بن غمير الذي بدأ بحصار مكة سنة ٦٤هـ/٦٨٤م، واستمر ٦٤ يوماً، وهذا أول حصار لمكة في التاريخ الإسلامي، وكان ابن الزبير قد لاذ بها باعتبار أنها حرم مقدس لا يحل فيه القتال، وانضم إليه أهل المدينة والخوارج لمقاتلة الأمويين.

ونصب الحصين المنحنيق على جبل أبي قبيس، ودار القتال فأصابت المناجيق الكعبة فهدمتها، وأحرقتها^(٢). وفي أثناء القتال جاء خبر وفاة الخليفة يزيد، فطلب الحصين من ابن الزبير أن يذهب معه إلى الشام ليبايعه أهلها، ولكن ابن الزبير رفض لأنه لا يثق بأهل الشام، ويعرف محبتهم، وطاعتهم لبني أمية، ولعله أراد أن يعيد للدعوة الإسلامية مجدها الأول في المدينة، وضاعت الفرصة على ابن الزبير، وربما أتهم بقصر النظر. وتولى الخلافة معاوية الثاني بن يزيد، وكان لا يزال شاباً يافعاً، ولم تكن له التجربة الكافية التي تجعله أهلاً للقيام بأعباء الحكم، والقضاء على الفتن الناشئة في كل مكان. فما لبث أن تنازل عن الخلافة فأعطى ذلك مزيداً من القوة لابن الزبير، فقد بايعته

(١) اليعقوبي: تاريخ ٢/٢٥٠-٢٥١.

(٢) اليعقوبي: تاريخ ٢/٢٥٠-٢٥١.

حمص، وحران ومناطق الجزيرة العليا التي كانت مقراً للقيسية، ومصر، والكوفة، وخراسان، وفلسطين، ولم يبق خارج بيعته سوى الأردن، أما دمشق التي كان يتولى أمورها الضحاك ابن قيس الفهري، وهو من مؤيدي ابن الزبير الداعين له سرّاً، فقد كانت الانقسامات تفرق بين أهلها، وحاول ابن الزبير استغلال العصبية القبلية في الشام بين (كلب وقيس)، ولكن أهل الشام حزموا أمرهم في مؤتمر الجابية وعينوا مروان بن الحكم خليفة للأمويين، ومن بعده لخالد بن يزيد ثم عمرو بن سعيد بن الأشدق، وكانت هذه المبايعة ترضيه لجميع النزعات المتضاربة، وجميع الطامعين وأنصارهم، فاتحدت بذلك كلمة الأمويين، وأسندت ولاية دمشق إلى عمرو بن سعيد، وولاية حمص لخالد بن يزيد، وعلى هذا يكون مؤتمر الجابية قد أبقى الخلافة في الأمويين لكنه نقلها من الفرع السفلي إلى الفرع المرواني.

وتمكن الأمويون من القضاء على خصومهم في معركة مرج راهط في دمشق، وانكفأ الحكم الأموي إلى الشام فقط، وقضي على جناح الحكم السفلي، والقبائل اليمنية لبني كلب أحوال يزيد، وانتقل الحكم إلى البيت المرواني ضمن نظام الوراثة لبني أمية. وقد تركت مرج راهط أعظم السوء في النفوس، وأذكت جذوة الصراع بين القبائل القيسية واليمنية، وامتد لهيب العصبية إلى خراسان وغيرها من الأمصار، وانقسمت الخلافة الإسلامية بين خليفتي مروان بن الحكم خليفة على بلاد الشام، وابن الزبير خليفة على بلاد الحجاز..

ب- الفرع المرواني:

١- خلافة مروان بن الحكم ٦٤-٦٥هـ / ٦٨٤-٦٨٥م:

بويغ مروان بالخلافة في مؤتمر الجابية ذي القعدة ٦٤هـ / ٦٨٤م^(١) ويتسلمه الخلافة انتقل هذا المنصب إلى فرع جديد من الأسرة الأموية وهو الفرع المرواني، وكان ذلك نصراً لليمينية على القيسية، وللأمويين على الزبيريين، ونخضت المناطق التي كانت تحت نفوذ القيسية للأمويين، إذ بايعت كل من قنسرين وحمص لمروان الذي دخل دمشق في يوم رائع استقبل فيه استقبالاً فخماً، غير أن الخطر ظل يهدده من ثلاث مناطق مصر، والعراق، والحجاز، وكان عليه أن يخضع هذه الأمصار، وقد بدأ بمصر دون أن يغفل شأن العراق والحجاز، إذ أرسل إلى كل منهما قوة ترابط على حدوده، واصطحب معه ابنه عبد العزيز، وكبار دولته، فهاجم عاملها لابن الزبير وأخذ البيعة لنفسه من المصريين، وأبقى ابنه عبد العزيز عاملاً عليها.

والمفيد ذكره أنه بعدما وصل مروان إلى الخلافة، عمل جاهداً للإبقاء على سلطانه، ولتوريث هذا السلطان لأولاده من بعده، ومن أجل ذلك تزوج من أرملة يزيد فاختة (أم خالد بن يزيد)، وهي ابنة أبي هشام بن عتبة^(٢). وقد استطاع بهذا الزواج أن يستميل آل يزيد، وأن يتخلص بالتالي من مرشحهم للخلافة خالد بن يزيد، إذ إنه ما لبث فترة حتى خلعه، وأخذ البيعة لابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز بن مروان^(٣). وفي هذا أول مخالفة لبنود اتفاقية مؤتمر الجابية.

وهكذا نظمت قضية الخلافة بعد مروان، وبدأ واضحاً أنه لن يكون لعمرو بن سعيد نصيب فيها، أما مروان بن الحكم فقد قضى نحبه بعد حكم دام حوالي العشرة

(١) خليفة ابن خياط: تاريخ، ص ٣٢٦.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٦١٠/٥.

(٣) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ٣٢٨.

أشهر رمضان ٦٥هـ / ٦٨٥م بواسطة وسادة غطته بها زوجته فاختة، وأمسكتها عليه حتى مات^(١)، انتقاماً لابنها خالد.

٢- خلافة عبد الملك بن مروان ٦٥-٥٨٦ / ٦٨٥-٧٠٥م:

توفي مروان تاركاً لابنه أحداثاً جسماً، ومعضلات يتطلب حلها أن يكون على رأس الدولة رجل قوي لا تهمزه الخطوب، ولا تفت في عضده الأمور العظام، وقد وجدت الأسرة الأموية الحاكمة في شخص الخليفة الجديد هذا الرجل القوي الذي يعتبره الكثير من المؤرخين المؤسس الثاني للدولة الأموية بعد مؤسسها الأول معاوية بن أبي سفيان.

كان أهم ما واجه عبد الملك في اليوم الأول لتسلمه مقاليد السلطة التخلص من ابن الزبير. وإعادة الأمور إلى نصابها في إقليمين رئيسيين من أقاليم الإمبراطورية هما العراق والحجاز اللذان كانا يدينان بالولاء لابن الزبير. ولعل أهم الأحداث التي بدأت إبان خلافة مروان، واستمرت في خلافة عبد الملك هي:

أ- حركة التوابين، ومعركة عين الورد:

ظهرت هذه الحركة في العراق، وتحديداً في الكوفة، فالعراق منذ مقتل الحسين انقطع الود بينه وبين الدولة الأموية، وقد خلع أهله طاعة عبيد الله بن زياد بعد موت الخليفة يزيد، وبايعوا ابن الزبير، لا حباً به، بل تعبيراً عن سخطهم على الدولة الأموية ولقد حاول أهل العراق تحقيق الشخصية العراقية المستقلة بعيداً عن الأمويين والزبيريين^(٢)، وربما الاستقلال بالخلافة لذا قامت حركة التوابين، وكان سببها مقتل الحسين، فقد رأى شيعة الكوفة بعد أن خذلوا الحسين أنه لن يغسل العار عنهم إلا بقتل

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٦١٠/٥-٦١١.

(٢) عاقل: دراسات في تاريخ العصر الأموي، ص ٩٠ وما بعد.

قتلته، أو الموت دون ذلك^(١)، وتجمع بعضهم عند قبر الحسين طالبين التوبة والغفران من الله، وتسموا بالتوايين نسبة إلى قوله تعالى: ﴿فَتَوَوُّا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^(٢)، وقد تزعم الحركة سليمان بن صرد الخزاعي الذي دعا الناس إلى المطالبة بدم الحسين، وبعد موت يزيد زادت استحابة الناس للدعوة، حتى كان من انضم إليهم أضعاف من استحباب لهم قبل ذلك^(٣).

ولقد وجد ابن الزبير في حركة التوايين فرصة قوية لتقوية نفوذه، لأن إحماد هذه الحركة سيشغل الأمويين عنه ويستنفذ شيئاً كثيراً من طاقتهم القتالية، ودارت المعركة بين التوايين وعبيد الله بن زياد في عين الوردية، وانتهت المعركة بمقتل سليمان بن صرد، وجمع كبير من رجاله، وجاءت البشائر إلى عبد الملك بن مروان فسر كثيراً، وزف البشرى إلى أهل الشام، بخطبة سجل فيها أول نصر له على العراقيين بعد أن غدا خليفة^(٤).

ب- معركة خازر ٦٧هـ/٦٨٦م:

كانت الموصل تخضع للمختار بن أبي عبيد الثقفي، حاول عبيد الله بن زياد استردادها، فأرسل جيشاً تلاقى مع جيش للمختار، فتمكن ابن زياد من قتل قائد هذا الجيش، وهزيمة جنده ذي الحجة ٦٦هـ/٦٨٥م^(٥). ولم يأس المختار مما حل بقائده،

(١) المسعودي: مروج الذهب ١٠٠/٣.

(٢) سورة البقرة: الآية ٥٤.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٥٦١/٥-٥٦٢.

(٤) البلاذري: أنساب الأشراف ٢١٢/٥.

(٥) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٤١/٦.

فأرسل جيشاً آخر بقيادة إبراهيم بن الأشتر، ومعه تسعة آلاف مقاتل في طلب ابن زياد^(١)، وقد انضم إلى جيش ابن الأشتر مع من بقي على قيد الحياة من جنود الجيش الأول الذي أنقذه المختار، وسبق ابن الأشتر ابن زياد في الوصول إلى الموصل قبل دخول ابن زياد العراق، وجرت بين الطرفين معركة على الخازر قتل فيها إبراهيم بن الأشتر، وعبيد الله بن زياد، وخلق كثير^(٢).

ج- ثورة المختار:

المختار رجل من ثقيف، وهو ابن أبي عبيد الثقفي شهيد معركة الجسر، وكان عمره حين قتل أبوه ثلاث عشرة سنة^(٣)، وكان المختار مع عمه بالمدائن حين جرح الحسين بن علي، وأظهر ميلاً للأمويين ثم ما لبث حين بعث الحسين بن علي ابن عمه مسلم بن عقيل إلى الكوفة أن بايع مسلماً سراً، وأنزله داره، وكان جزاؤه على ذلك أن زج به عبيد الله بن زياد السجن حيث ظل حتى قتل الحسين^(٤).

وتوسط المختار الخليفة يزيد بن معاوية من أجل إطلاق سراحه فكتب يزيد إلى عبيد الله بن زياد، بتخليه سبيل المختار، وأعطاه مهلة للبقاء في الكوفة مدة ثلاثة أيام، وغادر بعدها قاصداً إلى الحجاز، وفي نفسه حقد كبير على عبيد الله بن زياد، وفي الحجاز تقرب من بن الزبير، وحاول أن يبايعه، ويدخل في خدمته فلم يجد نجاحاً لدى ابن الزبير^(٥)، فأعاد الكرة بعد سنة فتم له ما أراد وغدا من رجاله^(٦).

(١) عاقل: دراسات في تاريخ العهد الأموي، ص ٩٤.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف ٢٤٨/٥.

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف ٢١٤/٥ وما بعد.

(٤) البلاذري: أنساب الأشراف ٢١٤-٢١٥.

(٥) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٥٧٣/٥.

(٦) البلاذري: أنساب الأشراف ٣١٧/٥.

ومكث المختار مع ابن الزبير، وشهد معه قتال أهل الشام، وبعد وفاة يزيد عاد إلى الكوفة، فوجد أن الفرصة سانحة ليكون الأمر له، ووجد أن خير وسيلة للوصول إلى غايته هي جذب حزب الشيعة إليه، ولكنه وجد أن سليمان بن صرد قد استقطب الشيعة وقام بحركة الثوابين.

فأدعى أنه موفد محمد بن الحنفية للمطالبة بالثأر لآل البيت بعد أن رفض علي بن الحسين طلبه رغم أن ادعائه كان باطلاً... ولقد التف الشيعة حوله، واستطاع بواسطة قائده إبراهيم بن الأشتر (بعد مقتل ابن صرد في عين الوردية) أن ينتقم من قتلة الحسين، وذلك بقتل عبيد الله بن زياد، والحصين بن نمير في خازر.

والواقع أن المختار كان يريد ملكاً لنفسه، كما فعل الخليفة مروان في الشام، وابن الزبير في الحجاز، ومعروف أن أهل الكوفة هم شيعة الإمام علي، ويريدون أن تكون مدينتهم حاضرة للدولة كي يبقى الفياء فيها، ولا يحمل أو يقسم على سواهم. علماً بأن أشراف الكوفة كانوا يريدون السلام، بدليل أنه لما اشتدت شوكة المختار، تركوا الكوفة، واستنجدوا بمصعب بن الزبير، وذلك أن المختار قرب الموالي منه، وأعطاهم نصيباً من الفياء وأغدق المال على الأتباع، واستعمل أساليب خارجة عن الدين الإسلامي، (بدعة الكرسي، نبي يوحى إليه)، ولأنه لا يحق له الخلافة صار يدعي أن الوحي أنزل عليه من الملك جبريل لتسويغ ما يزعم من إتيانه بالمعجزات، وطبع له نشر مسحوع على غرار القرآن يبشر بظهور المهدي، فتخلى عن ابن الحنفية، وبايع عبد الملك^(١)، واستغل المختار تأييد محمد بن الحنفية، وقتله لعبيد الله بن زياد وتحامل ابن الزبير على بني هاشم في الحجاز، وإخراجه ابن الحنفية من مكة، وسوء سيرة ولاية ابن الزبير، وظلمهم الناس من أجل الوصول إلى الحكم.

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج٦، ص٧١.

إذا حركة المختار تمثل استثماراً شخصياً لنضالات الشيعة واستنزافاً، وتسخيراً لها من أجل مآربه في الحكم، ولقد حركت الحقد بين الموالي، والعرب، وأظهرت الفوارق الطبقية بين الأشراف والعبيد، وأيقظت الحقد القومي للأعاجم عند العرب مما أدى فيما بعد إلى القضاء على الخلافة الأموية، كل ذلك دعا ابن الزبير إلى تعيين مصعب على الكوفة والبصرة، فقام مصعب بمهمة القضاء على المختار، والواقع أن المختار أراد احتلال البصرة فترك مصعب البصرة، وتوجه إلى المذار، واستعان بالمهلب بن أبي صفرة في القتال، وتابع مصعب سيره يريد الكوفة فزل المختار حروراً ليحول دون الكوفة، ودارت المعارك بينهما حيث قتل المختار^(١).

د- القضاء على مصعب بن الزبير:

بعد نجاح مصعب في القضاء على المختار، وإقامته في الكوفة عزله عبد الله بن الزبير عن البصرة، وولاه ابنه حمزة بن عبد الله بن الزبير، وقد ظل حمزة والياً على البصرة لمدة سنة، لم يظهر خلالها مقدرة، أو مهارة في الإدارة، الأمر الذي اضطر ابن الزبير إلى عزل ابنه عنها، وإعادة أخيه مصعب إليها، وذلك بعد سنة كان خلالها مصعب والي الكوفة فقط^(٢).

أمام ذلك قام عبد الملك، وجمع إخوته، وعظماء أهل دينه وخوفهم من غزو مصعب لهم في عقر دارهم، واستشارهم في أمر مصعب فكانت نصيحتهم أن يجمع رجاله، ويعد عدته، ويسير إلى خصمه، قبل أن يسير خصمه إليه، فقبل عبد الملك النصيحة، وأرسل رسله إلى أجناد الشام، فاستجاب له الناس، وتجمع لديه جيش كبير.

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٦، ص ٧١.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ١١٧/٦-١١٨.

وسار عبد الملك من الشام، فبلغ مصعب إقبال عبد الملك نحوه فطلب من البصريين، النهوض معه لقتال أهل الشام، فوجد منهم تباطؤ بحجة أن الخوارج الحارورية برئاسة قطري بن الفجاءة قد نزلوا سوق الأهواز، وغدوا على مقربة من البصرة، والبصريون يخشون هجومهم على مدينتهم^(١)، ويبدو أن هذا الادعاء لم يكن إلا ذريعة من البصريين، حتى لا يستجيبوا لدعوة مصعب، ولعل السبب في ذلك أن عبد الملك كان قد كاتب البصريين، وغيرهم من العراقيين وبذل لهم الأموال، ومناهم الأماني إن هم انضموا إليه^(٢)، ولعل أشراف أهل العراق كتبوا إلى عبد الملك يدعونه إلى أنفسهم، ويخبرونه أنهم مبايعوه فلم يبق بالبصرة شريف إلا كاتبه غير المهلب^(٣). وفي هذا الزعم إذا صح دلالة على يأس الطبقة الارستقراطية الغنية في العراق من حكم ابن الزبير، واعتقادهم بأن استقرار مضرهم لن يتم إلا إذا ضبط لهم الأمور فيه شخص قوي كعبد الملك يستطيع أن يضع حداً لعهد طويل من الفوضى، أضر بمصالحهم، وعطل أعمالهم، وكبدتهم الخسائر الكبيرة في الأرواح، والأموال، وفتح باباً لأموالهم يهددهم خطيرة، ولا سيما ما جرى زمن المختار من علو مكانة الموالي ومساواتهم في العطاء مع الأشراف، وإشراكهم في أموال الفيء، وغير ذلك مما احتج عليه الأشراف، ووقفوا ضد المختار بسببه.

وسار عبد الملك حتى نزل مَسْكَن، وسار مصعب حتى نزل باجْعَيْر، وحرت بين الجيشين معركة غير متكافئة انفض فيها العراقيون من حول مصعب، وغدروا به، وانتقلوا إلى صف عبد الملك، وخرّ مصعب قتيلاً على أرض المعركة بعد أن قتل عدد

(١) البلاذري: أنساب الأشراف ٣٣١/٥.

(٢) الذنبيوري: الأخبار الطوال، ص ٣١١.

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف ٣٣٣/٥.

كبير من أهل بيته، وكبار أصحابه، وكان مقتله سنة ٧٢هـ / ٦٩٢م على أغلب الروايات^(١).

ودخل عبد الملك الكوفة، وأخذ البيعة من أهلها، وبايعته القبائل المختلفة النازلة فيها، وولى أخاه بشر بن مروان، كما ولي على البصرة خالد بن عبيد الله بن أسيد، وعاد بعد ذلك إلى الشام^(٢).

هـ - القضاء على عبد الله بن الزبير:

دامت خلافة ابن الزبير تسعة أعوام إلى جانب الخلافة الأموية، وشملت معظم الأقطار العربية، وقد تميز ابن الزبير بصفات فيها الكثير من حب الدنيا، كإقتناء العبيد، والتزين، وحب الرئاسة، وفيها من حب الآخرة كالتقى والورع والعبادة والإخلاص والعدل... الخ.

وقد كان القضاء على مصعب، وإعادة العراق إلى حظيرة الحكم الأموي، حافزاً لعبد الملك لتوجيه جهوده للقضاء على عبد الله بن الزبير الذي غدا سلطانه محصوراً بالحجاز فقط.

وقد تولى الحجاج بن يوسف الثقفي حرب ابن الزبير بسبب كفائه وولائه لعبد الملك بن مروان، وسار إلى الحجاز سنة ٧٢هـ / ٦٩٢م ونزل الطائف، فأقام فيها شهراً كان خلاله يبعث الرجال إلى ابن الزبير، فيناوشونه في أطراف مكة، ثم ترجع خيل الحجاج إلى الطائف^(٣).

ويبدو أن هدف الحجاج من إقامته هذه في الطائف، أن يتعرف على أوضاع ابن الزبير في مكة، وأن يعد العدة لمهاجمته، وبعد مضي الشهر، واستكمال هذه المعلومات

(١) الدنيوري: الأخبار الطوال، ص ٣١٣.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ١٦٢/٦ - ١٦٥.

(٣) الدنيوري: الأخبار الطوال ٣١٤، البلاذري: أنساب الأشراف ٣٥٧/٥.

كتب الحجاج إلى عبد الملك يستأذنه في مهاجمة ابن الزبير في مكة، فأذن له^(١)، وسار الحجاج إلى مكة ونصب المنجنيق على جبل أبي قيس، وجاءته نجدة قوامها خمسة آلاف مقاتل من عبد الملك^(٢)، وحصر الحجاج ابن الزبير في المسجد، وأخذ يرميه بالمنجنيق، وحتى يؤمن الحجاج مؤخرته فلا يفاجأ بهجوم لصالح ابن الزبير من المدينة، أرسل جماعة من أهل الشام استولوا على مقاليد الأمور في المدينة، وأخرجوها من سلطان ابن الزبير^(٣).

كانت خطة الحجاج ترك ابن الزبير محصوراً في الكعبة حتى يفنى ما معه من زاد، فيضطر وصحبه للاستسلام، وفعلاً قل مخزون الطعام في مكة بشكل عام، وأصاب الناس مجاعة في أثناء الحصار، وارتفعت الأسعار ارتفاعاً فاحشاً^(٤).

ولما وجد ابن الزبير أن لا فائدة من الاعتصام بالكعبة، خرج منها، وقاتل قتالاً بطولياً، وسقط قتيلاً بعد أن انفض الكثیر من أصحابه من حوله، جمادى الآخرة ٧٣هـ/٦٩٣م بعد حصار دام ستة أشهر^(٥).

وعموت عبد الله بن الزبير، وخضوع الحجاز لعبد الملك بن مروان توحيد العالم الإسلامي، وأصبح عبد الملك الخليفة الشرعي الوحيد للمسلمين، وعاد البيت الأموي لיתربع وحده على عرش الإمبراطورية، وصفا لعبد الملك الجو من منافسين خطيرين هددوا وجوده، وكادوا يفقدونه كل سلطان، ودخل العراق والحجاز مجدداً في ظل

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ١٧٤/٦، البلاذري: أنساب الأشراف ٣٥٧/٥.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ١٧٥/٦.

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف ٣٥٩/٥-٣٦٠.

(٤) البلاذري: أنساب الأشراف ٣٦١/٥-٣٦٣.

(٥) البلاذري: أنساب الأشراف ٣٦٨/٥، عيسى: الحزبية السياسية منذ قيام الإسلام حتى سقوط الدولة الأموية، ص ١٩٢.

التبعية الشامية بعد أن كان كل منهم يحلم بالحد، ويعمل لإبقاء مركز الثقل السياسي فيه.

العصبيات القبلية في عهد عبد الملك، وموقفه منها:

بعد أن تخلص عبد الملك من الحركة الزبيرية في الحجاز والعراق، وجه همه إلى العراق، ليثبت فيه أركان الحكم الأموي، وقد استطاع أن يحقق ذلك على يد عامله الشهير الحجاج بن يوسف الثقفي^(١).

أضف لذلك أنه كان عليه أيضاً أن يجمع شتات القبائل التي فرقها أحداث الفتنة الثانية والتي جرى فيها ما جرى بين قيس ويمن في مرج راهط، هذه المعركة التي كانت وبالأعلى القيسية، والتي كانت خسائرهم فيها لا العديد من الرجال فحسب، ولكن الكثير من الحقد، والضغينة على اليمنية، وعملوا ما في وسعهم للانتقام من بني كلب، وأحلافهم، وقد تمثل هذا الحقد في العدد الكبير من المنازعات، والحروب، والوقائع التي قامت بين قيس، ويمن^(٢).

ووقف رجال الدولة من هذه المنازعات مواقف تختلف حسب ميولهم وعصبيتهم، لهذا عزم عبد الملك حين وسدت إليه مقاليد الأمور أن يسلك طريقاً وسطاً في ميدان العصبيات، وقد أدت هذه السياسة إلى التخفيف من غلواء السيطرة اليمنية، وإلى ترك القيسية سياسة المقاومة لعبد الملك، والسير في ركابه لأنه أحسن إليهم، وقرب رجالهم، ووسد بهم الأمور، ما وسد خصومهم من اليمنية، وأصبح زفر بن الحارث الكلابي وأبنائه من أبرز شخصيات بلاط دمشق^(٣).

(١) عاقل: دراسات في تاريخ العصر الأموي، ص ١١٠.

(٢) عيسى: الحزبية السياسية، ص ٣٨١ وما بعد.

(٣) عاقل: دراسات في تاريخ العصر الأموي، ١١٢.

وبالوقت نفسه حتى يمتص غضب الكلبيين، أشعرهم أنهم لا يزالون موضع اهتمامه، وأهم لا يقلون أهمية عنده من القيسيين، وكما كان زفر بن الحارث ركن البلاط الأموي كان كذلك ابن بحدل، وروح بن زنباع الجذامي.

لهذا عرف عبد الملك كيف يولف بين الخصوم، ليجعل منهم خداماً للدولة التي تتمثل بشخصه، وكذلك سار على خطا معاوية في الاعتماد على أهل الشام لأنهم هم الذين فتحوا الفتوح، ووطدوا الملك لبني أمية وكانت العاصمة بين ظهرانيهم، وبالتالي كانت مصلحة أهل الشام قيسية وبنانية في مساعدة بني أمية، لأن الأمويين رفعوهم إلى مكان السيادة، واعتمدوا عليهم، وأسندوا إليهم الوظائف العليا في الجيش والإدارة، وغير ذلك، مما ولد عند الشاميين روح الجماعة، والشعور بأنهم فئة واحدة لها مصلحة واحدة، فتصدر عن عمل واحد، بخلاف ما كانت عليه الحال في بقية الأمصار، حيث الجبهة الداخلية المضعضعة وحيث الانقسام الذي أدى بشكل غير مباشر إلى استمرار نفوذ الشام.

وكان لهذه الوحدة الداخلية أهمية كبرى، إذ إنها أثبتت دعائم الحكم لحد جعل ما يجري في الأقاليم من أحداث، وفتن، وقلاقل لا يؤثر في الدولة، لأن مصالح القبائل في الشام مصنونة وأمورها على غير ما يرام.

— عبد الملك والخوارج:

لما آلت الخلافة إلى عبد الملك بن مروان، ولي أخيه بشر بن مروان الكوفة كما ذكرنا، وولى خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد البصرة، فقام هذان الواليان ببعض العمليات غير الناجحة ضد الخوارج، مما دعا عبد الملك بعد وفاة أخيه بشر، وتعيين الحجاج والياً على العراق أن يدعو المهلب لاستئناف القتال ضدهم، وقد جاء في خطبة الحجاج التي خطبها في أهل الكوفة إثر تولية عبد الملك له عليها قوله للكوفيين «من

وجدت بعد ثلاثة من بعث المهلب، سفكت دمه، وانجبت ماله»^(١)، وفعلاً بدأ الحجاج بتجنيد أهل العراق، وسوقهم لقتال الخوارج مع المهلب، وكان من أهم معاركه معهم زمن الحجاج إجلاؤه للأزارقة عن رامهرمز سنة ٧٥هـ/٦٩٤م، وكان يشاركه القتال عبد الرحمن بن مخنف^(٢)، الذي قتل في هذه المعركة، فاستبدله الحجاج بعتاب بن ورقاء، وأمره أن يكون تحت إمرة المهلب، وظل القتال مستمراً بين الأزارقة، والمهلب بعد ذلك مدة سنة، ولم ينته خطر الخوارج بالقضاء على الأزارقة، فقد خرج سنة ٧٦هـ/٦٩٥م صالح بن مسهر وجماعته من الخوارج الصفرية^(٣)، وانضم إليهم شبيب ابن يزيد وجماعته، فقاتلوا معاً جيشاً أرسله محمد بن مروان أمير الجزيرة وهزموه^(٤)، ولم تنته هذه المناوشات بين الصفرية والسلطة الأموية في العراق رغم مقتل صالح^(٥)، إذ خلفه شبيب في زعامة هذه الجماعة من الخوارج، وفي قتال الأمويين.

وقد علا شأن شبيب، واتسعت رقعة نفوذه، وتمكن من الاستيلاء على المدائن، ففر أهلها إلى الكوفة، واستطاع أن يهزم عدة جيوش أرسلها الحجاج ضده، وقد وصل من أمر شبيب أن استطاع دخول الكوفة، ومعه زوجته غزالة، إذ إن الحجاج في البصرة عندما وصلته الأخبار بتوجه شبيب نحو الكوفة، عاد مسرعاً، وأدرك الخطر المهدق به، وبالسطة الأموية في العراق، فكتب إلى عبد الملك يستنجد به ويطلب منه المدد، فأمره الخليفة بحشد من أهل الشام استطاع الحجاج بمعاونتهم أن يطرد شبيباً من الكوفة، وأن يعيد هذه المدينة إلى طاعة الأمويين.

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٢٠٤/٦.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٢١١/٦.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٢١٦/٦ وما بعد.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٢٢٠/٦.

(٥) عاقل: دراسات في تاريخ العصر الأموي، ص ١٢٣، شعبان: صدر الإسلام، ١٢١ وما بعد.

أما شبيب فقد مات غرقاً في نهر دجيل إثر مطاردة الجيش الأموي سنة ٧٧ أو ٧٨هـ / ٦٩٧م^(١)، وقد شكلت هذه الثورة قمة في العمل السياسي والعسكري الذي نحاضه الخوارج ضد البيت الأموي.

ومن بين زعماء الخوارج الذين قُضي عليهم زمن الحجاج، وعبد الملك، قطري بن الفجاءة^(٢)، الذي تولى زعامة الخوارج بعد مقتل نافع بن الأزرق، وقد كان مقتله ضربة قاصمة لفئة الأزارقة من الخوارج.

أما المهلب الذي حقق انتصارات ضخمة على الخوارج فقد كتب إليه الحجاج واستقدمه إليه، وأكرمه إكراماً شديداً هو وأولاده السبعة، وبعد إقامة قصيرة في البصرة عينه عبد الملك والياً على خراسان، فسار إليها، ومكث خمس سنين، ثم مات، فجعل عبد الملك أمر خراسان إلى الحجاج، فعين عليها يزيد بن المهلب الذي مكث في ولاية خراسان بضع سنين، ثم ما لبث الحجاج أن عزل عنها، وعين عليها قتيبة بن مسلم الباهلي.

وهكذا فقد كانت محنة الخوارج في العراق لا محنة الدولة فحسب، بل محنة الناس عموماً في هذا المصر الذي عاش الناس فيه اضطراباً، وفوضى دائمين، وكان نصر عبد الملك على الخوارج من أهم منجزات عهده، إذ حقق له ولمن جاء بعده من خلفاء استقراراً، وأمناً لطلالما حلموا بها، وقد كره الناس حركة الخوارج بشكل خاص، لما صاحب حركتهم من تعصب، وتعطش للدماء، وخطر على البلاد.

(١) عاقل: دراسات في تاريخ العصر الأموي، ص ١٢٣، شعبان: صدر الإسلام، ١٢١ وما بعد.

(٢) خمّاش: خلافة بني أمية في الميزان، ص ٥٩.

- ثورة عبد الرحمن بن الأشعث:

كانت ثورة عبد الرحمن بن الأشعث أكثر أهمية من أية ثورة أخرى إذ إنها هزت أسس الحكم الأموي، وكادت أن تقوضه، فبعد أن تخلص العراق من خطر الخوارج ٧٨هـ/٦٩٧م ضمت بلاد خراسان وسجستان إلى ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي، فعين المهلب بن أبي صفرة والياً على خراسان^(١)، وعبيد الله بن أبي بكر الثقفي والياً على سجستان، وقد كان أول واجب للوالي في مثل هذه الولايات النائية آنذاك، الغزو لإخضاع المناطق المجاورة، وتوفير مورد جديد للحكومة المركزية، كما أنه كان فرصة للتدريب والضبط في صفوف الجيش، وهذه الأسباب مجتمعة، قام عبيد الله بن أبي بكر بغزو رتبيل^(٢) ملك كابل، وزايل عام ٧٩هـ/٦٩٨م، الذي كان قد امتنع عن دفع الجزية للحجاج، فنفذ ابن أبي بكر على رأس جيش من أهل البصرة، ومعه مقاتلة أهل الكوفة عليهم شريح بن هانئ الحارثي ضد رتبيل، ولكن هذا الأخير أغراه في التوغل داخل بلاده عبر الممرات الجبلية الضيقة لكابلستان، ومن ثم انقض عليه من الخلف، ولم يتمكن ابن أبي بكر من الانسحاب إلا بأن تعهد بدفع خمسمائة ألف، أو سبعمائة ألف درهم، وترك بعض أتباعه ضمنهم ثلاثة من أولاده كرهائن عند رتبيل، وأن لا يغزو بلاده طالما بقي والياً، ولكن شريح بن هانئ لم يقر هذه الاتفاقية إذ وجد فيها إهانة، وتجرأ على المسلمين، وعبثاً حذر ابن أبي بكر من أن أي مبلغ يدفعه رتبيل سيقتطعه الحجاج من عطاء الجند، ثم قام هو وجماعة من أتباعه بقتال رتبيل، وكانت النتيجة خسائر كبيرة في الأرواح من جانب أهل الكوفة من جملتهم شريح نفسه^(٣).

(١) عاقل: دراسات في تاريخ العصر الأموي، ١٢٦.

(٢) عاقل: دراسات في العصر الأموي، ص ١٢٤.

(٣) شعبان: صدر الإسلام والدولة الأموية، ص ١٢٤.

وعُقد عقب ذلك صلحاً بين رُتبيل، وعبد الله بن أبي بكرة بعد أن أوضح الأخير بأن مقاومة شريح وأتباعه لم تكن عصياناً لأوامره.

إن أخبار هذه الخسائر الفادحة، والهزيمة المهينة أغضبت الحجاج الذي كتب للخليفة عبد الملك بن مروان يستأذنه في الانتقام للمسلمين من رُتبيل.

وحالما أذن له الخليفة بذلك جهز الحجاج جيشاً من أهل الكوفة وأهل البصرة كبير العدد عظيم في تجهيزه، وعدته، حتى أطلق عليه جيش الطواويس^(١)، وقد عهد بقيادة هذا الجيش إلى عبد الرحمن بن محمد بن قيس بن الأشعث الكندي^(٢).

ولما وصل ابن الأشعث وجيشه إلى سجستان ٨٠هـ/٦٩٩م خطب بالناس هناك داعياً المقاتلة للانضمام إلى جيشه، وقد تم له ذلك^(٣)، كما انضم إليه أيضاً جيش من طرستان تحت قيادة أخويه القاسم والصباح، وعندما سمع رُتبيل أن مثل هذا الجيش الكبير قد أرسل ضده، كتب إلى ابن الأشعث يعتذر له عن المصير الذي آل إليه جيش ابن أبي بكرة، وعرض عليه خطة لتسوية سلمية بين الطرفين.

ولكن ابن الأشعث لم يعر هذا العرض من جانب رُتبيل أي اهتمام، واستمر في زحفه نحوه، وقد أمل رُتبيل أن يوقع بهذا الجيش ما أوقع في جيش ابن أبي بكرة، وبدأ ينسحب أمامه مغرباً إياه بالتوغل بعيداً في بلاده، ولكن ابن الأشعث كان على علم باستراتيجية رُتبيل هذه، فكان حذراً جداً من هذه الناحية فقد أقام الحاميات في كل مدينة، أو قلعة احتلها، وأمن خطوط مواصلاته بتنظيم البريد بين هذه المناطق، وبعد أن سيطر على جزء كبير من البلاد، وحصل على غنائم ثمينة رجع ابن الأشعث إلى بست موجلاً العمليات العسكرية إلى الربيع القادم ٨١هـ/٧٠٠م إذ إنه وجد من الأصلح

(١) عاقل: دراسات في تاريخ العصر الأموي، ١٢٥.

(٢) زيتون: تاريخ العرب والإسلام، ١٦٤.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٦/٣٣٧-٣٣٨.

له، وللمسلمين أن يترك الجند يعتادون على هذه المنطقة الجبلية، وشتائها القاسي^(١). ثم كتب إلى الحجاج يخبره بنجاحه، وبهذه الاستراتيجية التي اتبعها، ولكن الحجاج كعادته دوماً متسرع، ونافذ الصبر، كتب له سلسلة من الرسائل المهينة والقاسية يأمره أن يستمر في تقدمه داخل بلاد العدو، دون تأخير، وأن يقاتله حتى الموت، وإلا فسوف يعزله عن القيادة ويجعلها إلى أحد إخوة ابن الأشعث^(٢)، وبذلك يجعله مجرد جندي بسيط في هذا الجيش.

ولقد كان لرسائل الحجاج المهينة هذه أثر بالغ في تأثر ابن الأشعث، فقد وصفه بالجهن، وعدم الكفاءة، فقرر أن ينتقم لنفسه، فجمع رؤساء أتباعه، وأخبرهم بأوامر الحجاج له وأعرب عن نيته في تحديه، وقد أشار إلى استراتيجيته التي اتبعها بالفتح قائلاً: بأنما حظيت بتأييد جميع الرجال من ذوي الخبرة والتجربة، وقال: إنه يهتم بخبرهم أكثر من الحجاج، ثم أردف قائلاً: (ولمّا أنا رجل منكم أمضي إذا مضيتكم، وأبي إذا أبيتم)، فقال الناس: (لا بل تأبي على عدو الله، ولا نسمع له، ولا نطيع). وكان أهل الكوفة هم أول الرجال الذين أعلنوا الثورة ضد الحجاج.

ومن أجل تنفيذ الهدف عقد ابن الأشعث صلحاً مع رُبَيْل، وعين ولاية من قبله على المدن المهمة في سجستان مثل بست وزرنج، وذلك عام ٨١هـ/ ٧٠٠م^(٣). وفي أثناء الزحف إلى العراق، كان مع ابن الأشعث الشاعر أعشى همدان ينشد شعراً احتفاء بهذه المناسبة^(٤) التي نجد فيها القبائل العربية الشمالية والجنوبية تقف سوية

(١) عاقل: دراسات في تاريخ العصر الأموي، ص ١٢٥.

(٢) عاقل: دراسات في تاريخ العصر الأموي، ص ١٢٥، خمائش: خلافة بني أمية في الميزان، ص ٦٥.

(٣) عاقل: دراسات في تاريخ العصر الأموي، ص ١٢٦.

(٤) ينظر ديوان الأعشى، دكسي: الخلافة الأموية، ٢٤٧ وما بعد.

متضامنة ضد عدو مشترك، وإنها كذلك المرة الأولى التي نجد فيها المضربين يقبلون أن يتبعوا قائداً بمانياً، والمناسبة التي ظهر فيها أن عصبيتهم لمصرهم العراق كانت أقوى بكثير من عصبيتهم لقبائلهم.

وعندما وصل جيش ابن الأشعث الثائر إلى فارس، أدركوا أن خلع الحجاج لا يمكن فصله بأي حال من الأحوال من الثورة ضد عبد الملك بن مروان، ولذلك فقد خلعوا عبد الملك، وبايعوا ابن الأشعث على كتاب الله وسنة نبيه، وخلع أئمة الضلالة والجهاد ضد المخليين^(١).

وحالما وصلت أنخبار البيعة لابن الأشعث إلى مسامع الحجاج ترك الكوفة، وذهب إلى البصرة، وأرسل من هناك رسالة عاجلة للخليفة يطلب إمدادات من أهل الشام، ولقد أرب هذا النبا الخليفة، فأرسل الإمدادات تبعاً، وبصورة مستمرة^(٢).

وحدث أول صدام بين جيش الحجاج، وجيش ابن الأشعث قرب تستر^(٣) ١٠ ذي الحجة ٨١هـ / ٢٥ ك ١٠ ٧٠٠م، وكان النصر فيه لابن الأشعث، لذلك انسحب الحجاج إلى البصرة، ولكنه لم يجد فيها تأييداً له، فتركها وعسكر في الزاوية، وكان الحجاج، وأتباعه يعانون في هذا الوقت من قلة التجهيزات مما اضطره إلى مصادرة الأطعمة العائدة للتجار.

وفي هذا الوقت دخل ابن الأشعث البصرة دون مقاومة بل على العكس قوبل بحماس شديد خاصة من قبل القراء^(٤)، ووجوه الناس وقد نخذق على نفسه، وأقام التحصينات، وبعد حوالي شهر من المناوشات حدثت معركة بين الطرفين في الثاني

(١) دكسن: الخلافة الأموية، ص ٢٤٧.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٣٣٩/٦.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٣٤٠/٦.

(٤) خليفة بن خياط: تاريخ ٣٥٦/١، ابن كثير: البداية والنهاية ٤٠/٩.

والعشرين من محرم سنة ٨٢هـ / آذار ٧٠١م قتل فيها عدد كبير من القراء، وانتصر الحجاج في النهاية فيها بفضل صموده ومثابرته ومهارة قائده الشامي سفيان بن الأبرد الكلبي.

وبعد هذه الهزيمة في الزاوية، ترك ابن الأشعث البصرة، وتوجه إلى الكوفة، ومعه جنوده الكوفيون إضافة إلى بعض فرسان أهل البصرة تاركاً عبد الرحمن بن عباس الهاشمي القرشي الذي استمر في القتال لفترة قصيرة فقط، وذلك لأن أغلبية أهل البصرة قبلوا الأمان الذي أعلنه الحجاج، وفتحوا له الطريق لدخول المدينة، ونتيجة لذلك اضطر عبد الرحمن بن عباس الهاشمي القرشي، وبمجموعة صغيرة من أتباعه إلى ترك البصرة والانضمام إلى قائدهم ابن الأشعث في الكوفة^(١). الذي استقبله الكوفيون بحماس شديد جداً، وانضم إلى جيشه عدد من أولئك المعارضين للحكم الأموي.

ترك ابن الأشعث الكوفة^(٢)، وعسكر في دير الجماجم، ونشب القتال لمدة شهرين دون نتيجة حاسمة، جعلت عبد الملك بن مروان يتفاوض مع الثوار في محاولة منه لإيجاد تسوية سلمية لهذه الحرب التي طال أمدها، وكانت مطالب عبد الملك عزل الحجاج عن العراق ورفع عطاء أهل العراق ليكون مساوياً لعطاء أهل الشام، ومنح ابن الأشعث أي ولاية شاء في العراق مدى حياته^(٣).

وعبثاً حاول الحجاج أن يقنع الخليفة بالعدول عن تقديم مثل هذه الشروط لأهل العراق، وبالمقابل حاول ابن الأشعث إقناع أتباعه في قبول هذه الشروط، لكنهم رفضوها، وجددوا خلعتهم لعبد الملك بن مروان، وكانوا معتمدين في رفضهم هذا على أن الحجاج، وجيوشه من أهل الشام كانوا يعانون من قلة التجهيزات ولكنهم أخطأوا

(١) دكسن: الخلافة الأموية، ص ٢٥١ وما بعد.

(٢) خماس: خلافة بني أمية في الميزان، ص ٦٧.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٣٤٧/٦، ابن الأثير: الكامل ٤٦٩/٤ - ٤٧٠.

في استنتاجهم هذا، فرغم كل الصعوبات التي كانت تواجههم وقف أهل الشام بثبات، وهكذا خسر أهل العراق فرصتهم في التخلص من الحجاج، وحكمه، والحصول على زيادة في عطائهم.

واستؤنف القتال، واستمر مائة يوم، وكان أكثر أتباع ابن الأشعث حماساً في القتال ضد الحجاج هم القراء الذين نظموا أنفسهم في كتبية خاصة، ولكن سرعان ما تلاشى حماسهم عندما قتل قائدهم جبلة بن زفر الجعفي.

وفي شهر جمادى الثانية ٨٢هـ / تموز ٧٠١م حدثت معركة دير الجماجم الخامسة ورجحت كفة أهل العراق، فانهزم ابن الأشعث^(١)، وهذه الهزيمة لم تكن لهائية، فقد عاد كثير من المنهزمين، وتجمعوا حول ابن الأشعث مجدداً، وساروا معه إلى البصرة، وخرجوا منها بعد قليل، وتجمعوا على نهر الدجيل قبل مسكن فتبعه الحجاج مجدداً، وهزمه بعد قتال عنيف، قضى فيه على الكثيرين من رجال ابن الأشعث، وبعد هذه الهزيمة، عاد ابن الأشعث إلى المشرق، فتبعه أهل الشام بقيادة عمارة بن تميم إلى كرمان وسجستان، ولما وصل ابن الأشعث إلى موقع هناك كان له فيه عامل أسره عامله، وقرر أن يرسله إلى الحجاج ليفتك به، وتدخّل رتبيل، بالأمر، وفك إيسار ابن الأشعث، وأخذه ورجاله إلى كابل وأكرمهم، واستبقاهم عنده^(٢).

وفي هذه الأثناء جاء جماعة من أهل العراق قاصدين للحاق بابن الأشعث، وأرسلوا إليه يطلبون منه الخروج معهم، والعودة للقتال، فلبى نداءهم، واستولى على بعض المواقع، ولكن عمارة ما لبث أن لحق به، فلما عرف أصحاب ابن الأشعث

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٣٤٧/٦.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٣٤٧/٦، خماش: خلافة بني أمية في الميزان، ص ٦٩.

بقدم عمارة مجدداً انفضوا من حوله، وغادوا إلى خراسان، فعاد ابن الأشعث إلى رتبيل من جديد^(١).

وقد تمكن عمارة قائد جيش أهل الشام من أن يستولي على سجستان فأعلن العفو عن فيها من بقية جند العراق من أتباع ابن الأشعث.

وهكذا لم يبق إلا ابن الأشعث، فأبى رتبيل أول الأمر ثم قبل بعد ذلك على أن لا تغزي بلاده عشر سنين، وأن يؤدي بعد السنين العشر في كل سنة تسعمائة ألف^(٢). وهكذا أرسل رتبيل إلى ابن الأشعث فأحضره ومعه ثلاثين من أهل بيته، وكان قد أعد الجوامع والقيود، فألقى في عنقه جامعة، وأرسل به، وبأهل بيته إلى أقرب موضع يحتله عمارة، ولكن ابن الأشعث حين شعر بأنه سيسلم إلى عمارة، تخين على غفلة من حرسه، وألقى نفسه من فوق القصر فمات، واحتزوا رأسه، وأرسلوه إلى الحجاج سنة ٨٥هـ/٧٠٤م^(٣).

وهكذا انتهت هذه الثورة التي كانت من أقسى الأزمات التي واجهتها الدولة الأموية، و تعرض فيها مركز الحجاج كوال، وأحد ثقة البيت الحاكم إلى امتحان عسير، خرج منه منتصراً.

- مصير أولاد المهلب:

بعد انتهاء أزمة ابن الأشعث، أضحت بلاد المشرق تخضع خضوعاً تاماً للحجاج، وليس فيها ما يعكر الصفو إلا أولاد المهلب الذين كانوا أصحاب السيطرة، والنفوذ في خراسان، ويعود نفوذ المهالبة في هذه المنطقة إلى أسباب عدة أهمها: أن قبيلتهم

(١) عاقل: دراسات في تاريخ العصر الأموي، ص ١٣٠.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٣٩١/٦.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٣٩١/٦.

أزدعمان التي نزحت من البصرة، وسكنت خراسان حالفت قبائل ربيعة، وتآلفت منها جبهة يمنية في خراسان، تقابلها جبهة قيسية مضرية تتألف من قبائل ثميم وقيس.

وكان يلي خراسان في هذه الفترة يزيد بن المهلب الذي لم يكن يتمتع بنفوذ العامل فحسب، بل كان أيضاً زعيم الجبهة اليمنية المناوئة للحجاج، وكان الحجاج بدوره ناقماً على يزيد^(١) ويريد التخلص منه بحجة أنه لم يكن جاداً في ملاحقته لفلول ابن الأشعث الذين التجأوا إلى هراة، وكان ليناً في معاملة الذين أسروا منهم، وذلك لكونهم من اليمنية.

وقد أخذ الحجاج في مواربة يزيد ليستخرجه من خراسان فكان يبعث إليه لياثيه، فيعتل عليه بالعدو، وحرب خراسان^(٢) فمكث بذلك حتى كان آخر سلطان عبد الملك، ثم إن الحجاج كتب إلى عبد الملك يشير عليه بعزل يزيد بن المهلب، ويخبره بطاعة آل المهلب لابن الزبير، وأنه لا وفاء لهم، فكتب إليه عبد الملك إن لا أرى تقصيراً بولد المهلب طاعتهم لآل الزبير ووفاءهم لهم، وطاعتهم ووفاءهم لهم، هو ما دعاهم إلى طاعتي والوفاء لي، وقد وافق عبد الملك أخيراً على عزل يزيد، وكان ذلك سنة ٨٥هـ/ ٧٠٤م، فاستقدمه الحجاج إليه، وسجنه وأمر بإخراج إخوته من خراسان، وقطع أصولهم منها، وفرق التجمع اليمني الذي كانوا يرأسونه، وهكذا خلص المشرق بكامله للحجاج، وخضع له خضوعاً تاماً، لا يعكر صفوه شيء.

(١) عاقل: دراسات في تاريخ العصر الأموي، ص ١٣٥.

(٢) عاقل: دراسات في تاريخ العصر الأموي، ص ١٣٦.

- الحروب الخارجية في عهد عبد الملك:

تنبه عبد الملك بن مروان إلى الخطر البيزنطي الجاثم على حدوده ولكن الثورات الداخلية التي اندلعت، جعلته يسارع إلى عقد معاهدة مع الإمبراطور جستنيان الثاني الذي تسلم عرش بيزنطة في السنة نفسها التي بويغ فيها عبد الملك بالخلافة ٦٥هـ / ٦٨٥م والذي حاول انتهاز المشاكل الداخلية التي شغلت الدولة العربية الإسلامية بعد وفاة يزيد ابن معاوية سنة ٦٤هـ / ٦٨٤م، ليقوم ببعض التحركات العسكرية بهدف تحقيق نصر سريع على العرب ولما كان عبد الملك يريد أن ينصرف إلى معالجة القضايا الداخلية الكثيرة التي كانت ما تزال تهدده، فإنه وافق على أن يدفع إتاوة إلى بيزنطة، وأن تتقاسم دمشق مع القسطنطينية العائدات التي تجبي من قبرص وأرمينية^(١)، وظلت قبرص فترة من الزمن تعيش تحت حكم إسلامي بيزنطي مزدوج، وأن تكون خالصة التبعية لأي من الدولتين المتنازعتين^(٢).

وفي سنة ٦٩-٧٠هـ / ٦٨٨-٦٨٩م اضطر عبد الملك بن مروان أن يعقد معاهدة ثانية مع جستنيان في أثناء ثورة الجراحمة^(٣)، (المردة في المصادر البيزنطية) بتحريض من بيزنطة، لانشغاله بإخماد فتنة عبد الله بن الزبير، ونصت المعاهدة على أن يدفع عبد الملك ألف دينار، وحصاناً وعبداً عن كل أسبوع في السنة مقابل أن يتعهد جستنيان بنقل المردة من لبنان، فبدأ بنقل ألفاً منهم، فذهب بعضهم إلى ترافيا، ودخل آخرون آسية الصغرى.

إن عملية نقل الجراحمة من جبل اللكام (الأمانوس) إلى المناطق الجديدة، خلصت الدولة العربية الإسلامية من فتنة كانت تشكل ستاراً حديدياً يقف دوماً في وجه الجيوش

(١) خماش: خلافة بني أمية في الميزان، ص ١٠٥.

(٢) عاقل: دراسات في تاريخ العصر الأموي، ص ١٣٧، عاقل: الإمبراطور البيزنطي، ص ١٢١.

(٣) خماش: خلافة بني أمية في الميزان، ص ١٠٥.

الإسلامية^(١) وقد تبين لجستينيان خطأ ما فعله من نقل الجراجمة من مواقعهم وحاجته إليهم حين تجددت الغارات بين الجيش العربي الإسلامي والجيش البيزنطي في منطقة آسية الصغرى على الحدود بين الدولتين وأدرك أنه لا بد له من سد الثغرة التي حدثت نتيجة لنقل الجراجمة^(٢) فقرر أن يستعيز عن الجراجمة بالعناصر السلافية التي كانت تسكن البلقان^(٣)، ووزعهم على أشد المناطق تعرضاً إلى هجمات المسلمين في آسيا الصغرى، والتي كانت طريق زحفهم جنوب القسطنطينية.

والفيد ذكره أنه عندما نقض جستينيان الثاني الهدنة سنة ٧٤هـ/٦٩٣م مع عبد الملك متخذاً من مسألة الدنانير المعربة نقطة لنقض الصلح بدأت المعارك بين الطرفين وحدثت معركة سيباستوبوليس في أرمينية^(٤)، وتعرف هذه المنظمة التي جرت فيها المعركة اليوم باسم سولوسراي^(٥).

هذا وكان جستينيان قد كون فرقة كبيرة من السلاف بلغت ٣٠,٠٠٠ جندي، وجعل مقرها الرئيسي في بند الأوبسكيون المطل على الدردنيل، واغتر جستينيان باستعداداته، ولكنه هُزم هزيمة ساحقة كاد معها أن يخسر آسيا الصغرى بكاملها، وانحاز عشرون ألفاً من الصقالبة إلى المسلمين، مما استثار حقد جستينيان فعمد إلى إجراء مذبحه فيمن بقي بجيشه عند لوكاتا^(٦)، ولذا غدا السلاف مستعدين لخدمة المسلمين في أي نضال حربي ينشب بينهم وبين البيزنطيين، ولا سيما أنهم كانوا على علم بدروب

(١) العدوي: الأمويون والبيزنطيون، ص ٢٠٧.

(٢) العدوي: الأمويون والبيزنطيون، ص ٢٠٧.

(٣) خمائش: خلافة بني أمية في الميزان، ص ١٠٥.

(٤) الحموي: معجم البلدان ٢٩٩/٤.

(٥) خمائش: خلافة بني أمية في الميزان، ص ١٠٥.

(٦) عاقل: الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٢٣.

آسية الصغرى، ويذكر المؤرخ ميخائيل السرياني أن عبد الملك أسكن هؤلاء الصقالبة الذين انحازوا إلى المسلمين منطقة أنطاكية.

وبعد أن توطدت الأمور لعبد الملك في الداخل سار على خطة معاوية في تجهيز الحملات العسكرية السنوية لحرب الروم التي يمكن اعتبارها بمثابة المناورات العسكرية التي أبقت الجند في حالة تأهب واستعداد.

هذا وقد توفي عبد الملك، وهو في الستين من عمره في دمشق سنة ٨٦هـ/ ٧٠٥م، ليخلفه ابنه الوليد الذي سيتابع ما بدأه والده^(١).

٣- الوليد بن عبد الملك ٨٦-٩٦هـ / ٧٠٥-٧١٥م:

تسلم الوليد بن عبد الملك ملكاً وطيد الأركان، لا يعكر صفوه ثائر، أو خارج على إرادة الدولة، وقد قامت شهرته على أمرين رئيسيين:

١- ما تم في عهده من فتوح في مختلف الجبهات، ومنجزات حربية رائعة في أكثر من ميدان، ساعده على تحقيقها قادة عظام، وهدوء في الداخل، وأمن مستتب ودولة أرسيت قواعدها على أسس متينة منذ زمن أبيه.

٢- منجزاته في الداخل، ولا سيما في ميدان العمران، والإحسان إلى الرعية، والاهتمام بالفقراء، والمعوزين، و الزمنى، وغيرهم.

ويجب التنويه أن ولاية العهد لم تكن للوليد بن عبد الوليد إنما كانت لعمه عبد العزيز، وقد حاول عبد الملك خلعه سنة ٨٥هـ/ ٧٠٥م، وتداول الأمر مع بعض خاصته، فوافقوه على رأيه^(٢)، ولكن القدر سبقه حيث جاءه نعي أخيه عبد العزيز

(١) العدوي: الأمويون والبيزنطيون، ص ١٢٣.

(٢) عاقل: دراسات في تاريخ العصر الأموي، ص ١٤٧.

فكانت وفاته خير حل لأزمة جديدة قد تعصف بالبيت الحاكم وتعرضه لخطر،
وانشقاق جديدين^(١).

- الفتوحات زمن الوليد بن عبد الملك:

١- الفتوح في الجبهة الشمالية:

تابع الوليد بن عبد الملك، ما كان قد بدأ زمن أبيه من عمليات عسكرية في آسية
الصغرى، وحمل راية الجهاد ضد الروم وكان هدف هذه العمليات، الاستيلاء على
المعاقل الهامة الواقعة على الطريق الرئيسي المؤدي إلى القسطنطينية، كما كان هدفها
أيضاً دك حصون العدو، وإقامة حصون جديدة، تكون مرتكزاً للعرب في عملياتهم
داخل الأرض البيزنطية، وكان أشهر قادة الجبهة الرومية في خلافة الوليد مسلمة بن
عبد الملك، وابنه العباس بن الوليد، وقد أظهر كلاهما مقدرة حربية رائعة، ومهارة لا
توصف في قيادة الحملات، ومن أهم الحصون التي تم الاستيلاء عليها حصن طوانة سنة
٨٨هـ / ٧٠٦م بعد أن كبدوا البيزنطيين خسائر فادحة^(٢).

وتتالت غزوات المسلمين في السنوات ما بين ٩٠هـ - ٩٥هـ / ٧٠٨ - ٧١٣م،
ولكن أخبار هذه الغزوات التي قام بها مسلمة بن عبد الملك وغيره من القادة لأرض
الروم مقتضبة، ولا تذكر ما حقق فيها المسلمون من انتصارات، على أن المؤرخ
بيوري Bury يذكر أنه في سنة ٩٤هـ / ٧١٢م، وصلت الجيوش الإسلامية إلى
البوسفور وتمكنت من الاستيلاء على بعض المعاقل الهامة^(٣)، ويبدو أن العرب المسلمين
استفادوا من الفترة الواقعة بين ٨٨ - ٩٤هـ / ٧٠٦ - ٧١٢م من انشغال الإمبراطور
البيزنطي جستنيان الثاني بمشاكله التي رافقت عودته إلى العرش ليشنوا سلسلة من

(١) عاقل: دراسات في تاريخ العصر الأموي، ص ١٤٨.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٤١٢/٦ - ٤١٣ وما بعد.

(٣) Bury: History or the Later Roman Empire, p. 321.

الغارات على أرض الإمبراطورية البيزنطية، وإذا كان للقوات البرية العربية دورها البارز في الصراع العربي البيزنطي في هذه الفترة، فقد كان للأساطيل دورها كذلك في محاولة للوصول إلى القسطنطينية.

وقد جاء في الطبري في أحداث سنة ٩٠هـ / ٧٠٨م، أن الروم أسرت خالد بن كيسان صاحب البحر، فذهبوا به إلى ملكهم، فأهداه ملك الروم إلى الوليد بن عبد الملك^(١).

في هذا الموقف الذي اتخذته الإمبراطور البيزنطي دليل على رغبته في استرضاء خليفة دمشق، ومبادرته بالود كي يثنيه عما كان ينويه من غزو بحري للقسطنطينية، على أن الوليد لم يغير خطته، لا سيما، وأن جيوشه البرية كانت قد حققت انتصارات كبيرة واستطاعت أن تستولي على عدد من المعاقل الهامة في آسيا الصغرى وزاد في حماس الوليد لمشروعه في فتح القسطنطينية، الوضع داخل بيزنطة بعد خلع جستنيان الثاني، ومقتله، وزوال الأسرة الهرقلية، وتنصيب القائد الأرمني باردانس فيليسكوس إمبراطوراً على بيزنطة، ثم الثورة عليه وخلعه سنة ٩٣-٩٤هـ / ٧١٣م، وتنصيب إمبراطور جديد هو الستازيوس الثاني^(٢)، الذي حاول بعد أن تسلم العرش أن يستعد لمواجهة الجيش الإسلامي، فبذل جهوداً كبيرة لإعادة تنظيم الجيش، واستكمال نواقصه، ونظم الدفاع عن العاصمة، وأمن المون اللازمة لها إذا ما تعرضت لحصار المسلمين وسلم أمر الدفاع لأمر قاداته، وفي الوقت نفسه كان الخليفة يقوم باستعدادات مماثلة، وكانت الاستعدادات من الاتساع بحيث وصلت أخبارهم إلى السلطات البيزنطية، فأوفد الإمبراطور الستازيوس سفارة لدمشق ليتباحث مع حاكمها في عقد هدنة بين الدولتين،

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٤٢٢/٦.

(٢) Bury: History of Later Roman Empire, p. 371.

وزود الإمبراطور رئيس هذه السفارة بتعليمات سرية للتحسس على مدى استعداد المسلمين الحربي^(١)، وبعد أن وصلت السفارة إلى دمشق، ورأت نشاط المسلمين في إعداد الجيش، وصدق عزمهم على القتال، وعادت إلى العاصمة لتنقل للإمبراطور ما رأت، وتنصحه، وسكان القسطنطينية بالتزود بالمون، والعتاد لثلاث سنوات^(٢)، وعمل الإمبراطور بنصيحتها، فعلاً الخزائن استعداداً للغزو المرتقب، وتشاء الظروف أن يكون حصار القسطنطينية من منجزات فترة حكم أخيه، وخلفه سليمان بن عبد الملك.

٢- الفتوحات في الجبهة الشرقية:

أ- الفتوحات في منطقة ما وراء النهر:

منطقة ما وراء النهر هي المنطقة الواقعة بين نهر أموداريا (جيحون)، وسرداريا (سيحون)^(٣)، وقد تكونت في هذه المناطق ممالك مستقلة غير واضحة الحدود، منها مملكة الختل^(٤)، وهي على تخوم السند ومملكة الصفد، ومن أشهر مدنها بخارى، وسمرقند^(٥)، والصغانيان وهي ولاية عظيمة في ما وراء النهر، وأعمالها متصلة بترمد، ومملكة بخوارزم، وكان لها عاصمتان الأولى على الطرف الغربي لنهر جيحون وتدعى كاش، والتي أصبحت في القرن الرابع الميلادي العاصمة الرئيسية للإقليم، ومن بلاد ما وراء النهر منطقة الشاش وفرغانة^(٦).

(١) Bury: History of later Roman Empire, p. 341.

(٢) خماش: خلافة بني أمية في الميزان، ص ١٠٧.

(٣) الحموي: معجم البلدان، مادة: ما وراء النهر.

(٤) عاقل: دراسات في تاريخ العصر الأموي، ص ١٤٩.

(٥) الديبوري: الأخبار الطوال، ص ٣٣٧.

(٦) من أجل هذه الممالك ينظر الحموي، معجم البلدان.

ومنذ سقوط إمبراطورية كوشان أصبحت هذه المناطق تحكم من قبل أمرائها المحليين، ومن المحتمل كما قول بارتولد أن الساسانيين لم يحكموا تلك المنطقة، ولم يرسلوا نواباً عنهم إليها حتى للأشراف^(١).

وقد بدأ العرب منذ أن توطدت أقدامهم في خراسان بغزو بلاد ما وراء النهر ثم العودة إلى مراكزهم في خراسان شتاء، وكان الوالي سلم بن زياد ٦٢-٦٣هـ/٦٨٢-٦٨٣م، أول من عبر النهر، وأقام في الشتاء هناك^(٢).

على أن عمليات فتح بلاد ما وراء النهر لم تأخذ شكلاً منظماً إلا في خلافة الوليد ابن عبد الملك ٨٦-٩٦هـ/ ٧٠٥-٧١٥م، ففي مستهل خلافته عين الحجاج قتيبة بن مسلم الباهلي والياً على خراسان عوضاً عن المفضل بن المهلب، ووصل قتيبة فوجد المفضل يعرض الجند يريد أن يغزو بهم آخرون وشومان، فخطب فيهم قتيبة، وحشهم على الجهاد^(٣).

وسار مستخلفاً على مرو إياس بن عبد الله بن عمر حتى بلغ الطالقان، فأتاه دهاقي بلخ، وبعض عظمائهم، وساروا معه ولما قطع نهر جيحون تلقاه ملك الصغانيان بهدايا، ومفتاح من ذهب ودعاه إلى بلاده وسلمه إياها، ثم سار بعد ذلك إلى آخرون وشومان فصالحه ملكهما على فدية أداها إليه فقبلها قتيبة، ثم انصرف إلى مرو وعهد بأمر القتال إلى أخيه صالح بن مسلم الذي قام ببعض الأعمال الحربية نيابة عن أخيه، ثم قدم عليه بعد ذلك، فاستعمله قتيبة على ترمذ^(٤).

(١) Barthold: Turkestan, p. 183.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٤٧٢/٥-٤٧٣.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٤٣٤/٦.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٤٣٤/٦-٤٣٥، ابن الأثير: الكامل ١٠٥/٤.

وجدد قتيبة عام ٨٧هـ / ٧٠٦م حملاته العسكرية، فغزا بيكند ومن أجل ذلك سار من مرو، وأتى مرو الروذ، وأمل، وسار إلى بيكند، وبعد حصار دام قرابة الشهرين، وقتال شديد دانت له وأصاب منها على ما يذكر الطبري من آنية الذهب والفضة ما لا يحصى وصار في أيدي المسلمين من بيكند شيء لم يصيبوا مثله بخراسان^(١).

وفي سنة ٨٨هـ / ٧٠٧م غزا قتيبة نومشكت، ورامثينة، وفتهما، ومضى إلى بخارى لقتال ملكها، وذلك سنة ٨٩هـ / ٧٠٨م فلم يظفر منه بشيء، فرجع إلى مرو، وكتب إلى الحجاج بذلك فطلب منه أن يصورها له، فبعث إليه بصورها، فزوده الحجاج بخطة لفتحها، ويبدو أن فتح بخارى كان سنة ٩٠هـ / ٧٠٩م^(٢).

وجرى بين قتيبة، ونيزك صاحب القلعة المشهورة بياذغيس معارك كثيرة، كانت قد بدأت بينه، وبين العرب منذ ولاية يزيد بن المهلب على خراسان ٨٢-٨٥هـ / ٧٠١-٧٠٤م، واستطاع قتيبة أن يجبره على الصلح، ولكن نيزك عاد، ودبر فتنة ضد العرب في طخارستان، فحرض ملوك بلخ، والبطالقان، وحكامها، مما دفع قتيبة إلى قتله سنة ٩١هـ / ٧١٠م.

وفي سنة ٩٣هـ / ٧١٢م جدد قتيبة الصلح مع ملك السند^(٣) وأوقع بأهل الطالقان بخراسان فقتل منهم خلقاً كثيراً، ووجه حملات نحو سمرقند بقصد فتحها، وضررها بالجنائيق، وأحدث ثلماً في سورها فهرب معظم أهلها، فدخلها، وأحرق أصنامها، وبني فيها مسجداً^(٤).

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٤٢٤/٦-٤٢٥، ابن الأثير: الكامل ١٠٥/٤.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٥٠١/٦-٦٠٢، ابن الأثير: الكامل ٣٥/٤-١٣٦.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٥٠٦/٦-٥٠٧.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٤٧٣/٦ وما بعد.

وامتدت فتوحات قتيبة إلى دلتا نهر جيحون عند خوارزم وصالحه ملكها سنة ٩٣هـ / ٧١٢م، كما امتدت إلى الممالك الواقعة قرب سيحون المتاخمة لبلاد الترك، فغزا الشاش، وفرغاته سنة ٩٥هـ / ٧١٤م وساعده في معاركه هذه أناس من أهل الصغد وخوارزم، وبعث جيشاً إلى كاشغر، وهي أدنى مدائن الصين سنة ٩٦هـ / ٧١٥م فغنم وسبي، وأوغل حتى بلغ قريب الصين فأرسل إليه ملكها الهدايا، وطلب منه أن يبعث إليه بوفد من رجاله^(١)، ولم يستطع قتيبة أن يسير أكثر من ذلك بفتوحاته لأن الموت عاجل الخليفة الوليد، وكان عليه أن يتوقف ليعرف ما ستكون عليه الحال زمن الخليفة الجديد.

ب- فتح السند:

في مطلع خلافة الوليد، ولي الحجاج محمد بن القاسم الثقفي على السند وكان قبلها بفارس، وأمره أن يسير إلى الري، وأن يقيم في شيراز بانتظار قدوم الإمدادات إليه^(٢). وفعلاً أرسل إليه ستة آلاف مقاتل من جند أهل الشام، وجهزه بكل ما يحتاج إليه حتى المسال والإبر والخيوط^(٣)، وكان مسير محمد بن القاسم سنة ٨٩هـ / ٧٠٨م، وكانت أولى معاركه الهامة، المعركة التي انتهت بفتح الديبل (كراتشي اليوم)، وهو المرفأ الذي ينتهي عند دلتا نهر السند.

فبعد أن نزل الديبل وافته السفن التي كانت تحمل الرجال والأسلحة وأدوات الحصار، وقد استعمل في حصاره لهذه المدينة المنجنيق، وبعد حصار طويل ورمي كثيف بالمنجنيق استطاع أن يفتح هذه المدينة وأن يعمل القتل فيها مدة ثلاثة أيام، هرب في أثناءها عامل داهر وقد حطم محمد بن القاسم العديد من أصنام هذه المدينة، كما خرب

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٤٧٣/٦ وما بعد.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ٦١٢/٥.

(٣) ابن الأثير: الكامل ٥٣٧/٤.

بعض معابدها، وقتل سدنتها، واستبقى فيها حامية قوامها أربعة آلاف مقاتل، وبني فيها مسجداً، وكان الحجاج في أثناء عمليات محمد ضد الديبل على صلة دائمة به، يرسل إليه بتوجيهاته، وتعليماته كل ثلاثة أيام^(١).

وبعد فتح الديبل سار محمد باتجاه الشمال، وفتح بعض المدن صلحاً، وبعضها عنوة^(٢)، وبلغ داهر ملك السند مسير محمد إليه، فاستعد للقائه، وجمع جيشاً كبيراً، وزوده بالفيلة ليرهب خيل العرب، وجرى قتال شديد بين محمد بن القاسم وداهر، لاقى فيه داهر حتفه بعد أن قتل كثير من أصحابه^(٣).

وغدا محمد بعد مقتل داهر سيد بلاد السند، ودخل عاصمتها عنوة، وكانت بها امرأة للداهر خافت أن تؤخذ، فأحرقت نفسها وجواربها، وجميع مالها^(٤)، ثم قطع محمد نهرياس الذي يؤدي إلى الملتان المدينة المقدسة الغنية، فحاصره، وقطع الماء عنهم، فعطشوا، وقبلوا التزول على حكمه، فقتل المقاتلة، وسبى الذرية وسدنة بيوت العبادة الوثنية، وأصاب ذهباً كثيراً، وجمعت الأموال في بيت على ما يزعم المؤرخون طوله عشرة أذرع، وعرضه ثمانية أذرع^(٥)، وكان المال يلقى إليه من كوة في وسطه، وبلغ من غنى الملتان أن سماها العرب بيت الذهب، ويبدو أن سبب غناها هو الصنم الكبير (البد) الذي كان فيها، والذي كان الناس يحجون إليه، ويقدمون إليه الهدايا والنفائس^(٦).

(١) ابن الأثير: الكامل ٥٣٦/٤-٥٣٧.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٥٣٧/٤-٥٣٨.

(٣) عاقل: دراسات في تاريخ العصر الأموي، ص ١٦٠.

(٤) ابن الأثير: الكامل ٥٣٨/٤-٥٣٩.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٤٢٦، ابن الأثير: الكامل ١١٢/٤.

(٦) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٤٣٧.

ويذكر البلاذري أن الحجاج نظر في العمليات العسكرية التي قام بها محمد بن القاسم الثقفي، وما تكلفت الدولة في سبيلها من مال فإذا هو — أي الحجاج — قد أنفق على محمد بن القاسم ٦٠ ألف ألف (٦٠ مليون درهم) ووجد ما حمل إليه ١٢٠ ألف ألف درهم (١٢٠ مليون درهم) فقال: شفيينا غيظنا، وأدر كنا ثارنا، وازددنا ستين ألف ألف درهم، ورأس داهر^(١).

وتوغل محمد في فتوحاته بعد ذلك حتى وصل كشمير، فلما بلغه وفاة الحجاج، وبعده الوليد، خف حماسه، واقتصر نشاطه العسكري على بعض العمليات التأديبية الصغرى ضد الذين كانوا يثورون عليه^(٢).

٣- الجبهة الغربية:

١- فتح الأندلس:

ولم الوليد أخاه عبد الله بن عبد الملك على مصر، فعزل عبد الله حسان بن النعمان الغساني عن ولاية أفريقية، وولاه موسى بن نصير^(٣) لأن ولاية أفريقية كانت تتبع والي مصر.

وكانت ولاية موسى على أفريقية سنة ٨٩هـ / ٧٠٨م^(٤)، وله خبرة سابقة في أفريقية، إذ إنه أوفد سنة ٨٤هـ / ٧٠٣م من قبل والي مصر عبد العزيز بن مروان إلى برقة، فافتتح مدينة درنة، وسبى بعض أهلها^(٥)، ولما وصل موسى أفريقية وجدها تضطرم بغيران الثورة البربرية، فقام لتوّه ببعض التدابير الداخلية، وسار بنفسه لغزو

(١) البلاذري: فتوح البلاد، ص ٤٣٧.

(٢) خمائش: خلافة بني أمية بالميزان، ص ١٢٥.

(٣) ابن الأثير: الكامل ٣٧٢/٤.

(٤) عاقل: دراسات في تاريخ العصر الأموي، ص ١٦٣.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٣٢٢.

القبائل الثائرة في مناطق الجبال التي تشرف على المحيط في المغرب الأقصى، واستطاع مقاومة هذه القبائل، وأخضع قبائل زناتة وكنانة، وصنهاجة وغيرها، ثم أرسل مولاه طارق بن زياد لفتح طنجة، وكان العرب لم يغزوها من قبل، فافتتحها طارق، وتولاها باسم موسى، وعاد موسى إلى القيروان^(١)، وقد بذل موسى جهوداً كبيرة في نشر الإسلام بين البربر، وكان يترك معهم من يعلمهم القرآن، وشرائع الدين، وقد أدى ذلك إلى اعتناق الكثير من البربر للإسلام واشتراكهم في الجهاد مع الجيوش الإسلامية.

وبعد أن تم للعرب فتح طنجة لم يبق أمامهم سوى ثغر سبتة الواقع في نهاية البحر المتوسط شرقي طنجة، وكانت سبتة تتبع ملوك أسبانيا، ويحكمها أمير يدعى الكونت يولييان^(٢)، ولها موقع طبيعي منيع وقف حائلاً دون العرب، وتحقيق أمانيهم في فتحها.

وبينما كان موسى بن نصير، ومولاه طارق بن زياد يتحرقا إلى فتح إسبانيا، جاءت رسالة إلى طارق بن زياد من يولييان يعرض عليه استسلام سبتة للعرب، ويدعوهم إلى فتح إسبانيا.

وقد حول طارق هذه الرسالة إلى موسى بن نصير الذي كتب بدوره إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك، يعرض عليه الأمر ويستشير فيه، فوافق الخليفة على القيام بالفتح^(٣)، على أن تسبقه عملية استطلاعية يقوم بها العرب أنفسهم لاختيار مدى صدق يولييان ومن أجل تلك الغاية أنفذ موسى حملة بقيادة طريف بن مالك في آخر سنة ٩٠ هـ / ٧٠٩ م قوامها ٤٠٠ رجل و ١٠٠ فرس فصار في أربع سفن، فزل بجزيرة قريبة من الميناء عرفت فيما بعد باسم جزيرة طريف، ثم أغار على الجزيرة الخضراء،

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٣٢٢.

(٢) بدر: دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها ١٠/١.

(٣) ابن الأثير: الكامل ٥٦١/٤، عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٣٠-٣١.

وأصاب غنائم كثيرة وعاد إلى موسى ليخبره بما تم معه^(١)، حينذاك لم يبق لدى موسى شك في إمكانية نجاح الفتح، فعهد إلى مولاه طارق بإتمام هذه المهمة.

وعبر طارق المضيق ٩٢هـ / ٧١٠م بسبعة آلاف مقاتل في سفن قليلة^(٢) أعاراه إياها الكونت يوليان، ونزل على سفح جبل كالي الذي أصبح يعرف فيما بعد بجبل طارق، وانتظر هناك حتى تتمكن السفن القليلة الموضوعة تحت تصرفه من نقل جميع جنده، ولما علم لذريق الذي كان يحارب في الشمال بعض العصابات المعادية له — بزول العرب على أرضه، تخلى عن أعماله ضد أعدائه الداخليين، واتجه نحو الجنوب، وجمع في قرطبة جيشاً عدده على ما تزعم بعض المصادر مئة ألف مقاتل^(٣)، واتجه لمحاربة المسلمين بعدد بالغت المصادر فيه، ولما عرف طارق بضخامة جيش عدوه أرسل إلى موسى يطلب منه النجدة، فأمدّه بخمسة آلاف جندي، كما انضم إليه أعداء رودريك (لذريق) من الأسبان، وجرت بين الطرفين معركة قرب بحيرة خاندا على ضفاف نهر وادي لكّة^(٤)، استمرت ثمانية أيام، انتصر فيها المسلمون نصراً عظيماً، ساعدهم على ذلك شدة حماس البربر والانشقاق في الصف الإسباني، ففتحت بذلك أبواب شبه الجزيرة الإيبيرية أمام المسلمين بعد تحطم قوة جيش القوط لفداحة الخسائر التي لحقت به^(٥)، وكان لذريق بين المفقودين.

(١) ابن الأثير: الكامل ٥٦١/٤.

(٢) عاقل: دراسات في تاريخ العصر الأموي، ص ١٦٦.

(٣) عاقل: دراسات في تاريخ العصر الأموي، ص ١٦٦.

(٤) ابن الأثير: الكامل ٥٦٢/٤-٥٦٣.

(٥) بدر: تاريخ الأندلس وحضارتها، ص ١٧.

وبالمقابل تعاضمت قوة المسلمين لأن الناس من الجانب الآخر من المضيق أقبلوا نحو طارق من كل وجهة، كما أنه غنم الكثير من الخيول التي كانت كافية لإركاب أفراد جيشه، وإعطائه قوة في الحركة.

وبعد موقعة وادي لكه، تابع طارق السير لاستئصال شأفة القوى القوطية المعادية، فسار شمالاً، وحدثت معركة في مدينة استجة، ورغم المقاومة القوطية الشديدة استطاع العرب تحقيق نصر كبير ثان على خصومهم، ووضع للقوط أن لا قبل لهم بالوقوف في وجه هذا الجيش الذي قدم للفتح، لا للغنيمة فحسب، لذا تركوا المناطق السهلية، وتخلوا عن تكتيك المجاهمة المباشرة، واعتصموا بالجبال، والقلاع الحصينة، وأشار يوليان على طارق بالتوجه رأساً إلى العاصمة طليطلة حتى لا يفسح للقوط المجال للنظر في أمرهم، وإيقاع ضربة قاصمة بعاصمتهم قبل أن يشغلوه عن الوصول إليها، وعمل طارق بالنصيحة، وتوجه إلى طليطلة، وأرسل مغيث الرومي مولي الخليفة الوليد إلى قرطبة على رأس سبعمائة فارس استطاعوا فتحها بعد حصار دام ثلاثة أشهر^(١) كما أرسل حملات أخرى إلى غرناطة، والبيرة، ومالقة، استطاعت أن تحقق النصر، وأن تفتح هذه المدن.

وفوجئ قوط طليطلة باقتراب طارق من مدينتهم، فهرب نبلاؤهم، وكبار رجالاتهم منها، ولم تبد طليطلة مقاومة شديدة للمسلمين ودخلوها، وهي شبه خالية. ثم سار طارق إلى وادي الحجارة في الشمال الشرقي، وعاد بعدها إلى طليطلة، حيث جاءته أوامر موسى والي أفريقية بوقف الفتح.

(١) المقرئ: نفح الطيب ٢٤٤/١، ابن عذاري: البيان المغرب ١٤/٢.

فما هو السبب؟

هناك أكثر من تعليل، لكن الرواية الأقرب للواقع هي أن طارق اخترق الأندلس من أقصى الجنوب إلى ما فوق الوسط، اخترق السهم وبقيت جميع البلاد من الجانبين غير خاضعة تتجمع فيها حاميات قوطية، وهذا الأمر يجعل خط الفتح الإسلامي عرضة للانقطاع لذا يجب الثقة بالروايات القائلة بأن موسى أتى إلى الأندلس باستدعاء طارق له، ولمصلحة الفتح على قتلها، ورفض الروايات الأخرى رغم كثرتها.

عبر موسى بن نصير إلى أسبانيا في جيش قوامه عشرة آلاف من العرب، وثمانية آلاف من البربر رمضان ٩٣هـ / ٧١٢م^(١)، ونزل بالجزيرة حيث استقبله الكونت يوليان، وبدأ موسى عملياته العسكرية بالتوجه إلى شذونة التي استولى عليها، كما استولى على قرمونة، ثم ألقى الحصار على إشبيلية حتى استسلمت له، وتابع سيره شمالاً فحاصر ماردة، وخاض معارك عدة مع حاميتها فقد خلالها عدد من جنده، ثم ما لبثت المدينة أن استسلمت له يوم الفطر ٩٤هـ / ٧١٣م.

وكتب إلى طارق يأمره بموافاته، فخرج طارق من طليطلة والتقى بسيدته في موقع قريب من طليطلة، واتفقا على خطة لمتابعة فتح ما تبقى من أرض شبه الجزيرة الإيبيرية التي لم تدخل في طاعة المسلمين.

وسارا إلى طليطلة، وبعد أن وطد موسى مظاهر السيادة الإسلامية على عاصمة القوط، سارا باتجاه الشمال الشرقي، فاحتللاً معاً سرقسطة، ومنها سار موسى إلى الشمال، فاحتل لاردة، ومنها انعطف نحو البحر، فاحتل طركونة، ولم يستطع التوسع

(١) ابن الأثير: الكامل ١٢٣/٤، المقرئ: نفح الطيب ٢٥١/١-٢٥٢.

على الساحل لعودة المولى مغيث من دمشق، وإبلاغه أمر الخليفة بوجوب عودته مسرع طارق^(١)، ليقدم للخليفة الحساب عن نتائج حملتهما.

ويبدو أن موسى تمهل في تنفيذ أمر الخليفة حتى يستكمل فتح المنطقة الشمالية الغربية من شبه الجزيرة التي كانت مركزاً من أهم مراكز المقاومة القوطية، فاخترقها، واستولى على معظم معقلها، ولم يبق منها إلا فلول قليلة كان يهتم بالقضاء عليها، حين كرر الخليفة طلبه إليه، وأمره أن يتعجل بالعودة.

فما هو سبب هذا الإلحاح؟

ربما نحى للخليفة أخبار خلاف وقع بين موسى وطارق فحاف أن ينتهي الخلاف إلى تفرق المسلمين في هذا القطر البعيد^(٢).

أو لعله — الخليفة — تخوف من أن تقوم في نفس موسى نوازع انفصالية تؤدي إلى انسلاخ هذا الجزء عن جسد الدولة.

المهم نتيجة إلحاح الخليفة، رافق طارق مولاه موسى في العودة إلى دمشق عن طريق شمال أفريقيا، تاركاً ابنه عبد العزيز أميراً على الأندلس، ومقر إقامته في اشبيلية، وجعل ابنه عبد الملك أميراً على المغرب، وابنه الثالث عبد الله أميراً على أفريقيا، ووصل المشرق وفي حاشيته عدد كبير من الأسرى والسبايا، وكميات كبيرة من الغنائم الثمينة، وحل دمشق قبل موت الوليد بأربعين يوماً، وقيل أنه وصل دمشق، وقد توفي الوليد^(٣). واختلفت المصادر في مصير موسى ولقائه بالخليفة.

(١) عاقل: دراسات في تاريخ العصر الأموي، ص ١٧٠.

(٢) عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ص ٥٢.

(٣) ابن الأثير: الكامل ١٢٤/٤.

٤- خلافة سليمان بن عبد الملك ٩٦-٩٩هـ / ٧١٥-٧١٧م:

بويع سليمان بالخلافة بعد وفاة أخيه الوليد بن عبد الملك وذلك تنفيذاً لوصية أبيهما عبد الملك بن مروان^(١)، وكان قد عزم الوليد على تولية ابنه عبد العزيز، ووافقه على ذلك الحجاج، وقتيبة، ومحمد بن القاسم وربما هم من أشار عليه بذلك، لذا عندما تسلم سليمان الحكم أراد بإزالة النقمة بهم، وأيضاً موسى بن نصير الذي طالبه بغنائم الأندلس^(٢). إلا أن الحجاج كان قد توفي في نهاية خلافة الوليد، فانصب غضب سليمان على أصحابه، وأما قتيبة بن مسلم الباهلي عامل خراسان، وصاحب الفتوح العظيمة في المشرق فقد أراد استباق ما قد ينتظره من شر على يد الخليفة الجديد، لذلك دعا جنده إلى الخروج عليه، فوافقه بعضهم، وخالفه البعض الآخر، كما تحالفه بنو تميم، وانتهى أمره بتأمر جماعته عليه، وقتلهم إياه سنة ٩٦هـ / ٧١٥م، وأرسلوا رأسه إلى الخليفة بدمشق^(٣)، كذلك انتهت حياة محمد بن القاسم الثقفي فاتح الهند العظيم نهايةً ماثلة، إذ أحضر إلى واسط حيث سجن وقتل على يد صالح بن عبد الرحمن الذي كان يتولى خراج العراق لسليمان بن عبد الملك^(٤).

وأما موسى بن نصير فقد لاقى أشنع مصير على يد سليمان إذ مات فقيراً مهاناً بعد قدومه إلى دمشق في أول خلافة سليمان، وكذلك ابنه عبد العزيز الذي مات مقتولاً بإيعاز من الخليفة. وهنا تجدر الإشارة إلى أن الصراع السياسي يقوم على المصالح بالدرجة الأولى وهذا ما عبّر عنه مرة الخليفة عبد الملك بن مروان بقوله «إن الملك عقيم».

(١) خماس: خلافة بني أمية في الميزان، ص ١١٩-١٢٠.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان، ٤٢٥.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٤٢٧.

(٤)

- أعمال يزيد بن المهلب في العراق:

احتل يزيد بن المهلب زمن سليمان المكان الذي كان للحجاج زمن الوليد في إدارة شؤون العراق، وسر العراقيون بخلاصهم من الحجاج، ووفاة مؤيده الوليد، وظنوا أنهم سيكونون أحسن حالاً في ظل من سيخلفوهما، ولكنهم ما لبثوا أن اكتشفوا أن اختلاف الرجال، لا يعني بالضرورة تغير الحال إلى أحسن، فقد اضطهد يزيد آل الحجاج وعذّبهم، وسار على نهج الحجاج وخطته في إدارة البلاد^(١)، وقد أقام بواسط، وأبقى جنداً من الشام في العراق، ورأى أن طريقة الحجاج في جباية الأموال هي من الأشياء التي جعلت العراقيين يكرهونه، لذلك طلب من سليمان إعفائه من جمعها، وأن يعهد إلى غيره بهذه المهمة، فتم له ما أراد وعهد الخليفة إلى رجل كان يعمل في ديوان الخراج عند الحجاج وهو صالح بن عبد الرحمن بأمر جباية الخراج^(٢)، وقامت بينه وبين يزيد بعض المشاكل بسبب طلبات يزيد المالية التي رفض صالح أن يقبل بها، أو أن يسمح بتنفيذها، ووقف في وجه يزيد الذي كان يريد أن ينفق المال كيفما شاء، ودونما رقيب ولكن لم تكن ليزيد السمعة الحسنة التي كان يتمتع بها قتيبة ولم يكن يستطيع جمع الناس حوله، وكسب احترامهم، كما كانت حال سلفه^(٣)، وغزا في أثناء إقامته هذه جرجان، وطبرستان^(٤) وكتب إلى سليمان يذكره الغنائم الكثيرة التي حصل عليها، ويبالغ في الوصف، فأساء إلى نفسه دون أن يعرف، لأن هذه المبالغة والمغالطة في ذكر

(١) عاقل: دراسات في تاريخ العصر الأموي، ص ١٩٥.

(٢) عاقل: دراسات في تاريخ العصر الأموي، ص ١٩٥.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٥٣٦/٦.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٥٣٦/٦.

الأرقام عرضته إلى حساب عسير مع عمر بن عبد العزيز الذي سيتولى منصب الخلافة بعد سليمان^(١).

- المنجزات العسكرية زمن سليمان:

كان الميدان العسكري جزءاً من سياسة الخلفاء الأمويين عامة، وهو توسيع رقعة الإمبراطورية، ومحالدة الروم البيزنطيين ومحاولة الاستيلاء على عاصمتهم بقصد إسقاط حكمهم، ونشر الإسلام في الربوع التي يسيطرون عليها.

وقد أراد سليمان أن يكون له شرف تحقيق ما لم يتم لأخيه تحقيقه، فقام عام ٩٧هـ / ٧١٦م بالاستمرار في إعداد الجيوش التي تغزو القسطنطينية، وسير حملتين بريتين ضد البر البيزنطي إحداهما بقيادة ابنه داوود بن سليمان، والأخرى بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك، كما أرسل حملة بحرية بقيادة عمر بن هبيرة الفزاري^(٢)، وكانت أهداف هذه الحملات الاستمرار في إشغال العدو براً وبحراً استعداداً للحملة الكبرى، وقد ساهمت أغلب أقطار الخلافة الإسلامية في هيئة الحملة المرتقبة بما تحتاجه من عدة وعتاد.

ويبدو أن أخبار هذا النشاط الإسلامي، قد وصلت للإمبراطور البيزنطي أناستازيوس الثاني، فأراد عرققتها، ولكن محاولته فشلت^(٣)، وقامت جيوش مقاطعة أوبزيكيون التي كانت متجهة إلى رودس التي اختارها أناستازيوس مركزاً لتجمع قواته بإعلان العصيان وخلعت الإمبراطور، وأعلنت جانياً للضرائب في أوبزيكيون باسم تيودوسيون إمبراطوراً^(٤).

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٥٥٣/٦.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٥٢٣/٦.

(٣) عاقل: الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٤٠.

(٤) عاقل: الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٤٠.

فتحولت الاستعدادات الحربية لصد الهجوم العربي إلى حرب أهلية دامت ستة أشهر، وانتهت بعد صراع دام بأن ارتقى عرش بيزنطة الإمبراطور ليون الثالث الذي سيجري حصار القسطنطينية زمنه^(١).

ويبدو أن سليمان قد عرف بهذه الاضطرابات الداخلية في بيزنطة، ورأى أن الحال ملائمة كبداية الغزو المرتقب، فأعد في دابق شمال بلاد الشام معسكراً كبيراً ليكون مقراً لإدارة العمليات العسكرية ضد القسطنطينية، وسار بنفسه سنة ٩٨هـ / ٧١٦م إلى دابق^(٢).

وكان على رأس الجيش المتجه لحصار القسطنطينية مسلمة بن عبد الملك، فأقام مع جيشه في أرض الروم، وبنى بيوتاً من خشب، وأمضى شتاء عام ٩٩هـ / ٧١٧م، وصيفه يستطلع الموقع، ويقوم بالغارات، وكان قد أمر جنده ألا يستعملوا ما معهم من مؤن، وأن يزرعوا الأرض التي حولهم، فكان المقاتلة يأكلون مما أصابوا من الغارات، ثم أكلوا الزرع^(٣).

ويبدو من ذلك أن في نيته الاستيطان في هذه المناطق، خاصة وأن مسلمة عندما كان يقوم بهذه العمليات التمهيدية، كان الصراع على العرش البيزنطي على أشده، فاستغل ذلك، واتصل بليون، وعقد معه صفقة تساعد في تحقيق الهدف، إلا أن ليون الثالث خادعهم^(٤)، فما كاد يصل للعرش حتى كانت الجيوش الإسلامية تحت الخطا باتجاه القسطنطينية فأسرع بتنظيم المدينة ضد الهجوم العربي المرتقب، وقضى العرب هذه الفترة في تدعيم خطوط مواصلاتهم، وتأمين مؤخرتهم واستولى مسلمة على مدينة

(١) العدوي: الأمويون والبيزنطيون، ص ٢١٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٢٧/٥.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٥٣٠/٦.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٥٣١/٦، ابن الأثير: الكامل ٢٧/٥-٢٨.

برغام، ثم عبر الدردنيل، وعسكر أمام أسوار القسطنطينية ٩٩هـ / ٧١٧م^(١)، وبعد أسبوعين دخل مياه البوسفور أسطول إسلامي كبير^(٢)، فنظم مسلمة التعاون بين الجيشين البري والبحري، واحتل الأسطول الإسلامي مدخل البوسفور الجنوبي لقطع الاتصال بين المدينة، وبحر مرمرة، وبحر إيجه، واستعان ليون الثالث لصعد الهجوم العربي بقبائل البلغار، وقد كان الحصار قاسياً، وشديداً أبدى فيه العرب المسلمون ضروب الشجاعة، وحب الاستشهاد ما جعلهم مضرب الأمثال^(٣). وتوفي الخليفة سليمان في هذه الفترة واستلم الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي طلب من مسلمة العودة فعاد بعد حصار دام عاماً كاملاً، وبدا وكأن المشروع العربي في فتح القسطنطينية قد فشل.

أما في المشرق فقد كانت محاولات سليمان أفضل حظاً وأكثر عطاءً، وقد كان يزيد بن المهلب بطل العمليات في المشرق لذا بعد وصوله والياً على خراسان بثلاثة، أو أربعة أشهر سار بجيش قوامه مائة ألف مقاتل من أهل الكوفة، والبصرة والشام، ووجه أهل خراسان، والري، ومعهم مماليكهم، ومواليهم، وبعض المتطوعة حتى نزل دهستان^(٤)، وحاصر قهستان فقتل عدداً كبيراً من أهلها^(٥) ثم أجبرهم على الصلح، وما أن تم له ذلك حتى ثار أهل جرجان ثانية ونقضوا الصلح الذي كان بينهم وبين المسلمين، فعاد يزيد إليهم وفتح المدينة ثانية^(٦)، وبعد انتهائه من عملياته العسكرية بنى مدينة جرجان^(٧).

(١) عاقل: الإميراطورية البيزنطية، ص ١٤٣.

(٢) عاقل: الإميراطورية البيزنطية، ص ١٤٣.

(٣) العدوي: الأمويون والبيزنطيون، ص ٢٢٢.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٥٣٢/٦.

(٥) ابن الأثير: الكامل ٢٩/٥.

(٦) عاقل: دراسات في تاريخ العصر الأموي، ٢٠٤.

(٧) ابن الأثير: الكامل ٣٤/٥.

ثم أخضع طبرستان، وأجبر حاكمها الأصبهذ على الصلح ودفع جزية مقدارها أربعة ملايين درهم، وشرط عليه شروطاً أخرى^(١).

والمفيد ذكره أن ولاء أهل طبرستان للدولة العربية الإسلامية كان يتذبذب بين خضوع وتمرّد حتى زمن مروان بن محمد حين غدروا، ونقضوا ما كان بينهم، وبين العرب من عهود.

٥- خلافة عمر بن عبد العزيز ٩٩-١٠١هـ / ٧١٧-٧٢٠م:

سياسته الداخلية والخارجية:

اتصفت خلافة عمر بالسلم والإصلاح، والاستقرار، وقد استعمل الهبات والمال من أجل نصر الإسلام، فأرسل الفقهاء والقراء إلى بلاد المغرب ليعلموا أهل البلاد أصول الدين وأرسل الكتب إلى الملوك ليدخلوا في الإسلام، فاستجاب له أكثر هؤلاء^(٢).

وأمر الخليفة بعودة الجيوش الإسلامية المحاصرة للقسطنطينية كما سلف ذكره، ولكن في أثناء حكمه توغل الوالي ابن مالك في فرنسا، وأعاد احتلال أربونة، وطالب يزيد بن المهلب بخمس الأموال التي جباها فعجز عن أدائها، وعمل على إرضاء الخوارج والشيعة، داعياً إلى الحوار، وطرح الحجج، والبراهين لما يقولونه، وعندما أعلن بسطام اليشكري خروجه على الخليفة أرسل إليه كتاباً يطلب مناظرته^(٣)، ولكنه لم يستطع أن يرد على قضية ولاية العهد من بعده ليزيد بن عبد الملك فطلب مهلة مات خلالها.

والجدير بالذكر أن عمر بن عبد العزيز، عزل أغلب الولاة الذين كانوا يشرفون على إدارة الأقاليم في عهد سلفه، وعين مكانهم من كان يعتمد عليهم من الرجال، ممن اتصف بالصلاح، ورغم ذلك كان يراقبهم مراقبة دقيقة، ويطالبهم بإحقاق الحق،

(١) ابن الأثير: الكامل ٣٤/٥.

(٢) المطيري: تاريخ الرسل والملوك ٥٥٣/٦.

(٣) قدورة: تطور تاريخ العرب، ٢٠٩.

ونصرة المظلوم وإقامة الحدود، وكانت الدولة في رأيه لا تصلح إلا بأركانها الأربعة،
الوالي والقاضي وصاحب المال، والخليفة^(١).

سياسته المالية:

اتبع عمر بن عبد العزيز في سياسته المالية الشرع الإسلامي اتباعاً حقيقياً — خلافاً
لما سلكه الحجاج — فالقاعدة الأصلية كانت تقتضي بأن كل معتنق للإسلام مهما
يكن عنصره لا يدفع الجزية عن شخصه، ولا الخراج عن أرضه، وما يدفعه إنما هو
زكاة أمواله، وإذا انتقلت ملكية أرض من ذمي إلى مسلم، أو أسلم صاحبها وهو عليها
تطبق عليه القاعدة نفسها، وقد تمسك بهذه القاعدة ولكي يحفظ لبيت المال وارداته منع
بيع الذميين أراضيهم للمسلمين بعد سنة ١٠٠ هـ/٧١٩ م^(٢) حتى لا تتحول من أراضي
خراجية إلى أراضي عشرية، فيقل إيراد بيت المال، كما أنه ناقض تصرف الحجاج بن
يوسف، فأسقط الجزية عن الموالي^(٣)، وقد كان لسياسته هذه أثر عظيم في نشر
الإسلام، إذ أقبل الكفار على الدخول في الإسلام إقبالاً ليس له نظير من قبل.

وقد عمل على إعطاء الحقوق لأصحابها، ورد المظالم إلى أهلها وأمر بني أمية بأن
يردوا ما يملكون من أموال آلت إليهم بغير وجه شرعي إلى أصحابها، أو إلى بيت المال،
الأمر الذي أهاجهم، لكنه لم يتراجع، وأشعرهم بأنه لن يتهاون في تنفيذ أوامره، ولن
يتردد في إنزال العقاب الشديد بمن يخالفه، وقد قرن عزمه بالحزم عندما حاول أحدهم
مخالفة أمره فهدده بضرب عنقه، وطبق هذا الإجراء على نفسه، إذ رد إلى بيت المال ما
لم ير مسوغاً لامتلاكه، وكان من ذلك أراضي وأملاك في خيبر وغيرها آلت إليه وراثه

(١) عاقل: دراسات في تاريخ العصر الأموي، ص ٢٠٨.

(٢) ابن آدم: الخراج، ص ٤ وما بعد.

(٣) ديبية: الجزية والإسلام، ص ٢٩-٣١.

من أجداده، وكانوا قد حصلوا عليها دون حق شرعي، كما قطع عطاء كان يعطى لعمته، وبعث إلى عماله بأن يحذو حذوه، فنفذوا أوامره.

وأما قوائم العطاء، فإنه حرص على جعلها تعطى لكل ذي حق حقه بعد أن كان أسلافه من الخلفاء والولاة قد تلاعبوا فيها، فأنقصوا بعض الأسماء، وأضافوا أخرى دون مسوغ شرعي، ولم يحصر العطاء في العرب، إنما وسع الدائرة، إذ عامل الموالي الذين كانوا يحاربون مع العرب وغيرها على قدم المساواة معهم^(١)، كما أمر أن يشمل العطاء عيال المقاتلة وذرايعهم، وكل مولود لهم^(٢)، مثلما كان الأمر في عهد جده عمر بن الخطاب، ذلك الذي أنقصه معاوية بن أبي سفيان، وألغاه عبد الملك بن مروان، أضف إلى ذلك أنه أعطى الفقراء، والمرضى والعجزة وأمر بوفاء ديون الغارمين.

٦- خلافة يزيد بن عبد الملك (يزيد الثاني) ٩٦-٩٩هـ / ٧١٥-٧١٧م:

ولي يزيد بن عبد الملك الخلافة بعهد من سليمان بن عبد الملك الذي أوصى أن تكون له الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز^(٣)، وكان حين ولي الخلافة في التاسعة والعشرين من عمره^(٤)، وهو مرواني من جهة أبيه، وسفياني من جهة أمه عاتكة بنت يزيد الأول وكان يفتخر بذلك مدعياً أنه أفضل بني مروان.

وقد نعته الكثير من المؤرخين بالفسق والجحون والكسل والاستهتار، والانصراف إلى اللهو، وأنه كان مولعاً بمجارياتين من جواريه حباة وسلامة اللتين غدا لهما أوسع النفوذ

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٥٦٩/٦.

(٢) عاقل: دراسات في تاريخ العصر الأموي، ص ٢٤٥.

(٣) عاقل: دراسات في تاريخ العصر الأموي، ٢٤٩.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٥٧٤/٦.

في كل الأمور، حتى إن حيازة كانت تولي وتعزل العمال بغير إذنه^(١)، وفي هذا مبالغة واضحة، لا تستقيم مع النقد السليم للأخبار والروايات^(٢).

وقد عادت في عهده الأمور العامة إلى ما كانت عليه قبل خلافة عمر بن عبد العزيز، إذ تحالف سياسة سلفه، فنقض ما لم يعجبه من أعمال، وعزل ولاته في الحجاز وأفريقيا، وأعاد الأمور المالية إلى ما كانت عليه قبل عهد عمر بن عبد العزيز.

وفي عهده ثار الخوارج بقيادة شوذب الخارجي، ولكن بعد معارك طاحنة قضى على شوذب ١٠١هـ / ٧٢٠م^(٣).

ولعل أهم الأحداث التي زعزعت كيان الدولة في تلك الفترة وكان لها أثر عميق في تقرير مصيره تلك الثورة التي قام بها يزيد بن المهلب الزعيم اليميني البارز، والتي أثارت كوامن الحقد الدفينة بين القيسية واليمينية، وأذكت ضرام العصبية القبلية التي عادت إلى الظهور بعنف، أدى إلى تصدع أركان الحكم الأموي، وكان سبب حدوثها رغبة الخليفة يزيد في الانتقام من أعداء الحجاج، وفي مقدمتهم يزيد بن المهلب الذي كان لصلة المصاهرة التي كانت تربط هذه الخليفة بأسرة الحجاج أثرها في إساءة العلاقات بينه وبين آل المهلب، لأن ابن المهلب حين ولي العراق زمن سليمان بن عبد الملك عذب آل الحجاج فعاهد يزيد بن عبد الملك، لكن مكنه الله من يزيد ليقطعن منه طابقاً^(٤)، وقبل أن تؤول الخلافة ليزيد بن عبد الملك كان يزيد بن المهلب مسجوناً فهرب، وقصد البصرة موطن أسرته من المهالبة ومستقر قبيلة أزد عمان، وهاجم السجن، وأخرج أخوته منه بعد أن كان عاملها قد زجهم فيه، فانضمت إليه عشيرته

(١) الأصبهاني: الأغاني ٣٣٤/٧، ١٥، ص ١٢٢.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٥٧٥/٦ - ٥٧٨.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٦٧٦/٦ - ٦٧٨.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٥٦٤/٦.

من أزدعمان وحلفاؤها من ربيعة ورهط من الخوارج والمرجئة، وبعض بني ثميم، وعادت القبائل العربية سيرتها الأولى من الصراع، والعصية القبلية، وقد اغتنم الموالي خاصة، والعراقيون عامة هذه الفرصة ليشهدوا سيوفهم في وجه الدولة الأموية وكانت لكل فئة حوافزها الخاصة، فالموالي يريدون أن يصلوا إلى حقوقهم الاجتماعية، كما نص عليها الشرع الإسلامي، والعراقيون يريدون أن يتحقق استقلالهم عن الشام، وأن تكون منطقتهم قلب العالم الإسلامي، وحاضرتهم، لكن العراقيون في هذه المرة اتجهوا إلى السلمية، فلم يجردوا سيوفهم بل أحجموا عن مساعدة عامل الخليفة على البصرة عدي ابن أرطاة، وتركوه يقاتل بقواه المحدودة، وكان عدد جنده قليلاً، فهزم أمام يزيد في البداية، غير أن الجيش الشامي الذي كان قد سيره الخليفة بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك إلى العراق لم يلبث أن تغلب على الثورة، وقتل مسلمة يزيد بن المهلب مع اثنين من إخوته ثم لاحق آل المهلب، ورؤساء الأزد اليمينيين فقتل رجالهم وصادر أموالهم، واسترق نساءهم، وأطفالهم^(١).

لقد أسفرت هذه الثورة، وما تبعها من قمع شديد عن نتائج خطيرة، إذ نفرت آل المهلب، وأزدعمان من الأمويين فصاروا حرباً على دولتهم، وقفت القبائل اليمنية إلى جانبهم — بعد أن كانت سنداً لها — وازداد الصراع حدة بين اليمنية والقيسية لا سيما، وأن الخليفة الذي أسفر عن ميوله القيسية قد عين على العراق والياً مغرقاً في قيسيته هو عمر بن هبيرة الذي لم يكن من الدهاء في شيء، فراح ينكل بخصومه مغالياً في تعصبه القبلي ضد اليمنية.

وفي نهاية الحديث عن خلافة يزيد، لابد من القول أن عهده لم يتميز بأعمال عسكرية كبيرة في الخارج، فما عدا بعض المعارك — التي قادها سعيد الحرشي والي

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٦/٦٠١ وما بعد.

خراسان في منطقة سمرقند والمواقع التي جرت بين الجيش الإسلامي وعناصر الخزر في أرمينية التي انتهت بهزيمة الجيش الإسلامي أول الأمر، مما دعا الخليفة إلى استعمال الجراح بن عبد الله الحكمي على أرمينية^(١)، وإمداده بجيش كبير، الأمر الذي ساعد الجراح على تحقيق بعض الفتوح في تلك البلاد النائية، لا نسمع عن عمليات عسكرية على الجبهة البيزنطية، أو غيرها من الجبهات، ويبدو أن فترة حكمه القصيرة وأحداث العراق الدامية شغلته عما عداها، فلم يتح له أن يقوم بإنجازات كبيرة في الداخل أو الخارج، فانتهت حياته بعد أن عهد بالخلافة من بعده إلى أخيه هشام بن عبد الملك.

٧- خلافة هشام بن عبد الملك ١٠٥-١٢٥هـ / ٧٢٤-٧٤٣م:

كان هشام رجل دولة على عكس أخيه يزيد، وكان بعيد النظر، يعرف كيف يسوس الأمور، طيب السيرة، جريئاً في تنفيذ مشروعاته، متدين، يُعرض عن كل ما هو دنيوي^(٢)، عادل يحسن معاملة رعاياه، نزّه نفسه عن الحزبية، أو العصبية، وسعى ما وسعه الجهد لأن يقيم التوازن بين الفرقاء المختلفين في دولته وقد نجح في هذا بعض النجاح، ولكنه لم يستطع أن يلغي العصبية نهائياً لأنها كانت متأصلة في نفوس الناس. وقد حاول جاهداً القضاء على الفساد الذي كان موجوداً قبله، ولقد خصص العطاء للمقاتلة فقط، وراقب ميزانية الدولة العامة، وأحسن تدبيرها، وضغط نفقاتها حتى أتم بالبخل، والتغيير وقد أساء البعض فهم هذه الناحية فاتهموه بتكديس الأموال في خزائنه الخاصة، وفي الثراء على حساب الدولة، وإذا لم يجيء إنصاف هشام من المؤرخين العرب المسلمين، فقد جاء إنصافه من المؤرخ ثيوفانس إذ ينقل فلهاوزن نصاً عن ثيوفانس، يتحدث فيه هذا المؤرخ عن هشام إذ يقول: (أنه في عهده شرع في بناء

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٥٨٦/٦.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٢٠١/٧ وما بعد.

الدور وإنشاء الضياع في المدن والقرى وفي عمل البساتين البديعة، وفي تخفيف الأراضي^(١).

وحتى في هذا الميدان، ميدان الخدمات العامة التي قام بها هشام من أجل الصالح العام اهتم بأنه إنما فعل ذلك جرياً وراء مصلحته الخاصة وربما جاء هذا الاقمام لأن هشام كان من كبار ملاك الأرض، ومن أكبر المنتجين للغلال، والمواد الزراعية، وكان لا ينافسه في هذا الميدان إلا واليه خالد القسري.

وقد تمتع جهازه الإداري بدرجة عالية من الدقة والانتظام وحسن سير العمل، لذا فقد افتتح حكمه بعزل واليه على العراق عمر بن هبيرة الذي كان قد أثار اليمانيين على الأمويين بسياسته القيسية المتعصبة، واختار رجلاً لا عصبية له هو خالد بن عبد الله القسري^(٢).

ولكن ما لبثت العصبية القبلية أن أطلت برأسها إذ إن عداوة مضر له دفعته دفعاً إلى محاذاة البمانيين، وأخذ جانبهم فانساق خالد في تيار اليمانيين بعض الشيء، يضاف إلى ذلك عداوة المتزمتين من المسلمين إذ إن لخالد نقطة ضعف استغلها خصومه ذلك أن والدته كانت نصرانية، فبنى لها في الكوفة كنيسة قبالة المسجد الجامع، وسمح للنصارى أن يبنوا كنائس جديدة، وأظهر تسامحاً مع اليهود أيضاً، واستعمل أشخاصاً ذميين ومجوس في أعمال الخراج، وبعض الأعمال الإدارية^(٣)، الأمر الذي أثار من حوله الأقاويل، حتى إن أعماله الخيرية، كحفر الترع، والاهتمام بالزراعة، وكري الأثمار

(١) فلهاوزن: الدولة العربية وسقوطها، ٣٢٠ وما بعد.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٢٦/٧.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ١٣١/٧.

فسرت لمصالحه الخاصة، لزيادة ثروته، وكى بنافس الخليفة هشام بن عبد الملك. لذا
كثر الساخطون عليه، فاقم ببعثة أموال بيت المال لمآربه، وأغراضه الخاصة^(١).

ومع كل هذه الاتهامات، تدمر الناس الشديد منه، والنقد اللاذع الذي تعرض له
كوال، لبث في إمرته خمسة عشر عاماً، ولكن في النهاية لم يستطع الخليفة أن يصم
أذانه عن صرخات المتذمرين التي تعالت، وبلغت حداً لا يمكن التغاضي عنه، فاضطر
لأن يستمع إليها، ويعزل خالد، ويعين مكانه يوسف بن عمر الثقفي، وهو قيسي من
أقرباء الحجاج^(٢).

وقبض على خالد وأودع في سجن الكوفة مع أخيه إسماعيل وابنه يزيد وابن أخيه
المنذر بن أسد، ولم يناصره أحد من اليمينين، وحتى أطلق سراحه بعد ثمانية عشر شهراً،
فتوجه إلى قرية قرب الرصافا محاولاً دون جدوى خلال سنتين مقابلة الخليفة، فغادرها
متوجهاً إلى دمشق.

وفي دمشق دبر صاحب الشرطة كلثوم بن عياض القسري — وهو ابن عم له —
قمة الصقها بخالد بأنه وزمرته يشعلون كل ليلة الحرائق في دور دمشق بقصد الوثوب
على بيت المال، وذلك في فترة كانت فيها الدولة مشغولة بحرب لها مع الروم، وصديق
هشام التهمة لأن منشأها قريب له، ولا يمكن لابن عم أن يتحمل على ابن عمه زوراً^(٣).
ووقع خالد ضحية ظلم شديد فحبس هو وزمرته ومواليه كباراً وصغاراً، رجالاً
ونساءً، ثم تبين بعد ذلك لهشام أن هذه الحرائق كانت من فعل رجل عراقي له جماعة
تضرم النار في البيوت حتى إذا وقعت الفوضى بنتيجة الحرائق أغاروا على البيوت
ونهبوها.

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ١٤٧/٧ وما بعد.

(٢) عاقل: دراسات في تاريخ العصر الأموي، ص ٢٦٣.

(٣) عاقل: دراسات في تاريخ العصر الأموي، ص ٢٦٤.

فعنف هشام كلثوم، وأمره بإخلاء سبيل خالد، وجميع آله، وأذن له أن يقيم في دمشق آمناً مطمئناً غير هباب لأي دسياسة توقع ضده^(١).

— فتنة زيد بن علي:

كان عهد خالد في العراق عهد هدوء وطمأنينة، ولكن ما لبث الحال أن تغير بعده، وبدأت الفتن والثورات تتوالى، وكان أهمها فتنة زيد بن علي بن الحسين بن علي ابن أبي طالب، وكان من أسبابها ادعاء يوسف بن عمر والي هشام على العراق أن خالد القسري، أودع ستمائة ألف درهم عند زيد بن علي، وأن زيدا ينكر ذلك، فاستدعى هشام زيد، وطلب منه الذهب بنفسه إلى يوسف ومناقشته بالتهمة فأبدى زيد تخوفاً من مقابلة يوسف، فأصر الخليفة عليه، وزوده بكتاب ليوسف يطلب منه التحقق من ذلك، فإن لم يثبت عليه شيء فليخل سبيله^(٢)، ولكن يوسف، ورغم عدم إثبات التهمة سجنه وعذبه، فلما علم هشام بالخبر، أمره بإخلاء سبيله، والسماح له بترك الكوفة، والسفر إلى المدينة، وأراد زيد ترك الكوفة ولكن شيعتها ألحوا عليه بضرورة البقاء، فبقي في الكوفة متحسباً لأي مباغطة قد تقع به، فكان لا يبيت في نفس الدار ليلتين متواليتين حتى لا تعلم السلطات بمقره، فتأخذه على حين غرة^(٣).

وظل زيد على هذه الحال مدة عشرة أشهر، ينتهي للثورة، ويأخذ البيعة من الكوفة، ويمد رقعة دعوته إلى الموصل والبصرة، والمناطق المجاورة حتى تجمع لديه خمسة عشر ألفاً من الجند المقاتلين في الكوفة يضاف إليهم أهل المدائن، وواسط، والبصرة، والموصل^(٤).

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٢٥٤/٧ وما بعد.

(٢) البعقوبي: تاريخ ٣٢٥/٢.

(٣) العنبري: تاريخ الرسل والملوك ١٧٢/٧.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ١٧٢/٧.

وتسربت الأنباء إلى يوسف عما يديره زيد، وقبل موعد الثورة، دعا يوسف أهل الكوفة للاجتماع به في مسجد المدينة ولما تكاملت عدتهم أغلق عليهم أبواب المسجد، وحاصروهم فيه ووضع عليهم حراساً من الجنود الشوام.

فأراد زيد أن يخلص الكوفيين من الحصار الذي فرض عليهم في المسجد، فلم يستطع، فأصيب بسهم في جبهته اليسرى، توفي بعدها، ووقعت جثته بيد الشوام، فصلبوه في الكوفة بعد أن قطعوا رأسه، وأرسلوه إلى الخليفة هشام بن عبد الملك الذي أمر بنصب رأسه على باب مدينة دمشق، وبعد فترة من الزمن أرسل إلى المدينة حيث ظل معلقاً حتى مات هشام^(١).

وأما يحيى بن زيد الذي كان غلاماً صغيراً فقد استطاع الهرب إلى خراسان حيث أقام متخفياً عدة سنوات^(٢)، ولما كشف أمره تنقل من مكان لآخر حتى قبض عليه، وقتل في خلافة الوليد بن يزيد (الوليد الثاني).

- حروب هشام:

خاضت الدولة في زمن هشام معارك مختلفة في جهات متعددة حيث استأنف الدولة منذ مطلع حكمه، عملياتها العسكرية ضد الروم، ولأجل ذلك بنى هشام الحصون، والمسلم في مواجهة الروم^(٣) وقام بغزوات كبيرة في كل صيف، ولمع فيها اسم عربي اشتهر جداً عند العرب والروم، ونسجت حوله الأساطير هو عبد الله البطال، ومن بينها أنه أسر الإمبراطور قسطنطين^(٤).

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ١٨٠/٧، الأصبهاني: مقاتل الطالبين، ص ١٤٠.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ١٨٩/٧.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٢٠٧/٧.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٩٠/٧.

لكن هذه الحروب العربية الرومية زمن هشام لم تتمخض عن نتيجة حاسمة لأي من الطرفين، فقد بذل العرب مجهوداً كبيراً فيها، وتوصلوا لتحقيق بعض الفتوحات التي تجري في شهور الصيف، فإذا جاء فصل الشتاء تخلوا عما فتحوه، وغادروا هذه المواقع ليهاجموها من جديد في صيف قادم.

كما أن الروم استطاعوا أن يحققوا بعض الانتصارات على الجيش الإسلامي في موقعة أكرونيون قرب عمورية من أعمال مقاطعة فريجييا، وذلك زمن الإمبراطور ليون الثالث، وهذه الموقعة هي الموقعة التي سقط فيها البطل العربي عبد الله البطال قتيلاً، وقد شجع هذا النصر الروم في العام التالي للقيام بهجوم على بعض المواقع العربية، ولكنهم ما لبثوا أن ارتدوا خاسرين، إذ إن الخليفة هشام قاد بنفسه الجيش العربي في هذا الهجوم الجديد، واستطاع أن يحقق النصر على أعدائه^(١).

وخاض العرب في الشمال الشرقي من الدولة الإسلامية حروباً ضد الترك الذين يعيشون وراء بحر الخزر، وكانت المعارك سجالاً، وقائدها مسلمة بن عبد الملك، ومروان بن محمد^(٢).

وفي خراسان ثار الحارث بن سريج لأن الخليفة فرض ضريبة خراجية على الموالي، ولكن أسد بن عبد الله القسري حاربه، واسترد خراسان منه، فانسحب إلى طخارستان، وتحالف مع الأتراك ولكن حكم نصر بن سيار لخراسان أحمد نار الثورات في بلاد ما وراء النهر^(٣).

(١) عاقل: دراسات في تاريخ العصر الأموي، ص ٢٧٢.

(٢) عاقل: دراسات في تاريخ العصر الأموي، ص ٢٧٢.

(٣) قدورة: تطور تاريخ العرب، ص ٢١١.

وفي أفريقيا اندلعت ثورة الخوارج الصفرية الذين تحالفوا مع البربر، وهاجموا القيروان، وتمكن حنظلة بن صفوان من إخماد الثورة، ودخول القيروان، وسبب تلك الثورة عدم المساواة بين العرب والبربر الذين أكرهوا على دفع الجزية^(١).

واستمرت الفتوح في الأندلس حيث قام العرب بأعمال عسكرية كثيرة، وتقدموا نحو أوروبا بفتح بلاد الفرنجة، ودارت معركة بلاط الشهداء بين عبد الرحمن الغافقي وشارل مارتل ١١٤هـ / ٧٣٢م انتصر فيها الفرنجة، واستشهد عبد الرحمن الغافقي، وكان من نتائجها إيقاف الزحف العربي الإسلامي على أوروبا الغربية^(٢).

وانتقل هشام إلى جوار ربه في الرصافة يوم الأربعاء السادس من شهر ربيع الآخر ١٢٥هـ / ٧٤٣م، ولم يكن حين توفي قد تقدمت به السن كثيراً، فكان كما يزعم المؤرخون في أواسط العقد السادس من عمره^(٣)، ليخلفه الوليد الثاني.

٧- الوليد الثاني بن يزيد الثاني ١٢٥-١٢٦هـ / ٧٤٣-٧٤٤م:

كان الوليد الثاني ولياً للعهد حسب ما نصت وصية يزيد بن عبد الملك التي عهد فيها بالخلافة إلى أخيه هشام، وأن يكون ابنه الوليد صاحب الحق في العرش بعد عمه هشام.

وقد نشأ الوليد في بلاط عمه هشام، وكان يعرف أن الوليد يشكل حجر عثرة بالنسبة لأماله في ولاية العهد، فعامله معاملة قاسية خشنة، وأسرف في إبعاده عن السلطة، وفي دفعه إلى المجون واللهو، أملاً منه أن يسعد في هذا المسلك، فيبتعد عن المطالبة في العرش، والوليد من ناحية أخرى وجد نفسه حراً طليقاً من أية مراقبة، فاندفع كشاب يلهو ويصطاد ويشرب الخمر، وينتقل من مكان إلى آخر بصحبة

(١) قدورة: تطور تاريخ العرب، ص ٢١١.

(٢) المقرئ: نفح الطيب ٦٩٥/٢.

(٣) المطبري: تاريخ الرسل والملوك ٢٠٠/٧.

الندماء، والموسيقين، والشعراء والمغنين. حتى أصبح في نظر الكثير من المؤرخين من أكثر الخلفاء الأمويين شهرة في ميدان واحد هو ميدان اللهو والفسق والمجون، وقد بالغ الأصفهاني في وصف مجون الوليد قال: (...) وله أشعار كثيرة تدل على خبثه، وكفره، ومن الناس من ينفي ذلك عنه وينكره ويقول إنه نُحلة وألصق إليه^(١).

وأخذ الناس يصنعون عليه الأخبار، ويبالغون عليه في غلوائه، ومجونته، فيتهمونه تهماً في دينه قد تكون غير حقيقية إلا من حيث استهتاره بالخمير والنساء، فتزداد نقمة الشعب والمتدينين عليه.

ويبدو أن هشام استغل ذلك وجعله موضع الحديث في مجالسه، ليسيء لسمعته أمام الناس، ويتهياً الجو لبيعة ابنه^(٢). فقامت نتيجة لذلك مشاحنات وخصومات، وتباغض بين الخليفة وولي عهده، فقرر ترك القصر في الرصافة، وبالفعل انطلق ليعيش في مكان يسمى الأزرق^(٣) — شرق فلسطين — حيث نزل على ماء يقال له الأغدق يترقب موت عمه.

وما كاد الموت يغمض جفني هشام حتى غادر مستقره، واتجه إلى دمشق، فجاءته الوفود للتهنئة، ووصلته ثمانى العمال والولاة في الأمصار، فكان أول عمل عمله أن أخذ أبناء هشام وعماله وحاشيته فعاملهم أبشع معاملة، وصادر أموال هشام، وأمر بزيادة أعطيات الناس عشرة دراهم، وللشوام عشرين درهماً، ورد الأعطيات إلى أهل المدينة ومكة بعد أن كان هشام قد منعها عنهم وأجرى الأرزاق على المرضى والعجزة، وكساهم، وأمر لهم بالخدم للعناية بهم^(٤).

(١) الأصفهاني: الأغاني ٢/٧.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٢١١/٧.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٢١١/٧.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٢١٧/٧.

وعزل عمال هشام الذين كانوا بالمدينة، ودمشق، ولكنه استبقى نصر بن سيار في خراسان، واستبقى الأبرش الكلبي في منصب مستشار، واعتمد عليه كما اعتمد عليه عمه هشام من قبل.

ولعل الحياة الواسعة التي عاشها الوليد، وبذخه، وكرمه، والأموال التي احتاجتها حاشيته اللاهية الماحنة، استنفذت الأموال التي جمعها، وكدسها هشام، فبحث عن المال في كل وجه ففاوضه يوسف بن عمر الثقفي، واشترى منه خراسان وعاملها نصر بن سيار، ومن يتبعه من عمال في أقاليم المشرق بمال وفير يسد حاجات الخليفة^(١)، لكن هذه الصفقة لم تتم حيث قتل الوليد الثاني.

٨- خلافة يزيد الثالث وإبراهيم بن الوليد ١٢٦هـ / ٧٤٤م:

أجمع القوم على مبايعة يزيد الثالث بن الوليد الأول فحاول القيام بالإصلاح، وكانت سياسته تتلخص في نقاط ست هي كما يلي:

١- العمل على انتقش، وعدم إثراء نفسه أو أي فرد من أفراد أسرته، ولأجل ذلك أنقص أعطيات الجند التي كان قد زاد فيها سلفه، فأعادها إلى ما كانت عليه، فسماه الناس بالناقص.

٢- صرف ريع كل منطقة على المنطقة نفسها، وما يفضل بعد تسديد حاجات المنطقة يمكن نقله إلى منطقة محتاجة أخرى.

٣- وعد المقاتلة الذين جمروا في بعوثهم طويلاً بأنهم سيعادون إلى أهلهم.

٤- وعد بأن باب الخليفة سيكون مفتوحاً للجميع، وبأنه سيعمل على إحقاق الحق.

٥- وعد بحسن معاملة أهل الدمة.

٦- وعد بإعطاء الأرزاق والأعطيات في حينها، دونما تأخير أو حاجة للطلالة.

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٢٢٤/٧ وما بعد.

ولعله عزل والي العراق يوسف بن عمر بن هبيرة، وعين بدلاً عنه منصور بن جمهور، ثم ما لبث أن خلع منصوراً وعين بدلاً عنه عبد الله بن عمر بن عبد العزيز^(١). ولم تطل خلافة يزيد إلا نحواً من ستة أشهر، فقد مات في العام نفسه الذي ولي فيه، واستخلف بعده إبراهيم بن الوليد ويبدو أن أمر الخلافة لم يتم له، فقد كان يسلم عليه جمعة بالخلافة، وجمعة بالإمرة، وجمعة لا يسلمون عليه لا بالخلافة ولا بالإمرة^(٢). وظل حاله كذلك حتى قدم مروان بن محمد فقتله، وقتل عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك، لأن يزيد الثالث كان قد بايع لعبد العزيز بعد أخيه إبراهيم^(٣).

١٠- خلافة مروان بن محمد ١٢٧-١٣٢هـ / ٧٤٥-٧٥٠م:

مروان بن محمد رجل قدير قوي داهية، محارب، صبور في الشدائد لا يكل ولا يمل، حفيد مروان بن الحكم، كان عاملاً على الجزيرة، وأرمينية، وقد نجح نجاحاً باهراً في قيادته الحربية، وكان النجاح صعباً في هذه المنطقة لأن العدو كان عنيداً ومحارباً. وعندما آلت الخلافة له كان قد تجاوز الخامسة والخمسين ويعتبر شيخ بني أمية آنذاك، وقد بايعه الناس في دمشق ١٢٧هـ / ٧٤٥م، ولكنه لم يكن يعرف أهل دمشق، ولم يعرفوه، فترك دمشق، وجعل مقره حران بالجزيرة لعظم ثقته بأهلها من القيسيين فأثار أهل الشام عليه، واندلعت الثورات والقتال ضده، وقد ابتدأت في فلسطين، وانتقلت إلى دمشق، فحمص، ولكنه استطاع إخمادها. ولم تكن جبهة بلاد الشام الوحيدة، ففي العراق كانت القلاقل أكثر من بلاد الشام، ولم يخل الحجاز، واليمن من الاضطراب أيضاً. فضلاً عن خراسان التي كانت

(١) عاقل: دراسات في تاريخ العصر الأموي، ص ٢٩٤ وما بعد.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٢٩٩/٧.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٢٩٥/٧.

مركز الدعوة العباسية، فكانت معركة الزاب هي التي وضعت النهاية للدولة الأموية ١٣٢هـ / ٧٥٠م^(١).

سقوط الدولة الأموية ١٣٢هـ / ٧٥٠م:

تضافرت عوامل عدة لإسقاط الدولة الأموية تمحورت في النقاط التالية:

١- العصبية القبلية:

ظهرت العصبية القبلية بسبب التنافس على السلطة بين أفراد الأسرة الحاكمة وولاها، وقد اتخذت العصبية شكل النزاع بين عرب الشمال وعرب الجنوب (مضر أو القيسية، الأزدي أو اليمانية) إضافة إلى أن قبائل الشام المستوطنة قبل الفتوحات وأغلبها يمانية تصادمت مع القبائل التي وفدت إلى الشام مع موجة الفتوحات فبات كل حزب قيسية أو يمانية يبحث عن نفوذه ومصالحه على حساب إضعاف وإبعاد الحزب الآخر، وصار الخلفاء أشبه برؤساء أحزاب قبلية، وبدلاً من أن تكون العصبية القبلية سند الدولة العسكري تجاه الأحزاب السياسية (الخوارج - الشيعة) المعارضة صارت ضدها، الأمر الذي عجل في نهايتها.

٢- ولاية العهد لاثنين من الأسرة الحاكمة، وتنازع البيت الأموي على ولاية العهد.

٣- تعصب الأمويين للعرب: وقد اتهم الأمويون بالتعصب للعرب وازدياد تحقير الموالي، واعتبارهم بمرتلة دون العرب، وكان من نتيجة هذا التمييز في المعاملة انبعثت روح القومية الفارسية كسلاح ذاتي لهم^(٢). فدخلوا في الحركات المناهضة للدولة الأموية، وحملوا لواء المعارضة ضد الأمويين اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً^(٣).

(١) الدنيوري: الأخبار الطوال، ص ٣٦٥.

(٢) عمر: طبعة الدعوة العباسية، ٨٣.

(٣) كاهن: تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ص ٦١.

٤- سوء الأوضاع الاقتصادية: أدى إلى وقف الفتوحات إلى أوضاع اقتصادية صعبة لعدم وجود غنائم ثابتة تغذي الحزبية، فعمد الحجاج إلى فرض سياسة ضريبية جديدة لسد حاجات الدولة من أجل قمع الثورات الداخلية، وتأمين متطلبات الحكم، فازدادت نقمة الموالي والعرب لأنه فرض ضرائب خراجية على الأراضي العشرية التي يملكها العرب، فاضطر المزارعون إلى هجر الأراضي الزراعية.

٥- ترف وغنى الدولة الأموية: ظهر بعض الخلفاء انغمسوا بالترف واللهو، و البعد عن مبادئ الإسلام، وتفقد شؤون الرعية وتشبهوا بأكاسرة الفرس، وأباطرة بيزنطة^(١) بالنسبة لمظاهر الأبهة والسلطة، فضاء مجد الدولة الأموية.

٦- المعارضة الإسلامية الثورية: أسهمت معارضة الأحزاب الإسلامية للحكم الأموي في القضاء عليها كثورة الحسين، وثورة ابن الزبير، وثورة الخوارج، وحزب القدرية بالشام، ونمو التيارات الإسلامية المعارضة للحكم الأموي المعتمد على النظام القبلي المنقسم والمتناحر. وبالتالي قضت هذه التيارات (آل البيت العلوي وآل العباس السرية المتحالفة مع الموالي ضمن ما يسمى الدعوة العباسية) على الخلافة الأموية.

٧- الانقسامات الداخلية والخلاف بين أفراد البيت الأموي، والتي تحكمت في الأسرة الأموية بعد خلافة هشام بن عبد الملك.

٨- تعاقب خلفاء أقوياء، وخلفاء ضعاف، الأمر الذي شجع الناقمين والطامعين على التحرك، والتمرد، والثروة، وخاصة إذا سبق هؤلاء الخلفاء الضعاف خلفاء أقوياء سيطروا على الشعب كله، وملكوه قسراً.

٩- اتساع رقعة الدولة الأموية، وتعذر إدارتها إدارة مركزية قوية.

(١) قدورة: تطور تاريخ العرب، ص ٢١٧.

١٠- التيارات الفكرية المتعددة التي نشأت في العصر الأموي كالتشيع، والمذهب الخارجي، والاعتزال، والإرجاء، وكل مذهب من هذه المذاهب يخالف لبعضها الآخر، أو مناقض له، الأمر الذي ساعد على زيادة الاضطراب عند الأمويين وخاصة حين جعل نفر من الأمويين يتزعمون بعض هذه الحركات كما فعل مروان الثاني الذي كان معتزلياً وموقفه هذا أثار عليه نقمة العامة.

١١- عزوف العرب عن الأعمال اليدوية، وعن التجارة، والصناعة وإقبال الموالي، وأهل الذمة إلى احتراف الصناعات المختلفة وإلى الاشتغال بالتجارة، وهكذا تكون الطبقة الحاكمة العربية قد تركت القوة لخصومها، لأنه من يملك الاقتصاد يملك القوة.

حضارة العرب في العصر الأموي



تاريخ العرب الحضاري في العصر الأموي

مع اتساع الدولة العربية الإسلامية في العصر الأموي، سعى الأمويون منذ وقت مبكر إلى دفع عملية البناء الحضارية في كل الميادين الفكرية، والمعمارية، والإدارية، وشجعوا الحركة العلمية في شتى المجالات.

وقد احتكوا بشعوب متحضرة، فاستفادوا من نظام الدواوين، وتقسيمهم للمناصب السياسية كالوزارة والحجارة واستفادوا من النظم العسكرية والقضائية والاجتماعية بحيث يمكن القول أن العصر الأموي يمثل بداية عملية الدمج والهضم بين الحضارات، ففيه ارتفعت راية العروبة خفاقة في مشارق الأرض ومغاربها، وترجع العرب على عرش دولة خلافة مترامية الأطراف.

وقد استطاع بنو أمية بفضل اعتزازهم بانتمائهم العربي الإسلامي ورغبتهم في تطوير وإرساء أسس الدولة العربية المتطورة فاهتموا بكل ما يرقى بالدولة العربية الإسلامية إلى مرتبات الحضارة.

أضف إلى ذلك أن اختيارهم بلاد الشام لتكون مركزاً للخلافة أدى إلى تأثر المنشآت الأموية بالحضارة البيزنطية التي اعتمدت في بناء كنائسها على مزج الفن اليوناني الهليني الروماني والساساني، واستعان الأمويون بعمال بيزنطيين، وأقباط لإنجاز أبنيتهم من المساجد والقصور وغيرها^(١).

ولسهولة الدراسة ارتأينا تقسيم الحضارة العربية الإسلامية في العصر الأموي إلى:

١- الحياة الإدارية.

٢- الحياة الفكرية.

(١) خربوطلي وآخرون، الحضارة العربية الإسلامية، ص ٣٦.

٣- الحياة العمرانية.

٤- الحياة الاقتصادية والاجتماعية.

الحياة الإدارية في العصر الأموي:

- الخلافة: لما انتقلت السلطة إلى الأمويين أصبحت ملكاً استبدادياً وراثياً، وانقلبت من شورى حقيقية إلى شورى شكلية، وأدخلت كل مظاهر الأبهة التي تمتع بها الملوك والقيصرة.

وغدا الخليفة يجمع بيده السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية، وكان جميع الولاة والقضاة والقادة مسؤولين تجاهه وكان جميع الخلفاء الأمويين عرباً أقحاحاً من جهة الأم والأب ما عدا يزيد الثالث بن الوليد بن عبد الملك بن مروان، ومروان بن محمد فإن أم كل واحد منهما أمة.

- الوزارة: وجدت هذه الوظيفة في العصر الأموي كتسمية دون اختصاص، وكانت تعنى بحجب العامة عن الخليفة والقيام بالأعمال الإدارية، وكانت من أرفع المراتب في الدولة الأموية، فالوزير كان مجرد كاتب مقرب من الخليفة لتصرف الأمور، وإبداء الرأي، أي أنه كان ينظر في أحوال التدبير والمفاوضات، وسائر أمور الحمایات والمطالبات وما يتبع ذلك حسب قول ابن خلدون في مقدمته^(١).

- الدواوين: تعددت الدواوين في ظل الدولة الأموية منها:

١- ديوان الجند: لتنظيم أمر الجند، وهو في الحقيقة سجل الجيش.

٢- ديوان الخراج والجبایات: للإشراف على الشؤون المالية للدولة. وقد ظلت

دواوين الجبایات والخراج في عصر الدولة الأموية تكتب بالرومية ببلاد الشام والفارسية

(١) ابن خلدون: المقدمة، ص ٢٠٧.

في العراق والقطبية في مصر حتى عمل عبد الملك بن مروان سنة ٧٨هـ / ٦٩٧م على تعريبها^(١).

٣- ديوان الرسائل والكتابة: أول ظهور لهذا الديوان في عهد معاوية بن أبي سفيان ويقوم صاحب هذا الديوان بالإشراف على الرسائل الواردة من جميع الولايات العربية الإسلامية، أو الموجهة من الخليفة إلى عماله، وكان متولي هذا الديوان ينتقى من أقرب الناس إلى الخليفة للحفاظ على الأمانة والسرية.

٤- ديوان الخاتم: أكبر دواوين الدولة الأموية أنشأه معاوية بن أبي سفيان حتى لا تخرج التوقيعات دون ختم، فلا يعرف ما تحتويه من أسرار أحد غير الخليفة، فلا تتعرض هذه التوقيعات للتزوير والتعديل، وأول من شغل هذا المنصب في عهد معاوية عبيد بن أوس الغساني.

ولم يكن القصد من الختم أن يوضع الخاتم في أدنى الرسالة وإنما كانت الرسالة تطوى، ويلصق طرفها بالشمع أو الطين الأحمر، الذي يطبع عليه وهو طري خاتم الخلافة، ويترك حتى يجف، فإذا فتحت الرسالة قبل أن تصل إلى مرجعها عرف ذلك^(٢). وقد أنشأ الأمويون في دمشق داراً خاصة للمحفوظات الرسمية.

٥- ديوان البريد: مستحدث زمن معاوية بسبب اتساع رقعة الدولة ولتأمين الاتصال السريع^(٣).

- القضاء: وهو النظر في القضايا، والدعوى، وتطبيق أوامر الدين، ونواهي، وقد كان القضاء في العصر الأموي بسيطاً وكان معاوية أول خليفة امتنع عن القضاء، ودفعه

(١) عاقل: دراسات في تاريخ العصر الأموي، ص ١٤٣.

(٢) الرفاعي: الإسلام في حضارته، ١٤١ وما بعد.

(٣)

إلى من يقوم به فكان القاضي يعتمد في حكمه على الكتاب والسنة والإجماع والقياس وكان القضاة مستقلين في أحكامهم، وإرادتهم لم تؤثر فيهم ميول أهل الحل، والشأن من الحكم، وكان الخليفة الأموي هو الذي يختار القضاة بنفسه، ويعينهم، ولكن بعضهم كان يختارهم ولاية الأمصار بموافقة الخليفة.

وكان القضاء في هذا العصر على نوعين، قضاء شرعي يستوحي أحكامه ويستنبطها من مصادر الشريعة، وقضاء مدني يتولاها المحتسب^(١).

وأما المشكلات التي يستعصي حلها على القاضي الشرعي، فكان يفصل فيها قاضي المظالم، ويرجع الفضل في إنشاء محكمة المظالم هذه إلى الخليفة عبد الملك بن مروان، ويُعد عمر بن عبد العزيز أول من ندب نفسه للنظر في المظالم فردها على أصحابها^(٢).
الحياة الفكرية في العصر الأموي:

ازدهرت الحياة الفكرية في العصر الأموي، وشملت مجالات عدة:

١- العلوم الدينية: وهي أول ما عرف العرب من العلوم، وقد انتشرت في مختلف الولايات عن طريق الصحابة الذين تصرفوا في الولايات، وتأسست المدارس الدينية التي كان أساسها القرآن الكريم والحديث الشريف، والفقه، فكان ذلك بداية التأليف العلمي عند العرب، ومراكزها المدينة المنورة، والبصرة، والكوفة، ودمشق، والفسطاط. ويأتي في مقدمة العلوم الدينية علم القراءات، ويتناول هذا العلم أساليب قراءة القرآن نتيجة لانعدام التشكيل والنقاط وقد وضع القراء قواعد وأسس لقراءة القرآن ولهجاته جمعت في علم التجويد.

(١) الرفاعي: الإسلام في حضارته، ص ١٧٤ وما بعد.

(٢) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ٧١-٧٢.

ومن العلوم الدينية علم التفسير أي شرح القرآن الكريم، وقد اعتمد علم التفسير على تفسيرات الرسول (ﷺ) والنقل من الصحابة الأوائل والاجتهاد، ومن أشهر المفسرين من الصحابة عبد الله بن عباس، وعن الصحابة أخذ التابعون، وعن التابعين أخذ تابعو التابعين، فجمعوا أقوال من تقدمهم، وصنفوا التفاسير^(١).

وكان الحديث النبوي من العلوم الدينية، فلم يدون إلا في أواخر القرن الثاني الهجري في خلافة عمر بن عبد العزيز، لأن الأحاديث كانت تحفظ في صدور الرجال، أو تكتب في صحائف متفرقة، فلما انتحلت بعض الأحاديث لتلبية حاجات البدع والتركات حرص عمر بن عبد العزيز على تدوين الأحاديث الصحيحة^(٢).

٢- العلوم العربية: اللغة العربية هي التي نزل بها القرآن الكريم وقد اضطر العرب بعد اختلاطهم بغير العرب إلى وضع قواعد اللغة لتحميها من اللحن والخطأ، فظهرت مدرسة النحويين في البصرة يرأسها أبو الأسود الدؤلي (ت ٦٧هـ/ ٦٨٦م) وقلد أهل الكوفة بوضع قواعد نحوية، وعلى ذلك نشأت مدرستان للنحاة منذ العصر الأموي تنافستا على التسامي في الدراسات اللغوية والنحوية.

واسترد الشعر قيمته بسبب:

- أ- تشجيع الخلفاء والأمراء له لأغراض سياسية، وقومية، وإغداق الأموال عليهم، وتقريبهم، كما كان شأن الأخطل وجرير والفرزدق في عهد عبد الملك بن مروان.
- ب- النزاع الحربي بين العلويين والأمويين والخوارج والزييريين، فعمد كل فريق إلى الشعر يؤيد دعواه، ويجلب له الأنصار، ويهاجم خصومه، ويقتل مزاعمه، فنشأ الشعر

(١) الرفاعي: الإسلام في حضارته، ص ٥٥٢.

(٢) الرفاعي: الإسلام في حضارته، ص ٥٥٥.

السياسي كشعر الطرماح، شاعر الخوارج، وعبد الله بن قيس الرقيات شاعر الزبيرية ومضرو والكميت الأسدي شاعر الشيعة.

ج- الترف، ظهر ذلك في الشعر الغزلي الرقيق كشعر عمر بن أبي ربيعة، وظهر في بعض القبائل غزل شريف تنزهه عن الفحش، كان أكثر ما يكون في بني عذرة، وخزاعة، فسمي بالغزل العذري كشعر جميل بشينة، وكثير عزة^(١).

ولقد وصلت الخطابة في هذا العصر إلى القمة للحاجة الماسة إليها في الدعاية السياسية للأحزاب المختلفة من شيعة وزيدية وخوارج تثور على الأمويين، وتحاول الإنقاص من سلطتهم السياسية ولا تزال الخطب التي وصلتنا عن هذا العصر تعد أنموذجاً رفيعاً لفن الخطابة العربية، كخطبة الحجاج في أهل العراق، ومن أشهر خطباء هذا العصر معاوية، وعبد الملك، والحسين بن علي، وابن الزبير، والمختار بن أبي عبيد الثقفي، وقتيبة بن مسلم، والحجاج.

العلوم الاجتماعية:

١- التاريخ: قامت الدراسات التاريخية في البداية على سيرة الرسول (ص) وكانت مكة والمدينة المركزين الرئيسيين لنشاط هذه الحركة التاريخية، وقد سلك التاريخ في بدايته مسلك الحديث، وينقسم مؤرخو السيرة إلى ثلاث طبقات اشتهر منهم عروة بن الزبير ت ٩٢هـ / ٧١١م، وأبان بن عثمان بن عفان ت ١٠٥هـ / ٧٢٤م، وعاصم بن عمرو بن قتادة الأنصاري ت ١٢٠هـ / ٧٣٨م، وابن شهاب الزهري ت ١٢٤هـ / ٧٤٢م، أعظم مؤرخي المغازي والسير، الذي يرجع له الفضل في توضيح خطوط السيرة، وفي تأسيس المدرسة التاريخية في المدينة^(٢).

(١) ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ص ٣٤٩.

(٢) الرفاعي: الإسلام في حضارته، ص ٥٨٨.

ولقد كان لرغبة العرب في معرفة أنساب القبائل، وعلاقتها مع بعضها، وأنساب كثير من الأسر أن ازداد الاهتمام بعلم الأنساب فوضع الأمويون لهذا الغرض سجلات خاصة عندما قامت الخصومات القبلية، ونشأت الحركة الشعوية.

واهتم العرب في العصر الأموي بكتابة التاريخ القديم، وأهم من اشتغل في هذه الفترة عبيد بن شربة الجرهمي الذي عمل قصاصاً إخبارياً في بلاط معاوية^(١)، وكذلك وهب بن منبه ت ١١٠هـ / ٧٣١م، ويغلب على أخباره طابع القصص الشعبي الخرافي^(٢).

٢- الجغرافيا والرحلات: استلزم الفتح معرفة الطرق والمسالك، ومعرفة طبيعة البلاد، ومشاكلها الاقتصادية، فألف العرب الكتب العديدة التي جمعت إلى أخبار الفتوح أخباراً جغرافية متنوعة.

٣- علم الكلام: ظهرت في العصر الأموي بعض الحركات الفلسفية الدينية والواقع أن اختلاف وجهات النظر الدينية بين العرب وأهل الذمة والفرس والهنود واليونان أوجد مناخاً من المناقشات اللاهوتية، دارت حول فلسفة أرسطو وأفلاطون، لذا ففترة الحكم الأموي وضعت الأسس للعلوم الدينية الفلسفية لأنها كانت فترة المواجهة مع الشعوب المغلوبة والاحتكاك والانصهار بين العرب وجيرانهم من الشعوب القريبة عنهم بأديانهم وتقاليدهم وطرق معيشتهم، فظهر العديد من الفرق الدينية السياسية التي أضرت بالإسلام وقيمه فيما بعد.

فمنذ معركة صفين والفكر الديني الإسلامي يصارع من خلال الفرق التي ظهرت، طروحات دينية سياسية مختلفة تماماً عن جوهر الإسلام لأنها تأثرت بالأفكار الدينية

(١) الرفاعي: الإسلام في حضارته، ص ٥٨٤.

(٢) الرفاعي: الإسلام في حضارته، ص ٥٨٤.

لدى الفرس وأهل الذمة. هذه الأفكار كان الهدف منها خلق المزيد من الإرباكات والتعقيدات حول أحقية آل البيت في الحكم بالنسبة لباقي القبائل من آل هاشم وأمّية وقيهم وهمدان، فقام زعماء الفرق الدينية بطرح برامجهم السياسية من منظور ديني فلسفي. وضم فرقا وأحزابا سياسية دينية نذكر منها: الشيعة والزيدية والإمامية والمعتزلة، والجبرية، والمرجئة، والخوارج.

العلوم الطبية:

١- الطب: اهتم الأمويون بالطب، وكان أكثر أطبائهم من النصارى الذين بقوا على دينهم، ولاقوا من احترام الخلفاء والشعب مما دفع الكثير منهم أن يهجر بلاده ويفد إلى البلاد العربية، وقد ساهم هؤلاء الأطباء بأكبر نصيب في حركة النقل، ونبغ بعضهم كابن أثال وأبو الحكم طيبيا معاوية، وكانا خبيرين بالأدوية المفردة والمركبة وتياذوق طبيب الحجاج وماسرجويه طبيب مروان بن الحكم الذي ترجم بعض الكتب الطبية من السريانية إلى العربية مثل كتاب أهرن بن أعين القس، وابن أبيج السكندري طبيب عمر بن عبد العزيز^(١).

وقد أنفق الأمويون بسخاء على المستشفيات العامة المجانية وأول مستشفى للخدام في الإسلام أنشأه الوليد بن عبد الملك ٨٨هـ / ٧٠٧م^(٢)، وأقيمت مستشفيات للمجانين، ومستشفيات عسكرية تنتقل مع الجيش وتحمل أدواتها على الجمال والبغال ويرافق المستشفى ممرضات يتخصصن بتمريض جرحى الحرب والجند، وأقيم مأوى للعجزة، والعميان والأيتام منذ عصر الوليد بن عبد الملك^(٣).

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ١٧١ وما بعد، ابن جليل: صفات الأطباء والحكماء، ص ٦١.

(٢) رفاعي: الإسلام، ص ٦٠٧.

(٣) رفاعي: الإسلام، ص ٦٠٩.

٢- الكيمياء والصيدلة: اهتم الأمويون بالكيمياء والصيدلة وأول من اهتم بهذا العلم وبإخراج كتب القدماء في الصنعة خالد بن يزيد بن معاوية^(١) الذي أخذ العلم على يد الراهب مريانوس من الإسكندرية، واشتهر في علم الكيمياء جعفر الصادق الذي قرأ جميع ما ترجم خالد بن يزيد بن معاوية^(٢).

الحياة العمرانية:

قسمت الحياة العمرانية إلى عمارة مدنية، وعمارة دينية.

فالعمارة المدنية كانت من اهتمامات الأمويين بالأمور الحياتية فقد عكفوا على إنشاء القصور الفخمة والمزينة بالزخارف والصور والتماثيل، وما تزال بعض آثار القصور الأموية باقية حتى اليوم أهمها قصر عمرة، وقصر خربة المنية^(٣)، الذي يعود إلى عهد الوليد بن عبد الملك، وقصر خربة المفجر، وقصر الحير الغربي وقصر الحير الشرقي، وتنسب هذه القصور إلى هشام بن عبد الملك^(٤).

وشيد الأمويون المدن كمدينة الرملة التي بناها سليمان بن عبد الملك، والقيروان التي بناها عقبة بن نافع، وأحاطها بالأسوار لحماية الجنود والسكان من غارات الروم^(٥).

وتعتبر مدينة دمشق من المدن الأموية التي ازدادت حضارة وتألقاً أيام الدولة الأموية، والتي غدت حاضرة لها، وكان لدمشق أسوارها وأبوابها وأبراجها، وقنواتها

(١) النديم: الفهرست، ص ٣٥٤، أحمد: تاريخ العرب في العصر الأموي، ص ١٤٨.

(٢) رفاعي: الإسلام، ص ٦١٠.

(٣) خربوطلي وآخرون: الحضارة العربية الإسلامية، ص ٥٧ وما بعد.

(٤) خربوطلي وآخرون: الحضارة العربية الإسلامية، ص ٦٠ وما بعد.

(٥) خربوطلي وآخرون: الحضارة العربية الإسلامية، ص ٦٨ وما بعد.

المائية (نهر بردى)، فبات لكل دار في دمشق نافورة خاصة به، وذلك بفضل القنوات السبع التي شقها الأمويون لتصل المياه إلى كل أنحاء المدينة^(١).

ولقد اهتم الأمويون بتحسين المدن الإسلامية، وتعميرها بمختلف أنواع الأبنية الحربية، فأسس معاوية مدينة جبلة، وأقام لها حصناً خارجاً عن الحصن الروماني القديم، كذلك الأمر بالنسبة لطرطوس ومرقية.

وأقيمت الروابط (أماكن دينية للجهاد) والمساح والنواظر على سواحل بلاد الشام ومصر وأفريقيا لحماية المدن الساحلية من غارات البيزنطيين، وتأثر بناء القلاع الأموية بالفن البيزنطي^(٢).

٢- العمارة الدينية: اهتم الأمويون بالمساجد، فكانوا يجددون المساجد التي أسست أيام الرسول، والخلفاء الراشدين، لأن المسجد في ذلك العصر لم يعد مركز عبادة فقط، إنما صار مركزاً للاجتماع، واتخاذ القرارات التي تهم المجتمع الإسلامي من أمثال المسجد النبوي بالمدينة المنورة، وجامع البصرة، والكوفة، والفسطاط، وصنعاء.

أما المساجد الجديدة التي بنيت في عهد الأمويين فهي كثيرة مثل جامع دمشق، والمسجد الأقصى، ومسجد قبة الصخرة، وجامع الزيتونة بتونس، وجامع عقبة بن نافع بالقيروان وغيرها.

الحياة الاقتصادية:

اهتم الأمويون بالحياة الاقتصادية، وعدوها دعامة أساسية لبقائهم، لذا قام الخلفاء الأمويون بالإصلاح، وترميم شبكات الري التي وجدوها في البلاد المفتوحة خاصة ببلاد

(١) حسن: تاريخ الإسلام، ص ٥٢١.

(٢) شاطي: تطور تاريخ العرب، ص ٢٤١.

الشام، ويؤثر عن الخليفة يزيد أنه أمر بحفر بحرى همر يزيد في دمشق لإرواء الأراضي المرتفعة التي لم تصلها مياه بردى^(١).

كما اهتموا بتجفيف المستنقعات، وقد فعلوا ذلك في البطائح، وهي مستنقعات في أسفل العراق بين البصرة والكوفة، وجلبوا أنواع جديدة من المحاصيل لم تكن معروفة في بلاد الشام والعراق وأفريقيا، فتنوعت المحاصيل الزراعية، ويرجع ذلك إلى تعدد الأقاليم واختلاف المناخ^(٢).

إلا أن العمال في نهاية عهد الأمويين أخذوا يسيئون إلى أصحاب الخراج من الرعايا بما يستعملونه من العنف والفسق في تحصيلها فتشاغل الناس عن الزرع، وأهملت الأراضي وزادها إهمالاً نشوء الفتن والحروب في العراق وفارس وسائر أنحاء المملكة الإسلامية.

ونظراً لتوافر المواد الأولية اللازمة للصناعة فقد ازدهرت أنواع متعددة من الصناعات كصناعة العطور، والصناعات النسيجية والصناعات المعدنية، والغذائية، وصناعة السفن.

وباتساع أراضي الدولة العربية الإسلامية، وكثرة الأموال وارتفاع مستوى المعيشة، وكثرة الصناعة، وتوحيد النقد المتداول، فقد نشطت التجارة، وازدهرت مدن اعتبرت مراكز عظيمة للتجار العرب الذين حملوا لواء التجارة العالمية في القرون الوسطى منها دمشق عاصمة الأمويين، ومركز التقاء القوافل بين آسيا الصغرى، وما بين النهرين، ومصر، وبلاد العرب، تتجمع فيها أنواع السلع والبضائع العربية، ومنها تنقل إلى مختلف الأنحاء.

(١) زيود: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ص ٥٢.

(٢) اشنور: الحياة الاقتصادية، ص ٦٠ وما بعد.

- الحياة الاجتماعية:

تألف المجتمع في العصر الأموي من الطبقة الحاكمة، وطبقة علماء الدين، وأرباب السيف، وأرباب العلم أو الكتاب، وطبقة أرباب الحرف، وطبقة الزراعة، وطبقة الرقيق أو العبيد وطبقة أهل الذمة، وطبقة الموالي.

والمفيد ذكره أن المرأة بقيت محتفظة بمكانتها التي منحها إياها الإسلام، فزاد مهرها، وندر رؤية وجهها، حتى صارت حُلماً يسعى إليه الشعراء ليصبح حقيقة.

فالشاعر دعبل نظم الشعر في عاتكة ابنة معاوية التي رآها في أثناء تأديتها فريضة الحج في يوم حار، فأمرت برفع الستار فرآها ونظم بها الشعر، فوعده الخليفة معاوية بمال، وزوجه من إحدى بنات عمه كي يكف عن ذكرها^(١)، والشاعر وضاح شبيب بـزوجة الخليفة الوليد فكانت النتيجة قتله.

ولكن لم تبق هذه المكانة، بسبب التهافت على اقتناء الجواري في العصر الأموي المتأخر، فظهر نظام الحريم في عهد الوليد الثاني الذي اتخذ الخصيان^(٢)، ونشأ الحجاب، وعدم الاختلاط، وكان المجتمع كلما ازداد طوره وبذخه وابتعاده عن الدين، كلما ازداد السُّدْر والتضييق على المرأة.

ورغم ذلك برزت نساء في ذلك العصر اشتهرن بالفصاحة والبلاغة، وقوة الحجّة كأُم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك، والسيدة سُكينة بنت الحسين التي كان لها مكانة أدبية راقية، وكان يحتكم إليها الشعراء كالفرزدق وجرير ودارت في مجالسها الأدبية جلسات التحكيم فيما بينهما، واشتهرت عائشة بنت طلحة بمعرفة الأدب وأيام العرب والنجوم^(٣).

(١) ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ص ٣٤٩.

(٢) الأصبهاني: الأغاني ٦٥/١٠.

(٣) قدورة: تطور تاريخ العرب، ص ٢٢٩.

وشاع التألق والترف في الملبس، وارتدى الخلفاء والأسرة الحاكمة الثياب الموشاة بالذهب من الديباج، وشاع لبس الطيلسان الأبيض، والأزرق، والأسود، والأخضر بين الأدباء والكتاب، والمدرسين والقضاة.

وتنوعت الأطعمة، وبات لها مواعيد محددة، وغرف خاصة، وأدوات خاصة، فمعاوية كان يتناول خمس وجبات، وظهرت هوايات وتسلية متنوعة، كجمع الخيول العربية الأصيلة واقتناء الكلاب وصيدها وإلباسها أساور الذهب والحل المنسوجة^(١) وبرع العرب بلعب النرد والكرة والصولجان على ظهر الخيل، وظهرت لعبة قتال الديكة^(٢).

وظهر الغناء والرق، ويرجع ازدهاره إلى الوليد الثاني حتى سمي بخلع بني أمية^(٣).

(١) ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية، ص ٥٤.

(٢) ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية، ص ٥٤.

(٣) الجاحظ: التاج في أخلاق الملوك، ص ٣٣، المسعودي: مروج الذهب ٩٣/٨.





الملاحق



الملحق رقم (١)

خبر الصحيفة

(من سيرة ابن اسحق برواية يونس بن بكير)

نا أحمد نا يونس عن ابن اسحق قال: فلما مضى رسول الله ﷺ على الذي بعث به وقامت بنو هاشم وبنو المطلب دونه، وأبوا أن يسلموه، وهم من خلافه على مثل ما قومهم عليه إلا أنهم أنفوا أن يستدلوا ويسلموا أخاهم لمن فارقه من قومه، فلما فعلت ذلك بنو هاشم وبنو المطلب، وعرفت قريش أنه لا سبيل إلى محمد ﷺ معهم اجتمعوا على أن يكتبوا فيما بينهم على بني هاشم، وبني المطلب: ألا يناكحوهم ولا ينكحوا إليهم، ولا يبايعوهم ولا يتتاعون منهم، فكتبوا صحيفة في ذلك، وكتب في الصحيفة عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، وعلقوها بالكعبة.

ثم عدوا على من أسلم فأوثقوهم وأذوهم، واشتد البلاء عليهم، وعظمت الفتنة فيهم وزلزلوا زلزلاً شديداً، فخرج أبو لهب عدو الله يظهر عليهم قريش، وقال: قد نصرت اللات والعزى يا معشر قريش، فأنزل الله ﷻ: ﴿تَبَّتْ يُدَا أَيْ لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ إلى آخرها.

نا أحمد نا يونس عن إسحاق قال: فلما سمعت قريش بذلك ورأوا منه الجحد وأيسوا منه فأبدوا لبني عبد المطلب الجفاء، فانطلق بهم أبو طالب فقاموا بين أستار الكعبة فدعوا الله على ظلم قومهم لهم وفي قطيعتهم أرحامهم واجتماعهم على محاربتهم، وتناولهم سفك دمائهم، فقال أبو طالب: اللهم إن أبي قومنا إلا النصر علينا ففعل نصرنا وحل بينهم وبين قتل ابن أخي، ثم أقبل إلى جمع قريش وهم ينظرون إليه وإلى أصحابه، فقال أبو طالب: ندعو رب هذا البيت على القاطع المنتهك للمحارم

والله لتستهن عن الذي تريدون، أو ليترن الله بكم في قطيعتنا بعض الذي تكرهون، فأجابوه: إنكم يا بني عبد المطلب لا صلح بيننا وبينكم ولا رحم إلا على قتل هذا الصبي السفية، ثم عمد أبو طالب فأدخل الشعب ابن أخيه وبني أبيه ومن اتبعهم من بين مؤمن دخل لنصرة الله ونصرة رسوله ﷺ، ومن بين مشرك يحتمي فدخلوا شعبهم وهو شعب أبي طالب في ناحية من مكة.

فلما قدم عمرو بن العاصي وعبد الله بن أبي ربيعة إلى قريش وأخبروهم بالذي قال النجاشي ﷺ وأصحابه اشتد وجدهم، وأذوا النبي ﷺ أذى شديداً وضربوهم في كل طريق وحصروهم في شعبهم، وقطعوا عنهم المدة من الأسواق، فلم يدعو أحداً من الناس يدخل عليهم طعاماً ولا شيئاً مما يرفق بهم وكانوا يخرجون من الشعب إلى الموسم، وكانت قريش تبادرهم إلى الأسواق فيشترونها ويغلوها عليهم، ونادى منادي الوليد بن المغيرة في قريش: ألما رجل وجدتموه عند طعام يشتره فزيدوا عليه.

نا يونس عن عيسى بن عبد الله التميمي عن الربيع بن أنس قال: نزلت في الوليد ابن المغيرة «عَثَلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ» قال: فاحش مع ذلك لئيم.

نا أحمد نا يونس عن ابن إسحق في حديثه عن الوليد: فمن رأيتموه عند طعام يشتره فزيدوا عليه وحولوا بينهم وبينه ومن لم يكن عنده نقد فليشتر وعليه النقد، ففعلوا ذلك ثلاث سنين حتى بلغ القوم الجهد الشديد وحتى سمعوا أصوات صبياتهم يتضايحون من وراء الشعب.

وكان المشركون يكرهون ما فيه بنو هاشم من البلاء حتى كره عامة قريش ما أصاب بني هاشم، وأظهروا كراهيتهم لصحيفتهم القاطعة الظالمية الذي تعاهدوا فيها على محمد ﷺ ورهطه، وحتى أراد رجال منهم أن يبرعوا منها.

وكان أبو طالب يخاف أن يقتالوا رسول الله ﷺ ليلاً أو سراً، فكان رسول الله ﷺ إذا أخذ مضجعه أو رقد بعثه أبو طالب عن فراشه وجعله بينه وبين بنيه خشية أن يقتلوه. وتصبح قريش فيسمعوا من الليل أصوات صبيان بني هاشم الذين في الشعب يتصايحون من الجوع، فإذا أصبحوا جلسوا عند الكعبة فيسأل بعضهم بعضاً فيقول الرجل لصاحبه: كيف بات أهلك البارحة؟ فيقول: بخير، فيقول: لكن أخوانكم هؤلاء الذين في الشعب بات صبياتهم يتصايحون من الجوع حتى أصبحوا، فمنهم من يعجبه ما يلقى محمد ﷺ ورهطه ومنهم من يكره ذلك. فقال أبو طالب وهو يذكر ما طلبوا من محمد ﷺ وما حشدوهم في كل موسم بمنعوتهم أن يبتاعوا بعض ما يصلحهم، وذكر في الشعر:

نا أحمد نا يونس عن ابن اسحق: فأقامت قريش على ذلك من أمرهم في بني هاشم وبني المطلب سنتين أو ثلاثاً حتى جهد القوم جهداً شديداً لا يصل إليهم شيء إلا سراً أو مستخفياً ممن أراد صلتهم من قريش، فبلغني أن حكيم بن حزام خرج يوماً ومعه إنسان يحمل طعاماً إلى عمته خديجة ابنة خويلد وهي تحت رسول الله ﷺ، ومعه في الشعب، إذ لقيه أبو جهل فقال: تذهب بالطعام إلى بني هاشم، والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك عند قريش، فقال له أبو البخثري بن هاشم بن الحارث بن أسد: تمنعه أن يرسل إلى عمته بطعام كان لها عنده، فأبى أبو جهل أن يدعه، فقام إليه أبو البخثري بساق بعير فشجّه ووطئه وطئاً شديداً وحمزة بن عبد المطلب قريباً يرى ذلك، وهم يكرهون أن يبلغ ذلك رسول الله ﷺ وأصحابه فيشتمتوا بهم.

نا أحمد نا يونس عن ابن اسحق قال: ثم إن الله ﷻ برحمته أرسل على صحيفة قريش التي كتبوا فيها تظاهروا على بني هاشم الأرضة فلم تدع فيها اسماً هو الله ﷻ إلا أكلته وبقي فيها الظلم والقطيعة والبهتان، فأخبر الله ﷻ بذلك رسوله ﷺ فأخبر أبا طالب، فقال أبو طالب: يا بني أخوتي من حدثك هذا وليس يدخل إلينا أحد ولا يخرج أنت إلى أحد، ولست في نفسي من أهل الكذب؟ فقال له رسول الله ﷻ: أخبرني ربي

هذا، فقال له عمه: أن ربك لحق، وأنا أشهد أنك صادق، فجمع أبو طالب رهطه ولم يخبرهم بما أخبره به رسول الله ﷺ كراهية أن يفشوا ذلك الخبر فيبلغ المشركين فيحتالوا للصحيفة الخبيث والمكر، فانطلق أبو طالب برهطه حتى دخلوا المسجد والمشركون من قريش في ظل الكعبة، فلما أبصروه تباشروا به، وظنوا أن الحصر والبلاء حملهم على أن يدفعوا إليهم رسول الله ﷺ فيقتلوه، فلما انتهى إليهم أبو طالب ورهطه رحبوا بهم وقالوا: قد آن لك أن تطيب نفسك عن قتل رجل في قتله صلاحكم وجماعتكم، وفي حياته فرقتكم وفسادكم. فقال أبو طالب: قد جئتمكم في أمر لعله يكون فيه صلاح وجماعة، فاقبلوا ذلك منا، هلموا صحيفتكم التي فيها تظاهركم علينا، فجاءوا بها ولا يشكون إلا أنهم سيدفعون رسول الله ﷺ إليهم إذا نشروها، فلما جاءوا بصحيفتهم، قال أبو طالب: صحيفتكم بيني وبينكم، وأن ابن أخي قد خبرني ولم يكذبني أن الله ﷻ قد بعث على صحيفتكم الأرضة، فلم ندع الله فيها إسماً إلا أكلته، وبقي فيها الظلم والقطيعة والبهتان، فإن كان كاذباً فلكم علي أن أدفعه إليكم تقتلونه، وإن كان صادقاً فهل ذلك ناهيكم عن تظاهركم علينا، فأخذ عليهم الموائيق، وأخذوا عليه، فلما نشروها فإذا هي كما قال رسول الله ﷺ، وكانوا هم بالغدر أولى منهم، واستبشر أبو طالب وأصحابه، وقالوا أينما أولى بالسحر والقطيعة والبهتان؟ فقال المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، وهشام ابن عمرو أخو عامر بن لؤي بن حارثة فقالوا: نحن براء من هذه الصحيفة القاطعة العادية الظالمة، ولم نمالئ أحداً في فساد أنفسنا وأشرفنا، وتتابع على ذلك ناس من أشراف قريش، فخرج أقوام من شعبهم وقد أصابهم الجهد الشديد، فقال أبو طالب في ذلك من أمر محمد ﷺ وما أرادوا من قتله:

فلما بادأهم أبو طالب بالعداوة، وبادأهم بالحرب، عدت قريش على من أسلم منهم فأوثقوه وآذوه، واشتد البلاء عليهم، وعظمت الفتنة فيهم، وزلزلوا زلزالاً شديداً، وعدت بنو جمح على عثمان بن مظعون، وفر أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن

عبد الله بن عمر بن مخزوم إلى أبي طالب ليمنعه، وكان حاله، فجاءت بنو مخزوم ليأخذوه فمنعهم، فقالوا: يا أبا طالب منعنا ابن أخيك، أئمنع منا ابن أخينا؟! فقال أبو طالب: أئمنع ابن أخي كما أئمنع ابن أخي، فقال أبو لهب — ولم يتكلم بكلام خير قط ليس يومئذ —: صدق أبو طالب لا يسلمه إليكم، فطمع فيه أبو طالب حين سمع منه ما سمع، ورجا نصره والقيام معه، فقال شعراً استجلبه بذلك:

نا أحمد نا يونس عن ابن إسحاق قال: ثم أنه قام في نقض الصحيفة التي تكاثبت فيها قريش على بني هاشم وبني المطلب نفر من قريش، ولم يبل أحد فيها بلاء أحسن بلاء من هشام بن عمرو بن ربيعة بن الحارث بن حبيب بن خزيمة بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي، وذلك أنه كان ابن أخي نضلة بن هاشم بن عبد مناف لأمه، وكان عمرو ونضلة أخوين لأم، وكان هشام لبني هاشم واصلًا، وكان ذا شرف في قومه، وكان فيما بلغني يأتي بني المغيرة، وبني هاشم وبني المطلب في الشعب ليلاً، قد أوقر جملاً طعاماً، حتى إذا أقبله في الشعب حل خطامه من رأسه، وضرب جنبه، فدخل الشعب عليهم، ويأتي به قد أوقره برأ أو برا فيفعل به مثل ذلك.

ثم إنه مشى إلى زهير بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب، فقال لزهير: قد رضيت أن تأكل الطعام، وتلبس الثياب، وتنكح النساء، وأحوالك حيث قد علمت، لا يباعون ولا يباع منهم، ولا ينكحون ولا ينكح إليهم، ولا يأمنون ولا يؤمن عليهم، أما إني أحلف بالله لو كانوا أحوال أبي الحكم ابن هشام ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبداً، قال: ويحك فما أصنع أنا رجل واحد: قال: فقال: قد وجدت ثانياً، قال: ومن هو؟ قال: أنا أقوم معك، فقال له زهير: ابغنا ثالثاً. قال: وذهب إلى المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، فقال له: يا مطعم قد رضيت أن تملك بطن من بني عبد مناف وأنت شاهد على ذلك، موافق عليه، أما والله لئن أمكنتهموهم من هذه لتجدتهم إليها

سراعاً منكم، فقال: ويحك فما أصنع إنما أنا رجل واحد، فقال: قد وجدت ثانياً، قال: فمن هو؟ قال: أنا، قال فابغنا ثالثاً، قال: قد فعلت، قال: ومن هو؟ قال: زهير بن أبي أمية، قال: فابغنا رابعاً يتكلم معنا، قال: فذهب إلى أبي البختری بن هشام فذكر قرابتهم وحققهم، فقال: هل معك من أحد يعين على هذا؟ قال: نعم، المطعم بن عدي، وزهير بن أبي أمية، فقال: ابغنا خامساً، فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد فكلّمه وذكر له قرابتهم وحققهم، فقال له زمعة: هل معك على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد؟ فقال: نعم، ثم سمى له القوم، فتواعدوا عند خطم الحجون ليلاً بأعلى مكة، فاجتمعوا هناك، وأجمعوا أمرهم، وتعاهدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها، فقال زهير: أنا أبدؤكم فأكون أولكم، فلما أصبحوا غدوا على أنديتهم، وغدا زهير بن أبي أمية في حلة له، فطاف بالبيت سبعاً، ثم أقبل على الناس فقال: يا أهل مكة، أناكل الطعام، ونشرب الشراب، ونلبس الثياب وبنو هاشم، وبنو المطلب هلكن لا يباعون ولا يباع منهم، ولا ينكحون ولا ينكح إليهم، والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى تشق هذه الصحيفة الظالمة القاطعة، فقال أبو جهل: كذبت والله، وهو في ناحية المسجد، لا نشق هذه الصحيفة، فقال زمعة بن الأسود: بل أنت والله أكذب ما رضينا كتابها حين كتبت، فقال أبو البختری: صدق زمعة بن الأسود، لا نرضى بما كتب فيها ولا نعرفه، فقال المطعم بن عدي: صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله ﷻ منها ومما كتب فيها، وقال هشام بن عمرو مثل ما قالوا في نقضها وردّها، فقال أبو جهل: هذا أمر قضي بليل تُشَوُّور فيه — يعني بغير هذا المكان — وأبو طالب جالس في ناحية المسجد يرى ما يصنع القوم، ثم أن المطعم بن عدي قام إلى الصحيفة فشققها، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا «بسمك اللهم». وكان الذي كتب الصحيفة منصور بن عكرمة بن هشام بن عبد مناف بن عبد الدار فسلّط يده فيما يزعمون، والله أعلم.

الملحق رقم (٢)

بيعتا العقبة

بيعة العقبة الأولى:

خرج رسول الله (ﷺ) في الموسم الذي لقي فيه النفر من الأنصار، فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم. فبينما هو عند العقبة، لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً... فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. فأجابوه فيما دعا إليه، بأن صدقوه وقبلوا مع ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا: إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم؛ وعسى أن يجمع الله بك. فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أحبناك إليه من هذا الدين. فإن يجمعهم الله عليه، فلا رجل أعز منك.

ثم انصرفوا... وهم، فيما ذكر لي، ستة نفر من الخزرج.

ولم يكن هناك وثيقة مكتوبة، بل بيعة.

بيعة العقبة الثانية:

فلما قدموا [أي الذين بايعوا في العقبة الأولى] المدينة إلى قومهم، ذكروا لهم رسول الله ص، ودعوهم إلى الإسلام، حتى فشا فيهم. فلم يبق داراً من دُور الأنصار إلا وفيها ذكر رسول الله ص.

حتى إذا كان العام المقبل، وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً. فللقوه بالعقبة، وهي العقبة الأولى. فبايعوا رسول الله ﷺ...

فبايعنا رسول الله ص على بيعة النساء وذلك قبل أن يفترض علينا الحرب، على:

«ألا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان
نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف». «فإن وفيتم فلکم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأمرکم إلى الله عز وجل، إن
شاء غفر، وإن شاء عذب».



ملحق رقم (٣)

إسلام عمر بن الخطاب ؓ

(من سيرة ابن إسحاق برواية يونس بن بكير — نسخة المغرب)

أحمد (بن عبد الجابر العطاردي)، يونس عن محمد بن إسحاق قال: كان إسلام عمر بن الخطاب بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة. أحمد، يونس عن ابن إسحاق قال: حدثني عبد الرحمن بن الحارث بن عبد العزيز ابن عبد الله بن عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أمه ليلي قالت: كان عمر بن الخطاب من أشد الناس علينا في إسلامنا، فلما همينا للخروج إلى أرض الحبشة جاءني عمر بن الخطاب وأنا على بعيري نريد أن نتوجه، فقال: أين يا أم عبد الله؟ فقلت له: آذيتونا في ديننا، فنذهب إلى أرض الله ﷻ حيث لا نؤذى في عبادة الله. فقال صحبكم الله، فذهب، ثم جاءني زوجي عامر بن ربيعة، فأخبرته بما رأيت من رقة عمر، فقال: أترجين يسلم؟ فقلت: نعم، فقال: والله لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب.

أحمد، يونس عن ابن إسحاق قال: ثم إن قريشاً بعثت عمر بن الخطاب وهو يومئذ مشرك في طلب رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ في دار في أصل الصفا ولقيه النحام، وهو نعيم بن عبد بن أسد أخو بني عدي بن كعب، كان أسلم قبل ذلك، وعمر متقلد سيفه، فقال: يا عمر أين تراك تعمد؟ أعمد إلى محمد هذا الذي سفه أحلام قريش وسفه آلهتها، وخالف جماعتها، فقال له النحام: والله لبئست الممشى مشيت يا عمر، ولقد فرطت وأردت هلكة بني عدي بن كعب، أو تراك تنفلت من بني هاشم وبني زهرة وقد قتلت محمداً ﷺ؟ فتحاورا حتى ارتفعت أصواتهما، فقال يا عمر إني أظنك قد صبأت ولو أعلم ذلك لبدأت بك، فلما رأى النحام أنه غير منته. قال: فإني أخبرك، أن أهلك وأهل نحتك قد أسلموا وتركوك وما أنت عليه من

ضلاتك، فلما سمع عمر تلك المقالة يقو لها، قال: فأيهم؟ قال: خنتك وابن عمك وأختك، فانطلق عمر حتى أتى أخته.

وكان رسول الله ﷺ إذا أتته الطائفة من أصحابه من ذوي الحاجة، نظر إلى أولي السعة فيقول: عندك فلان فليكن إليك، فوافق ذلك ابن عم عمر وأخته زوج أخته سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل فدفع إليه رسول الله ﷺ خطاب بن الأرت مولى ثابت ابن أم أنمار حليف بني زهرة، وقد أنزل الله ﷻ ﴿طه﴾ (١) مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢) إِلَّا نَذِيرٌ لِّمَنْ يَخْشَى (٣). وكان رسول الله ﷺ دعا ليلة الخميس فقال اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بأبي الحكم بن هشام، فقال ابن عم عمر وأخته: نرجو أن تكون دعوة رسول الله ﷺ لعمر، فكانت.

فأقبل عمر حتى انتهى إلى باب أخته ليغير عليها ما بلغه من إسلامها فإذا خطاب ابن الأرت عند أخت عمر يدرس عليها «طه» ويدرس عليها: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾. وكان المشركون يدعون الدراسة الهينة، فدخل عمر فلما أبصرته أخته عرفت الشر في وجهه، فخبأت الصحيفة، وراغ خطاب فدخل البيت، فقال عمر لأخته: ما هذه الهينة في بيتك؟ قالت: ما عدا حديثاً نتحدث به بيننا. (فأخذ) بعذها وحلف ألا يخرج حتى تبين شأنها، فقال له زوجها سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل: إنك لا تستطيع أن تجمع الناس على هোক يا عمر، وإن كان الحق سواه، فبطش به فوطئه وطمناً شديداً وهو غضبان، فقامت إليه أخته تحجره عن زوجها، فنضحها عمر بيده فشجها، فلما رأت الدم قالت: هل تسمع يا عمر، أرايت كل شيء بلغك عني مما يذكر من تركي آهنتك وكفري باللات والعزى فهو حق، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله. فائتمر بأمرك واقض ما أنت قاضي، فلما رأى ذلك عمر سقط في يديه، فقال عمر لأخته: أرايت ما كنت تدرسين، أعطيك موثقاً من الله لا أخوها حتى أردّها إليك. ولا أريك فيها، فلما رأت ذلك أخته، ورأت حرصه على الكتاب رجحت أن تكون دعوة رسول الله ﷺ له،

فقلت أنك نجس و«لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ» ولست آمنك على ذلك، فاغتسل
 غسلك من الجنابة وأعطني موثقاً تطمأن إليه نفسي، ففعل عمر، فدفعته إليه الصحيفة،
 وكان عمر يقرأ الكتاب فقرأ طه حتى إذا بلغ: «إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ
 نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى» إلى قوله: «فَتَرَدَّى». وقرأ إذا الشمس كورت حتى بلغ: «عَلِمَتْ نَفْسٌ
 مَا أَحْضَرَتْ». فأسلم عند ذلك عمر، فقال لأخته وخخته: كيف الإسلام؟ قال: تشهد أن لا
 إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، وتخلع الأنداد وتكفر باللات
 والعزى ففعل ذلك عمر، وخرج حجاب وكان في البيت داخلاً، فكير حجاب وقال: أبشر
 يا عمر بكرامة الله، فإن رسول الله ﷺ قد دعا لك أن يعز الله الإسلام بك، قال عمر:
 فدلوني على المنزل الذي فيه رسول الله ﷺ، فقال له حجاب بن الأرت: أنا أخبرك فأخبره
 أنه في الدار التي في أصل الصفا.

فأقبل عمر وهو حريص على أن يلقى رسول الله ﷺ، وقد بلغ رسول الله ﷺ أن
 عمر يطلبه ليقتله، ولم يبلغه إسلامه، فلما انتهى عمر إلى الدار استفتح؛ فلما رأى
 أصحاب رسول الله ﷺ عمر متقلداً بالسيف أشفقوا منه، فلما رأى رسول الله ﷺ
 وجَلَ القوم قال: افتحوا له، فإن كان الله ﷻ يريد بعمر خيراً اتبع الإسلام، وصدق
 الرسول، وإن كان يريد غير ذلك لم يكن قتله علينا هيناً، فابتدره رجال من أصحاب
 رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ يوحى إليه، فخرج رسول الله ﷺ حين سمع صوت عمر
 وليس عليه رداء حتى أخذ بمجمع قميص عمر وردائه، فقال له رسول الله ﷺ: «ما
 أراك منتهياً يا عمر حتى يترل الله بك من الرجز ما أنزل بالوليد بن المغيرة»، ثم قال:
 «اللهم اهد عمر». فضحك عمر، فقال: يا نبي الله أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن
 محمداً عبده ورسوله، وكبر أهل الإسلام تكبيرة واحدة سمعها من وراء الدار،
 والمسلمون يومئذ بضعة وأربعون رجلاً وإحدى عشرة امرأة.

الملحق رقم (٤) ذكر مؤاخاة النبي ﷺ

بين أصحابه المهاجرين قبل الهجرة و كان آخى بينهم على الحق والمواساة وذلك بمكة.

فآخى ﷺ بين نفسه وبين علي بن أبي طالب ﷺ، وآخى بين حمزة بن عبد المطلب رحمه الله وبين زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ. وهذا السبب خاصهم زيد علياً وجعفرأبني أبي طالب رحمهما الله في ابنة حمزة فدفعها رسول الله ﷺ إلى جعفر لأن نكاحها أسماء بنت عميس كانت عند جعفر، وآخى بين أبي بكر وعمر رحمهما الله، وبين عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف، وبين الزبير بن العوام وعبد الله بن مسعود، وبين عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب وبلال مولى أبي بكر، وبين مصعب بن عمير وسعد بن أبي وقاص، وبين أبي عبيدة بن الجراح وسالم مولى أبي حذيفة، وبين سعيد بن زيد وطلحة بن عبيد الله.

هذه مؤاخاة مكة:

فلما قدم النبي ﷺ إلى المدينة آخى بين المهاجرين والأنصار على الحق والمواساة وأن يتوارثوا بعد الممات دون ذوي الأرحام. فلم يمت أحد ممن كانت المؤاخاة بينه وبين صاحبه حتى نزلت سورة الأنفال فصارت الموارث للرحم دون المؤاخاة.

فآخى بين علي بن أبي طالب ﷺ وبين سهل بن حنيف وبين زيد بن حارثة وأسيد بن الحضير، وبين أبي مرثد الغنوي حليف حمزة بن عبد المطلب وبين عبادة بن الصامت، وبين مرثد بن أبي مرثد وأوس بن الصامت، وبين عبيدة بن الحارث بن المطلب الشهيد ببدر وبين عمير بن الحمام السلمي، وبين الطفيل بن الحارث بن المطلب

والمندر بن محمد بن عقبة بن أحيحة بن الجلاح، والحصين بن الحارث بن المطلب ورافع
ابن عنجدة، وبين عثمان بن عفان رحمه الله وأوس بن ثابت ويقال و[أبي] عبادة سعد
بن عثمان الزرقى، وبين شجاع بن وهب وأوس بن خولي، وبين عبد الله بن جحش
الأسدي وعاصم بن ثابت بن أبي الأفلح واسمه قيس، وبين محرز بن نضلة وعُمارة بن
حزم قتل باليمامة، وبين أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس وعبد بن بش بن
وقش، وبين سالم مولى أبي حذيفة ومعاذ بن ماعص، وبين عتبة بن غزوان وبين أبي
دجانة سمالك بن خرشة، وبين سعد مولى عتبة وقيم مولى خراش بن الصمة، وبين طليب
ابن عمير بن وهب والمندر بن عمرو، وبين الزبير بن العوام وكعب بن مالك، وبين
حاطب بن أبي بلتعة ورُخيلة بن يخلد، وبين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع،
وبين سعد بن أبي وقاص وسعد بن معاذ، وبين عبد الله بن مسعود ومعاذ بن جبل،
وبين عمير بن [عبد] عمرو بن نضلة الخزاعي وهوذ والشمالين حليف بني زهرة قتل
ببدر، وبين يزيد بن الحارث الذي يقال له ابن فُسْحَم قتل ببدر، وبين حَبَاب بن الأرت
وجَبَّار بن صخر، وبين المقداد بن عمرو وجبر بن عتيك، وبين عمير بن أبي وقاص
وقتل ببدر، وبين عمرو بن معاذ أخى سعد بن معاذ، وبين مسعود بن ربيع القاري
وبين عبيد بن الثَّيْهَان، وبين أبي بكر الصديق رحمه الله وبين خارجة بن زيد بن أبي
زهير، وبين طلحة بن عبيد الله وأبي بن كعب، وبين بلال مولى أبي بكر وأبي زرعة
الختعمي، وبين عامر بن فُهيرة والحارث بن أوس بن معاذ، وبين صهيب بن سنان
والحارث بن الصمة، وبين أبي سلمة بن عبد الأسد وسعد بن خيشمة، قتل ببدر، وبين
شماس بن عثمان بن الشريد وحنظلة بن أبي عامر، وبين الأرقم بن أبي الأرقم وأبي
طلحة زيد بن سهل، وبين عمار بن ياسر/ وحذيفة بن اليمان، وبين معتب بن حمراء
الخزاعي وثعلبة بن حاطب، وبين عمر بن الخطاب رحمه الله وعويم بن ساعدة، ويقال
عمر بن الخطاب ومعاذ بن عفراء، ويقال عمر وعُتَيان بن مالك، وبين زيد بن الخطاب

ومعن بن عدي قتلا باليمامة، وبين واقد بن عبد الله التميمي وحصن حليف بني عدي
وبشر بن البراء بن معرور، وبين عامر بن ربيعة العنزي حليف الخطاب ويزيد بن المنذر
ابن سرح، وبين سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ورافع بن مالك، وبين عاقل بن أبي
البكير، قتل ببدر وبين مبشر بن عبد المنذر قتل ببدر، ويقال بن مخدر بن زياد، وبين
عامر بن أبي البكير وثابت بن قيس بن شماس، وبين خالد بن أبي البكير وزيد بن الدثنة،
وبين إياس بن أبي البكير والحارث بن خزيمة، وبين عثمان بن مظعون وأبي الهيثم بن
التيهان، وبين عبد الله بن مظعون وسهل بن عبيد بن المعلّى، وبين السائب بن عثمان
وحارثة بن سارقة قتل ببدر، وبين معمر بن الحارث ومعاذ بن عفراء، وبين خنيس بن
حذافة وأبي عبيس بن جبر، وبين عبد الله بن مخزومة بن عبد العزى بن أبي قيس وفروة بن
عمرو، وبين أبي سيرة بن أبي رهم وسلمة بن سلامة بن وقش، وبين وهب بن سرح
وسويد بن عمرو، قتلا بمؤتة، وبين أبي عبيدة بن الجراح ومحمد بن مسلمة، وبين
صفوان بن بيضاء قتل ببدر ورافع بن المعلّى قتل ببدر، وبين سلمان الفارسي وأبي
الدرداء.

فكانت المؤاخاة قبل بدر ولم يكن بعد بدر مؤاخاة.

الملحق رقم (٥)

دستور الدولة

بسم الله الرحمن الرحيم

- ١- هذا كتاب من محمد النبي رسول الله بين المؤمنين والمسلمين من قريش، وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم.
- ٢- إنهم أمة واحدة من دون الناس.
- ٣- المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يقدون عانيهم بالمعروف، والقسط بين المؤمنين.
- ٤- وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- ٥- وبنو الحارث بن الخزرج على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- ٦- وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون على معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- ٧- وبنو جحشم على ربعتهم يتعاقلون على معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- ٨- وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون على معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- ٩- وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون على معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

- ١٠- وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون على معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- ١١- وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون على معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- ١٢- وأن المؤمنين لا يتركون مُفرحاً بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل.
- ١٢- وأن لا يحالف مؤمن مولى من دونه.
- ١٣- وأن المؤمنين المتقين «أيديهم» على كل من بغى منهم إن ابتغى دسيعة ظلم أو إثماً أو عدواناً أو فساداً بين المؤمنين وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم.
- ١٤- ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ولا ينصر كافراً على مؤمن.
- ١٥- وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدانهم وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس.
- ١٦- وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم.
- ١٧- وإن سلم المؤمنون واحدة لا يسلم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم.
- ١٨- وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً.
- ١٩- وإن المؤمنين يبئ بعضهم عن بعض مما نال دماؤهم في سبيل الله.
- ٢٠- وأنه لا يجير مشرك مאלاً لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن.
- ٢١- وأنه من اعتبط مؤمناً قتلاً عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولي المقتول (بالعقل) وأن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه.

٢٢- وأنه لا يحل للمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر
محدثاً أو يؤويه وأن من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا
يؤخذ منه صرف ولا عدل.

٢٣- وأن مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله وإلى محمد.

٢٤- وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

٢٥- وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم
وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته.

٢٦- وأن يهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف.

٢٧- وأن يهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف.

٢٨- وأن يهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف.

٢٩- وأن يهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف.

٣٠- وأن يهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف.

٣١- وأن يهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا
نفسه وأهل بيته.

٣٢- وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم.

٣٣- وأن لبني الشطبية مثل ما ليهود بني عوف، وأن البر دون الإثم.

٣٤- وأن موالي ثعلبة كأنفسهم.

٣٥- وأن بطانة يهود كأنفسهم.

٣٦- وأنه لا ينحجر على ثار جرح وأنه من فتك بنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظلم
وأن الله على أبر هذا.

٣٧- وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وأن بينهم لنصر على من حارب
أهل هذه الصحيفة وأن بينهم النصح والنصيحة وإلى دون الإثم.

- ٣٧- وأنه لا يأثم امرؤ بحليفه وأن النصر للمظلوم.
- ٣٨- وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.
- ٣٩- وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.
- ٤٠- وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم.
- ٤١- وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها.
- ٤٢- وأنه ما كان بين هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله (ﷺ) وأن الله على اتقى ما في هذه الصحيفة وأبره.
- ٤٣- وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها.
- ٤٤- وأن بينهم النصر على من دهم يثرب.
- ٤٥- وإذا دعوا إلى صلح يصالحون ويلبسونه فإنه يصالحونه ويلبسونه وأنهم إذا ما دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين.
- ٤٥- وعلى كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم.
- ٤٦- وأن يهود الأوس ومواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة وأن البر دون الإثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه وأن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره.
- ٤٧- وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم وأنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وآثم وأن الله جار لمن برّ واتقى ومحمد رسول الله (ﷺ).

الملحق رقم (٦)

كتب الرسول إلى ملوك ورؤساء القبائل
إلى النجاشي ملك الحبشة:

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى النجاشي عظيم الحبشة. سلام على من اتبع الهدى. أما بعد فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ٢٢ أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحسنة فحملت بعيسى من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده. وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاتة على طاعته وأن تتبعني وتوقن بالذي جاءني فإني رسول الله. وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل وقد بلغت ونصحت فاقبلوا (كذا) نصيحتي. والسلام على من اتبع (كذا) الهدى.

إلى المقوقس عظيم القبط

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد عبد الله ورسوله، إلى المقوقس عظيم القبط. سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين. فإن توليت، فعليك إثم القبط. «يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، أن لا نعبد إلا الله ولا نُشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون».

علامة الختم

الله

رسو

ل

إلى كسرى عظيم فارس

[بسم الله الرحمن الرحيم]

من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس:

سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله.

وأدعوك بدعاء الله فإني أنا رسولُ الله إلى الناس كافة، لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين. فأسلم تسلم؛ فإن أبيت فإن إثم الجوس عليك.

إلى المنذر بن سامري

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى:

سلام عليك. فإني أحمد الله إليك الذي لا إله غيره، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد: فإني أذكرك الله عز وجل، فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه، وإنه من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني ومن نصح لهم فقد نصح لي. وإن رُسلي قد أثنوا عليك خيراً. وإني قد شفعتك في قومك، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه. وعفوتُ عن أهل الذنوب، فأقبل منهم. وإنك مهما تصلح فلن نعتلك عن عملك. ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية.

علامة الختم

الله

رسو

ل

مكتوب المنذر إلى النبي ﷺ:

أما بعد يا رسول الله: فلاني قرأت كتابك على أهل البحرين فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه، ومنهم من كرهه. وبأرضي مجوس ويهود فأحدث في ذلك أمرك.



الملحق رقم (٨)

خطبة الوداع (من مصادر متنوعة)

(ويقال: لها حجة البلاغ، وحجة التمام، إذ لم يحج النبي ﷺ بعدها، وانتقل إلى الرفيق الأعلى).

من جبل الرحمة وقد نزل فيه الوحي مبشراً أنه:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾

[سورة المائدة: ٣] (وقد رواها جمع غفير من أرباب السير والأخبار وفي مقدمتهم عبد الملك بن هشام المعافري صاحب السيرة، واليعقوبي في تاريخه).

وهي:

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهدي الله فلا مضلّ له ومن يضلّ فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أوصيكم عباد الله بتقوى الله واحتكم على طاعته واستفتح بالذي هو خير.

أما بعد أيها الناس: اسمعوا مني أبين لكم فإني لا أدري لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقعي هذا.

أيها الناس: إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ألا هل بلغت، اللهم فاشهد.

فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها.

وأن ربا الجاهلية موضوع ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون
قضى الله أنه لا ربا وأن أول ربا ابداً به ربا عمي العباس بن عبد المطلب.

وأن دماء الجاهلية موضوعة وأن أول دم نبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وأن مائر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية.

والعمد قود وشبه العمد ما قتل بالعضا والحجر وفيه مائة بعير فمن زاد فهو من أهل الجاهلية، ألا هل بلغت اللهم فاشهد.

أما بعد، أيها الناس إن الشيطان قد ينس أن يعبد في أرضكم هذه ولكنه قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم.

أيها الناس إنما النسبي زيادة في الكفر تضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله.

وأن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض وأن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرام ثلاثة متواليات وواحد فرد ذو القعدة والحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان ألا هل بلغت، اللهم فاشهد.

أما بعد أيها الناس، إن لنسائكم عليكم حقاً ولكن عليهن حق لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم غيركم ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ولا يأتين بفاحشة فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتجهروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف.

واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً وأنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً ألا هل بلغت اللهم فاشهد.

أيها الناس، إنما المؤمنون إخوة، ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا بحر. دأب نفس منه ألا هل بلغت اللهم فاشهد.

فلا ترجعن بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض فإن تركت فيكم ما إن
أخذتم به لن تضلوا بعده كتاب الله وسنة نبيه ألا هل بلغت: اللهم فاشهد.

أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم وادم من تراب إن
أكرمكم عند الله أتقاكم وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى ألا هل بلغت
اللهم فاشهد قالوا: نعم قال: فليبلغ الشاهد الغائب.

أيها الناس، إن الله قد قسم لكل و ارث نصيبه من الميراث ولا يجوز لو ارث وصية
ولا يجوز وصية في أكثر من الثلث، والولد للفراش وللعاهر الحجر من ادعى إلى غير أبيه
أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل
والسلام عليكم.

الملحق رقم (٩)
وصية أبي بكر في استخلاف عمر

بسم الله الرحمن الرحيم.

هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجاً منها، وعند أول عهده بالآخرة داخلاً فيها، حيث يؤمن الكافر، ويوقن المرتاب الفاجر، ويصدق الشاكّ المكذب:

إني استخلفتُ عليكم بعدي عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا. فإن لم آل الله، ورسوله، ودينه، ونفسي، وإياكم خيراً. فإن عدل فذاك ظني به وعلمي فيه. وإن بدّل فلكل امرئ ما اكتسب. والخير أردتُ. وما يعلم الغيب إلا الله. وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.
(ثم أمر بالكتاب فختم)

الملحق رقم (١١)

العهد الذي كتبه الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام إلى الأشتر النخعي حين

ولاه على مصر

(من كتاب نهج البلاغة)

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أمر به عبد الله علي أمير المؤمنين، مالك بن الحارث الأشتر في عهده إليه، حين ولاه مصر: جباية خراجها، وجهاد عدوها، واستصلاح أهلها، وعمارة بلادها. أمره بتقوى الله، وإيثار طاعته، — واتباع ما أمر به في كتابه: من فرائضه وسننه، التي لا يسعد أحد إلا باتباعها، ولا يشقى إلا مع جحودها وإضاعتها، وأن ينصر الله سبحانه بقلبه ويده ولسانه، فإنه، جل اسمه، قد تكفل بنصر من نصره، وإعزاز من أعزه.

وأمره أن يكسر نفسه من الشهوات، ويرزعها عند الجمحات، فإن النفس أماراة بالسوء، إلا ما رحم الله.

ثم أعلم يا مالك، أي قد وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول قبلك، من عدل وجور، وأن الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاية قبلك، ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم، وإنما يُستدل على الصالحين بما يجري الله لهم على السنن عباده، فليكن أب الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح، فاملك هواك، وشح بنفسك عما لا يحل لك، فإن الشح بالنفس الإنصاف منها فيما أحببت أو كرهت. وأشعر قلبك الرحمة للرعية، والمحبة لهم، واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعا ضارياً تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق، يفرط منهم

الزلل، وتعرض لهم العلل، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تُحب وترضى أن يعطي الله من عفوه وصفحه، فإنك فوقهم، ووالي الأمر عليك فوقك، والله فوق من ولاك! وقد استكفأك أمرهم، وابتلاك بهم. ولا تنصب نفسك لحرب الله فإنه لا يد لك بنقمته، ولا غنى بك عن عفوه ورحمته. ولا تندم على عفوك، ولا تبجحن بعقوبة، ولا تُسرعن على بادرة وجدت منها مندوحة، ولا تقولن: إني مؤمر أمر فأطاع، فإن ذلك إدغال في القلب، ومنهكة للدين، وتقرب من الغير. وإذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أبهة أو مخيلة، فانظر إلى عظم ملك الله فوقك، وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك، فإن ذلك يُطامن إليك من طمأك، ويكف عنك من غربك، ويقيء إليك بما عزب عنك من عقلك! إياك ومساماة الله في عظمته، والتشبه به في جبروته، فإن الله يُذل كل جبار، ويُهين كل مختال.

أنصف الله وأنصف الناس من نفسك، ومن خاصة أهلك. ومن لك فيه هوى من رعبتك، فإنك لا تفعل تظلم! ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده. ومن خصمه الله أدهض حخته وكان لله حرباً حتى يترع أو يتوب. وليس شيء أدهى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم، فإن الله سميع دعوة المضطهدين، وهو للظالمين بالمرصاد.

وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق، وأعمها في العدل، وأجملها لرضى الرعية، فإن سحق العامة يحسف برضى الخاصة، وإن سحق الخاصة يُغتفر مع رضى العامة. وليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مؤونة في الرخاء، وأقل معونة له في البلاء، وأكره للإنصاف، وأسأل بالإلحاف، وأقل شكراً عند الإعطاء، وأبطأ عذراً عند المنع، وأضعف صبراً عند ملهمات الدهر من أهل الخاصة. وإنما عباد الدين، وجماع المسلمين، والعدة للأعداء، العامة من الأمة، فليكن صغوك لهم، وميلك معهم.

وليكن أبعد رعيّتك منك، وأشنأهم عندك، أطلبهم لمعائب الناس، فإن في الناس عيوباً، الوالي أحق من سترها، فلا تكشف عنك منها، فإنما عليك تطهير ما ظهر لك، والله يحكم على ما غاب عنك، فاستر العورة ما استطعت يستر الله منك ما تُحب ستره من رعيّتك. أطلق عن الناس عقدة كل حقد، واقطع عنك سبب كل وتر، وتغاب عن كل ما لا يضح لك، ولا تعجلن إلى تصديق ساع، فإن الساعي غاش، وإن تشبه بالناصحين.

ولا تدخلن في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفضل، ويعدك الفقر، ولا جباناً يضعفك عن الأمور، ولا حريصاً يزين لك الشره بالجور، فإن البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله.

إن شر وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيراً، ومن شركهم في الآثام فلا يكونن لك بطانة، فإنهم أعوان الأئمة، وإخوان الظلمة، وأنت واجد منهم خير الخلف ممن له مثل آرائهم ونفادهم، وليس عليه مثل آصارهم وأوزارهم وآثامهم، ممن لم يُعاون ظالماً على ظلمه، ولا ألماً على إثمه: أولئك أخف عليك مؤونة، وأحسن لك معونة، وأحس عليك عطفاً، وأقل لغيرك إلفاً، فاتخذ أولئك خاصة لخلواتك وحفلاتك، ثم ليكن آثرهم عندك أقولهم. يمر الحق لك، وأقلهم مساعدة فيما يكون منك مما كره الله لأوليائه، واقعاً ذلك من هواك حيث وقع. والصق بأهل الورع والصدق؛ ثم رضهم على ألا يطروك ولا يبجحوك بباطل لم تفعله، فإن كثرة الإطراء تُحدث الزهو، وتدني من العزة.

ولا يكونن المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء، فإن في ذلك ترهيداً لأهل الإحسان في الإحسان، وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة والزم كلاً منهم ما ألزم نفسه. واعلم أنه ليس شيء بأدعى إلى حسن ظن راع برعيته من إحسانه إليهم، وتخيفه المؤونات عليهم، وترك استكراهه إياهم على ما ليس له قبلهم. فليكن منك في ذلك أمر يجتمع لك به حسن الظن برعيّتك، فإن حسن الظن يقطع عنك نصيباً طويلاً. وإن أحق من

حسن ظنك به لمن حسن بلاؤك عنده، وإن أحق من ساء ظنك به لمن ساء بلاؤك عنده.

ولا تنقض سنة صالحة عمل بها صدور هذه الأمة، واجتمعت بها الألفة، وصلحت عليها الرعية. ولا تُحدثن سنة تضر بشيء من ماضي تلك السنن، فيكون الأجر لمن سنّها، والوزر عليك بما نقضت منها.

وأكثر مدارس العلماء، ومناقشة الحكماء، في تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك، وإقامة ما استقام به الناس قبلك.

وأعلم أن الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض، ولا غنى ببعضها عن بعض: فمنها جنود الله، ومنها كتاب العامة والخاصة، ومنها قضاة العدل، ومنها عمال الإنصاف والرفق، ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسلمة الناس، ومنها التجار وأهل الصناعات ومنها الطبقة السفلى من ذوي الحاجة والمسكنة، وكل قد سمى الله له سهمه، ووضع على حده فريضة في كتابه أو سنة نبيه ﷺ — عهداً منه عندنا محفوظاً.

فالجنود، بإذن الله، حصون الرعية، وزين الولاية، وعز الدين، وسبل الأمن، وليس تقوم الرعية إلا بهم. ثم لا قوام للجنود إلا بما يخرج الله لهم من الخراج الذي يقوون به على جهاد عدوهم، ويعتمدون عليه فيما يصلحهم، ويكون من وراء حاجتهم. ثم لا قوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتاب، لما يحكمون من المعاهد ويجمعون من المنافع، ويؤمنون عليه من خواص الأمور وعوامها. ولا قوام لهم جميعاً إلا بالتجار وذوي الصناعات، فيما يجتمعون عليه من مرافقهم، وقيمونه من أسواقهم، ويكفونهم من الترفق بأيديهم ما لا يبلغه رفق غيرهم. ثم الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة الذين يحق رفدهم ومعونتهم. وفي الله لكل سعة، ولكل على الوالي حق بقدر ما يصلحه، وليس يخرج الوالي من حقيقة ما ألزمه الله ذلك إلا

بالاهتمام والاستعانة بالله، وتوطين نفسه على لزوم الحق، والصبر عليه فيما خف عليه أو ثقل. فوَلِّ من جنودك أنصحهم في نفسك لله ولرسوله وإمامك، وأنقاهم جيئاً، وأفضلهم حلماً، ممن يبطئ عن الغضب، ويستريح إلى العذر، ويرأف بالضعفاء، وينبو على الأقوياء، ومن لا يثيره العنف، ولا يقعد به الضعف.

ثم الصق بذوي المروءات والأحساب، وأهل البيوتات الصالحة، والسوابق الحسنة، ثم أهل النجدة والشجاعة، والسناء والسماحة؛ فإلهم جماع من الكرم، وشعب من العرف، ثم تفقد من أمورهم ما يتفقده الوالدان من ولدهما، ولا يتفاقم في نفسك شيء قويتهم به، ولا تحقرن لطفاً تهديهم به وإن قل، فإنه داعية لهم إلى بذل النصيحة لك، وحسن الظن بك. ولا تدع تفقد لطيف أمورهم اتكالا على جسيمها، فإن ليسر من لطفك موضعاً ما ينتفعون به، وللجسيم موقعاً لا يستغنون عنه.

وليكن أثر رؤوس جنودك عندك من وإساهم في معونته، وأفضل عليهم من جدته، بما يسعهم ويسع من ورائهم من خلوف أهليهم، حتى يكون همهم هماً واحداً في جهاد العدو؛ فإن عطفك عليهم يعطف قلوبهم عليك، وإن أفضل قرة عين الولاة استقامة العدل في البلاد، وظهور مودة الرعية، وإنه لا تظهر مودتهم إلا بسلامة صدورهم، ولا تصح نصيحتهم إلا بحيطتهم على ولاة الأمور، وقلة استئثار دولهم، وترك استبطاء انقطاع مدتهم، فافسح في آماهم، وواصل في حسن الثناء عليهم، وتعديد ما أبلى ذور البلاء منهم؛ فإن كثرة الذكر لحسن أفعالهم تهب الشجاع، وتخرض الناكل، إن شاء الله. ثم اعرف لكل امرئ منهم ما أبلى ولا تضمن بلاء امرئ إلى غيره، ولا تقصرن به دون غاية بلاءه، ولا يدعونك شرف امرئ إلى أن تعظم من بلاءه ما كان صغيراً، ولا ضعة امرئ إلى أن تستصغر من بلاءه ما كان عظيماً.

واردد إلى الله ورسوله ما يُضلعك من الخطوب، ويشتهه عليك من الأمور؛ فقد قال الله تعالى لقوم أحب إرشادهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ فالرد إلى الله: الأخذ بحكم كتابه، والرد إلى الرسول: الأخذ بسنته الجامعة غير المفرقة.

ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيته في نفسك، ممن لا تضيق به الأمور، ولا تمحكه الخصوم، ولا يتمادى في الزلة، ولا يحصر من الفيء إلى الحق إذا عرفه، ولا تُشرف نفسه على طمع، ولا يكتفي بأدنى فهم دون أقصاه، وأوقفهم في الشبهات، وأخذهم بالحجج، وأقلهم تبرماً بمراجعة الخصم، وأصبرهم على كشف الأمور، وأصبرهم عند اتضاح الحكم، ممن لا يزيده إطرأ، ولا يستمليه إغراء، وأولئك قليل. ثم أكثر تعاهد قضائه، وأفسح له البذل ما يزيل علتة، وتقل معه حاجته إلى الناس. وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك، ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك. فانظر في ذلك نظراً بليغاً، فإن هذا الدين قد كان أسيراً في أيدي الأشرار، يُعمل فيه باهوى، وتطلب به الدنيا.

ثم أنظر في أمور عمالك فاستعملهم اختباراً، ولا تولهم محابة وأثرة، فإنهما جماع من شعب الجور والخيانة. وتوخ منهم أهل التجربة والحياء، من أهل البيوتات الصالحة، والقدم في الإسلام المتقدمة، فإنهم أكرم أخلاقاً، وأصح أعراضاً، وأقل في المطامع إشراقاً، وأبلغ في عواقب الأمور نظراً، ثم أسبغ عليهم الأرزاق، فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم، وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم، وحجة عليهم إن خالفوا أمرك أو ثلموا أمانتك. ثم تفقد أعمالهم، وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم، فإن تعاهدك في السر لأموالهم حدودهم على استعمال الأمانة، والرفق بالرعية، وتحفظ من الأعوان؛ فإن أحد منهم بسط يده إلى خيانة اجتمعت بها عليه عندك أخبار عيونك،

اكتفيت بذلك شاهداً، فبسطت عليه العقوبة في بدنه، وأخذته بما أصاب من عمله، ثم نصبته بمقام المذلة، ووسمته بالخيانة، وقلدته عار التهمة.

وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله، فإن في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم، لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله. وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استحلاب الخراج، لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة؛ ومن طلب الخراج بغير عمارة أحرب البلاد، وأهلك العباد، ولم يستقم أمره إلا قليلاً. فإن شكوا ثقلأً أو علة، أو انقطاع شرب أو بالة، أو إحالة أرض اغتمرها غرق، أو أجحف بها عطش، خففت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم، ولا يثقلن عليك شيء خففت به المؤونة عنهم، فإنه ذخر يعودون به عليك في عمارة بلادك، وتزيين ولايتك، مع استحلابك حسن ثنائهم، وتبجحك باستفاضة العدل فيهم، معتمداً فضل قوتهم، بما ذخرت عندهم من إجمامك لهم، والثقة منهم بما عودته من عدلك عليهم ورفقك بهم. فربما حدث من الأمور ما إذا عولت فيه عليهم من بعد احتملوه طيبة أنفسهم به؛ فإن العمران محتمل ما جملته، وإنما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها. وإنما يعوز أهلها لإشراف أنفس الولاة على الجمع وسوء ظنهم بالبقاء، وقلة انتفاعهم بالعبء.

ثم انظر في حال كتابك، فول على أمورك خيرهم، واخصص رسائلك التي تدخل فيها مكائدها وأسرارك بأجمعهم لوجوه صالح الأخلاق ممن لا تبطره الكرامة، فيحترئ بها عليك في خلاف لك بحضرة ملاء، ولا تقصر به الغفلة عن إيراد مكاتبات عمالك عليك، وإصدار جواباتها على الصواب عنك، فيما يأخذ لك ويعطي منك، ولا يضعف عقداً اعتقده لك، ولا يعجز عن إطلاق ما عقد عليك، ولا يجهل مبلغ قدر نفسه في الأمور، فإن الجاهل بقدر نفسه يكون بقدر غيره أجهل. ثم لا يكن اختيارك إياهم على فراستك واستنامتك وحسن الظن منك، فإن لارجال يتعرضون لفراسات الولاة بتصنعهم وحسن خدمتهم، وليس وراء ذلك من النصيحة والأمانة شيء. ولكن

اختبرهم بما ولوا للصالحين قبلك، فاعمد لأحسنهم كان في العامة أئراً، وأعرفهم بالأمانة وجهاً، فإن ذلك دليل على نصيحتك لله ولمن وليت أمره. واجعل لرأس كل أمر من أمورك رأساً منهم. لا يقهره كبيرها. ولا يتشتت عليه كثيرها، ومهما كان في كتابك من عيب فتغايبت عنه ألزمته.

ثم استوص بالتجار وذوي الصناعات، وأوص بهم خيراً: المقيم منهم والمضطرب بماله، والمترفق ببدنهم فإفهم مواد المنافع، وأسباب المرافق، وجلاها من المباعد والمطارح، في برك و بحرك، وسهلك وجبلك، وحيث لا يلتئم الناس لمواضعها، ولا يجترؤون عليها فإفهم سلم لا تخاف بائقته، وصلاح لا تخشى غائلته. وتفقد أمورهم بحضرتك وفي حوشاي بلادك. واعلم — مع ذلك — أن في كثير منهم ضيقاً فاحشاً، وشحاً قبيحاً، واحتكاراً للمنافع، وتحكماً في البياعات، وذلك باب مضرة للعامة، وعيب على الولاة. فامنع من الاحتكار، فإن رسول الله ﷺ — منع منه. وليكن البيع بيعاً سمحاً: بموازين عدل، وأسعار لا تححف بالفريقين من البائع والمبتاع. فمن قارف حكره بعد هيك إياه فنكل به، وعاقبه في غير إسراف.

ثم الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم، من المساكين والمحتاجين وأهل البؤسى والزمنى، فإن في هذه الطبقة قانعاً ومعتراً، واحفظ الله ما استحفظك من حقه فيهم، واجعل لهم قسماً من بيت مالك، وقسماً من غلات صوافي الإسلام في كل بلد، فإن للأقصى منهم مثل الذي للأدنى، وكل قد استرعيت حقه؛ فلا يشغلنك عنهم بطر، فإنك لا تعذر بتضييعك التافه لإحكامك الكثير المهم. فلا تُشخص همك عنهم، ولا تصعر خدك لهم، وتفقد أمور من لا يصل إليك منهم ممن تقتحمه العيون، وتحقره الرجال؛ ففرغ لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع، فليرفع إليك أمورهم، ثم اعمل فيهم بالإعذار إلى الله يوم تلقاه، فإن هولاء من بين الرعية أحوج إلى الإنصاف من غيرهم، وكل فاعذر إلى الله في تأدية حقه إليه. وتعهد أهل اليتيم وذوي الرقة في السن

ممن لا حيلة له، ولا ينصب للمسألة نفسه، وذلك على الولاة ثقيل، والحق كله ثقيل، وقد يخففه الله على أقوام طلبوا العاقبة فصبروا أنفسهم، ووثقوا بصدق موعود الله لهم. واجعل لذوي الحاجات منك قسماً تفرغ لهم فيه شخصك، وتجلس لهم مجلساً عاماً فتتواضع فيه لله الذي خلقتك، وتقعد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشرطك، حتى يكلمك متكلمهم غير متتبع، فإني سمعت رسول الله ﷺ — يقول في غير موطن: «لن تقدس أمة لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوي غير متتبع». ثم احتمل الخرق منهم والعبي، ونح عنهم الضيق والأنف يسط الله عليك بذلك أكفاف رحمته، ويوجب لك ثواب طاعته. وأعط ما أعطيت هنيئاً، وامنع في إجمال وإعذار. ثم أمور من أمورك لا بد لك من مباشرها منها إجابة عمالك بما يعيا عنه كتابك، ومنها إصدار حاجات الناس يوم ورودها عليك بما تخرج به صدور أعوانك. وأمض لكل يوم عمله، فإن لكل يوم ما فيه. واجعل لنفسك فيما بينك وبين الله أفضل تلك المواقيت، وأجزل تلك الأقسام، وإن كانت كلها لله إذا صلحت فيها النية، وسلمت منها الرعية.

وليكن في خاصة ما تخلص به لله دينك: إقامة فرائضه التي هي له خاصة، فاعط الله من بدنك في ليلك ونهارك، ووف ما تقربت به إلى الله من ذلك كاملاً غير مثلوم ولا منقوص. بالغاً من بدنك ما بلغ. وإذا قمت في صلاتك للناس، فلا تكونن منفراً ولا مضيعاً، فإن في الناس من به العلة وله الحاجة. وقد سألت رسول الله ﷺ — حين وجهني إلى اليمن كيف أصلي بهم؟ فقال: «صل بهم كصلاة أضعفهم، وكن بالمؤمنين رحيماً».

وأما بعد، فلا تطولن احتجاجك عن رعيتك، فإن احتجاج الولاة عن الرعية شعبة من الضيق، وقلة علم بالأمور؛ والاحتجاج منهم يقطع عنهم علم ما احتجوا دونه فيصغر عندهم الكبير، ويعظم الصغير، ويقبح الحسن، ويحسن القبيح، ويثاب الحق بالباطل. وإنما الوالي بشر لا يعرف ما توارى عنه الناس به من الأمور، وليست على الحق سمات تُعرف بها

ضروب الصدق من الكذب، وإنما أنت أحد رجلين: إما امرؤ سخت نفسك بالبلد في الحق، ففهم احتجاجك من واجب حق تعطيه، أو فعل كريم تُسديه! أو مبتلى بالمنع، فما أسرع كف الناس عن مسألتك إذا أيسوا من بذلك! مع أن أكثر حاجات الناس إليك مما لا مؤونة فيه عليك، من شكاة مظلومة أو طلب إنصاف في معاملة.

ثم إن للوالي خاصة وبطانة، فيهم استشار وتطاول، وقلة إنصاف في معاملة، فاحسم مادة أولئك بقطع أسباب تلك الأحوال، ولا تقطعن لأحد من حاشيتك وحامتك قطيعة، ولا يطمعن منك في اعتقاد عُقدة، تضر بمن يليها من الناس، في شرب أو عمل مشترك، يحملون مؤونته على غيرهم، فيكون مهناً ذلك لهم دونك، وعيبه عليك في الدنيا والآخرة. وألزم الحق من لزمه من القريب والبعيد، وكن في ذلك صابراً محتسباً، واقعاً ذلك من قرابتك وخاصتك حيث وقع، وابتغ عاقبته بما يثقل عليك منه، فإن مغبة ذلك محمود.

وإن ظنت الرعية بك حيفاً فأصحر لهم بعذر، وأعدل عنك ظنهم بإصهارك، فإن في ذلك رياضة منك لنفسك، ورفقاً برعيتك، وإعذاراً تبلغ به حاجتك من تقويمهم على الحق.

ولا تدفعن صلحاً دعاك إليه عدوك والله فيه رضى، فإن في الصلح دعة لجنودك، وراحة من همومك، وأمناً لبلادك، ولكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحه، فإن العدو ربما قارب ليتغفل فخذ بالحزم، واتهم في ذلك حسن الظن. وإن عقدت بينك وبين عدوك عُقدة، أو ألبسته منك ذمة، فحط عهدك بالوفاء، وارع ذمتك بالأمانة، واجعل نفسك جنة دون ما أعطيت، فإنه ليس من فرائض الله شيء الناس أشد عليه اجتماعاً، مع تفرق أهوائهم، وتششت آرائهم، من تعظيم الوفاء بالعهود. وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين لما استولوا من عواقب الغدر؛ فلا تغدروا بذمتك، ولا تخيسن بعهدك، ولا تختلن عدوك، فإنه لا يجترئ على الله إلا جاهل شقي. وقد

جعل الله عهده وذمته أمناً أفضاه بين العباد برحمته، وحرماً يسكنون إلى منعه، ويستفيضون إلى حوارك؛ فلا إدغال ولا مدالسة ولا خداع فيه، ولا تعقد عقداً تجوز فيه العلل، ولا تعولن على لحن قول بعد التأكيد والثبوت. ولا يدعونك ضيق أمر، لزمت فيه عهد الله، إلى طلب انفساخه بغير الحق، فإن صبرك على ضيق أمر ترجو انفراجه وفضل عاقبته، خير من غدر تخاف تبعته، وأن تحيط بك من الله فيه طلبه، ولا تستقبل فيها دنياك ولا آخرتك.

إياك والدماء وسفكها بغير حلها، فإنه ليس شيء أدنى للنقمة، ولا أعظم لتبعة، ولا أخرى بزوال نعمة، وانقطاع مدة، من سفك الدماء بغير حقها. والله سبحانه مبتدئ بالحكم بين العباد، فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة؛ فلا تقوين سلطانك بسفك دم حرام، فإن ذلك مما يضعفه ويوهنه، بل يزيله وينقله. ولا عذر لك عند الله ولا عندي في قتل العمد، لأن فيه قود البدن. وإن ابتليت بخطاً وأفرط عليك سوطك أو سيفك أو يدك بالعقوبة؛ فإن في الوكرة فما فوقها مقتلة، فلا تطمحن بك نخوة سلطانك عن أن تودي إلى أولياء المقتول حقهم.

وإياك والإعجاب بنفسك، والثقة بما يعجبك منها، وحب الإطراء، فإن ذلك من أوثق فرص الشيطان في نفسه ليمحق ما يكون من إحسان المحسنين.

وإياك والمن على رعبتك بإحسانك، أو التزيد فيما كان من فعلك، أو أن تعدهم فتتبع موعذك بخلفك، فإن المن يبطل الإحسان، والتزيد يذهب بنور الحق، والخلف يوجب المقت عند الله والناس. قال الله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

وإياك والعجلة بالأمر قبل أوانها، أو التسقط فيها عند إمكانها، أو الحاجة فيها إذا تنكرت، أو الوهن عنها إذا استوضحت. فضع كل أمر موضعه، وأوقع كل أمر موقعه.

وإياك والاستئثار بما الناس فيه أسوة، والتغاي عما تُعنى به مما قد وضع للعيون، فإنه مأخوذ منك لغيرك، وعما قليل تنكشف عنك أغطية الأمور، ويتصف منك للمظلوم. أملك حمية أنفك، وسورة حدك، وسطوة يدك. وغرب لسانك، واحترس من كل ذلك بكف البادرة. وتأخير السطوة، حتى يسكن غضبك فتملك الاختيار: ولن تحكم ذلك من نفسك حتى تُكرث همومك بذكر المعاد إلى ربك.

والواجب عليك أن تتذكر ما مضى لمن تقدمك من حكومة عادلة، أو سنة فاضلة، أو أثر عن نبينا — ﷺ — أو فريضة في كتاب الله فتقتدي بما شاهدت مما عملنا به فيها، وتجتهد لنفسك في اتباع ما عهدت إليك في عهدي هذا، واستوثقت به من الحجة لنفسك عليك، لكيلا تكون لك علة عند تسرع نفسك إلى هواها. وأنا أسأل الله بسعة رحمته، وعظيم قدرته على إعطاء كل رغبة، أن يوفقني وإياك لما فيه رضاه من الإقامة على العذر الواضح إليه وإلى خلقه، مع حسن الشاء في العباد، وجميل الأثر في البلاد، وتمام النعمة، وتضعيف الكرامة، وأن يختم لي ولك بالسعادة والشهادة، ﴿وَإِنَّا إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾. والسلام على رسول الله — ﷺ — وآله وسلم — الطيبين الطاهرين، وسلم تسليمًا كثيرًا، والسلام.

الملحق رقم (١٢)

العهد العمرية

(بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عبد الله أمير المؤمنين عمر أهل إيلياء من الأمان أعطاهم أماناً لأنفسهم، وأموالهم، ولكنائسهم، ولصلبائهم، ومقيمها، وبريها، وسائر ملتها أن لا تسكن كنائسهم، ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من حدها، ولا من صليبهم، ولا شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية، كما يعطي أهل المدائن، وعلى أن يخرجوا منها الروم، واللصوص، فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه، وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه، وماله مع الروم، ويخلي بيعتهم، وصليبهم، فإنهم آمنون على أنفسهم، وعلى بيعتهم، وصليبهم حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان فيها من أهل الأرض، فمن شاء منهم قعد، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أرضه، فإنه لا يؤخذ منه شيء حتى يحصد حصادهم، وعلى ما في هذا الكتاب، وذمته، وذمة رسول الله ﷺ، وذمة الخلفاء، وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمر بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان).

الملحق رقم (١٣)

الخطبة البتراء التي ألقاها زياد بن أبيه

(من البيان والتبيين للجاحظ)

الحمد لله على أفضاله وإحسانه، ونسأله المزيد من نعمه وإكرامه. اللهم كما زدتنا نعماً فألهمنا شكراً.

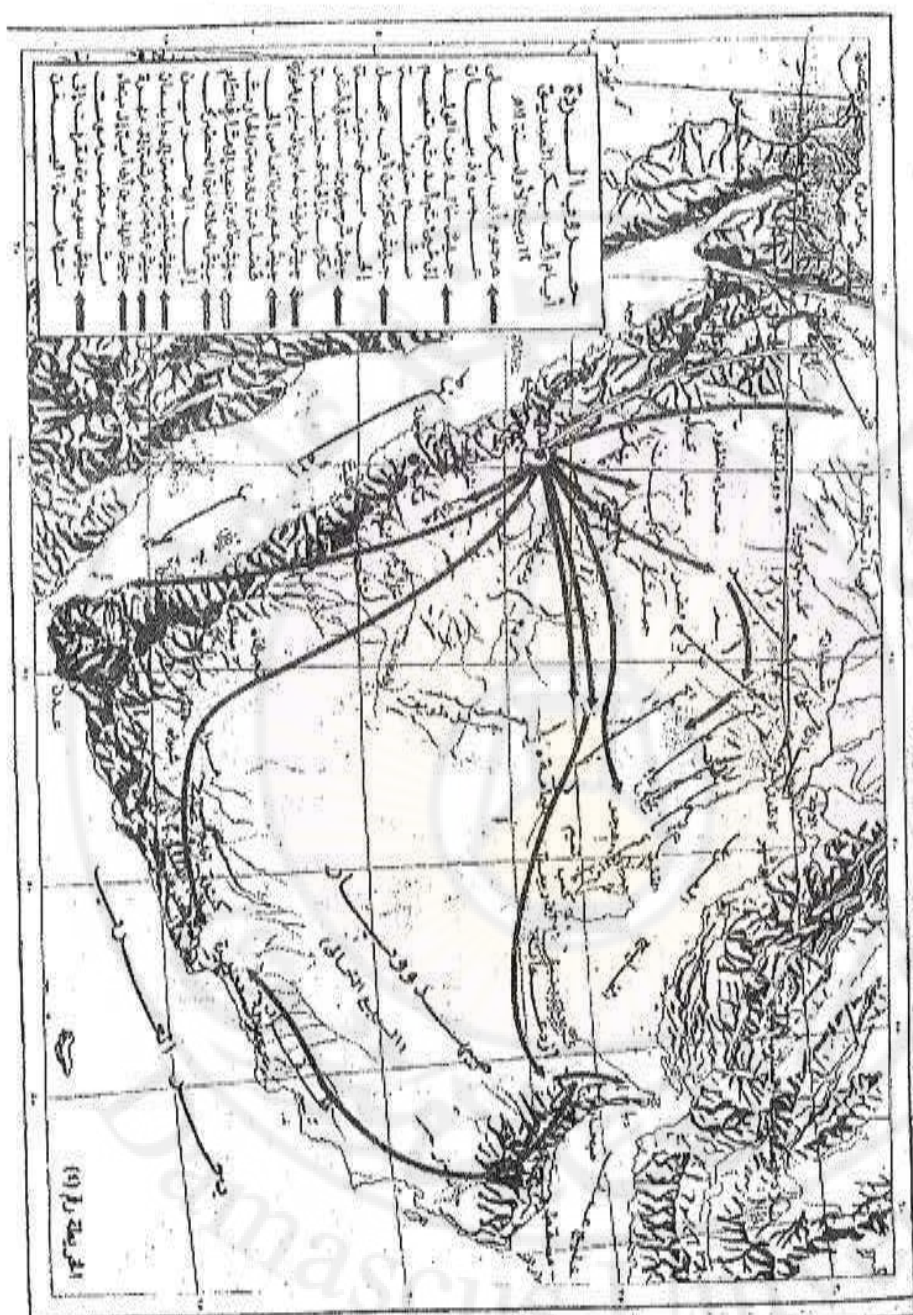
أما بعد: فإن الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء والغي الموفى بأهله على النار ما فيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور العظام ينبت فيها الصغير ولا يتحاشى عنها الكبير، كأنكم لم تقرأوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أعد من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب الأليم لأهل معصيته في الزمن السرمدي الذي لا يزول؟ أتكونون كمن طرفت عينه الدنيا وسدت مسامعه الشهوات واختار الفانية على الباقية، ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا إليه من ترككم الضعيف يقهر ويؤخذ ماله، وهذه المواخر المنصوبة والضعيفة المسلوطة في النهار المبصر والعدد غير قليل؟ ألم تكن منكم فلاة تمنع الغواة عن دج الليل وغارة النهار؟ قريتم القرابة وباعدتم الدين، تعتذرون بغير العذر وتغضون على المختلس. أليس كل امرئ منكم يذب عن سفيهه؟ صنع من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معاداً. ما أنتم بالحلماء ولقد اتبعتم السفهاء. فلم يزل بكم ما ترون من قيامكم دولجهم حتى انتهكوا حرم الإسلام ثم أظرقوا وراءكم كنوساً في مكانس الريب. حرام على الطعام الشراب حتى أسويها بالأرض هدماً وإحراقاً. إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما يصلح به أوله: لين في غير ضعف وشدة من غير عنف: وإني أقسم بالله لا أجدن الولي بالمولى والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدير، والمطيع بالعاصي، والصحيح منكم في نفسه بالسقيم حتى يلقي الرجل منكم أحاه فيقول: انج سعد فقد هلك سعيد، أو تستقيم لي قناتكم. إن كذبته المنبر

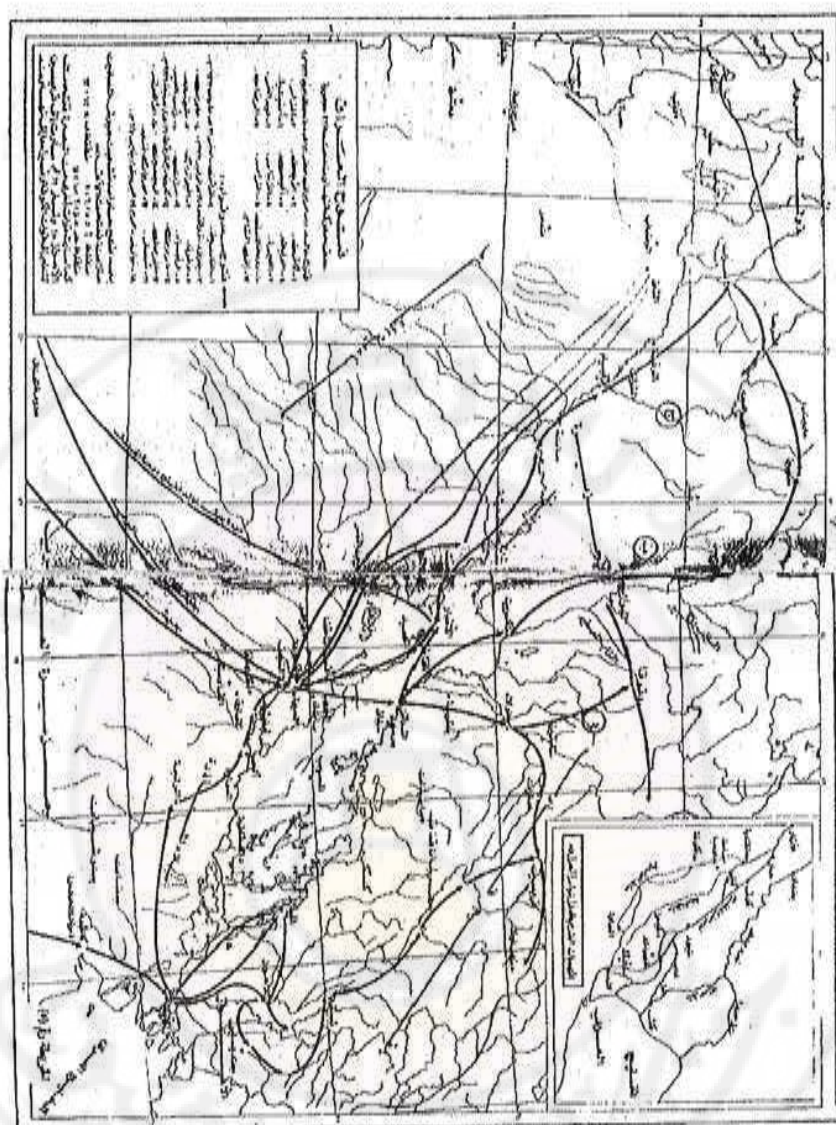
بلقاء مشهورة، فإذا تعلقتم علي بكذبة فقد حلت لكم معصيتي، وإذا سمعتموها مني
فاغتمزوها في واعلموا أن عندي أمثالها. من نُقب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب منه.
فإياي ودلج الليل، فإني لا أوتي بمدلج إلا سفكت دمه، وقد أجلتكم في ذلك بمقدار ما
يأتي الخير الكوفة ويرجع إليكم. وإياي ودعوة الجاهلية فإني لا آخذ داعياً بها إلا قطعت
لسانه، وقد أحدثتم أحداثاً وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة. من غرق قوماً غرقناه، ومن
أحرق قوماً أحرقناه، ومن نقب بيتاً نقبنا عن قلبه، ومن نبش قبراً دفناه فيه حياً، فكفوا
عني أيديكم وألسنتكم أكفف عنكم يدي ولساني، ولا تظهروا على أحد منكم ريبة
بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه. وقد كانت بيني وبين أقوام إحسن فجعلت
ذلك دبر أذني وتحت قدمي، فمن كان منكم محسناً فليزدد إحساناً ومن كان منكم
مسيئاً فليترع عن إساءته. إني والله لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضي لم
أكشف له قناعاً ولم أهلك له سترأ حتى ييدي لي صفحته، فإذا فعل ذلك لم أناظره.
فاستأنفوا أموركم وارعوا على أنفسكم، فرب مسوء بقدمونا سنسره ومسروء بقدمونا
سنسروه.

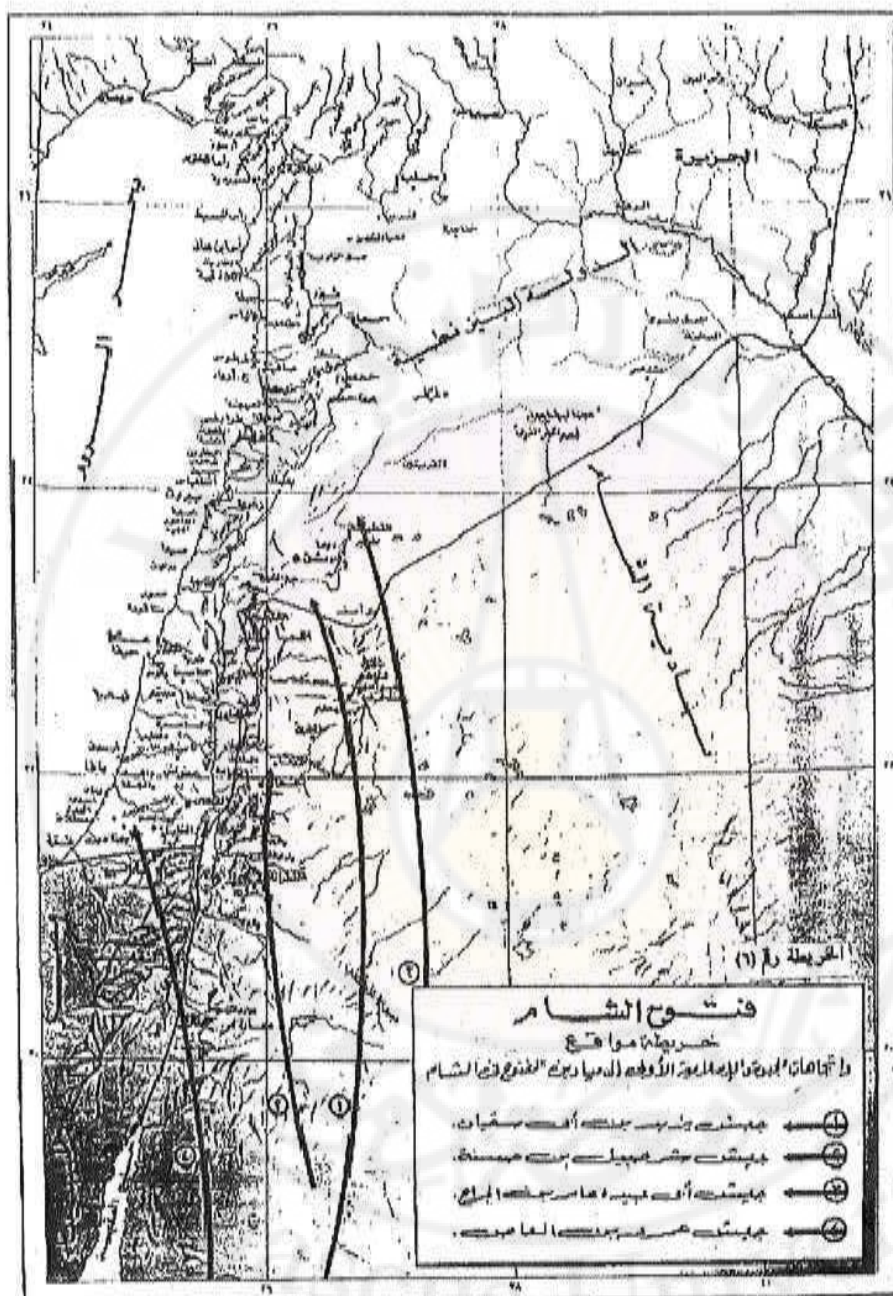
أيها الناس: إنا أصبحنا لكم سادة، وعنكم ذادة، نسوسكم بسلطان الله الذي
أعطانا ونلدود عنكم بفيء الله الذي حولنا، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحيينا،
ولكم علينا العدل والإنصاف فيما ولينا، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا.
واعلموا أني مهما قصرت عنه فلن أقصر لثلاث: لست محتجياً عن طالب حاجة
منكم ولو أتاني طارقاً بليل؛ ولا حابساً عطاء ولا رزقاً عن إبانته، ولا مجمراً لكم بعثاً.
فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم فإنهم ساستكم المؤدبون لكم وكهفكم الذي إليه
تأوون، ومن يصلحوا تصلحوا، ولا تشربوا قلوبكم بعضهم فيشتد لك غيظكم
ويطول له حزنكم ولا تدركوا به حاجتكم، مع أنه لو استحيب لكم فيها لكان شراً
لكم.

اسأل الله أن يعين كلاً على كل، وإذا رأيتموني أنفذ فيكم الأمر فأنفذوه على
إذلاله. وأتم الله أن لي فيكم لصرعى كثيرة فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من
صرعاي.









المصادر والمراجع

- ابن الأثير، (علي بن أحمد):
 - ١- أسد الغابة في معرفة الصحابة، بيروت، دار إحياء التراث.
 - الأبهسي، (شهاب الدين):
 - ٢- المستطرف في كل فن مستظرف، القاهرة ١٣٧١هـ.
 - ابن آدم، (يحيى):
 - ٣- الخراج، صححه أحمد محمد شاكر، القاهرة، المطبعة السلفية ١٣٤٧هـ.
 - الأزدي، (محمد بن عبد الله):
 - ٤- فتوح الشام، تحقيق عبد المنعم، عبد الله عامر، القاهرة ١٩٧٠.
 - اشتور، (آ):
 - ٥- التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ترجمة عبد الهادي عبلة، دمشق، دار قتيبة ١٩٨٥.
 - الأصبائي، (أبو الفرج بن الحسين):
 - ٦- الأغاني، بيروت، مؤسسة جمال للطباعة والنشر.
 - ٧- مقاتل الطالبين، القاهرة، ١٩٤٩.
 - ابن الأعمش، (أبو محمد أحمد):
 - ٨- الفتوح، الهند، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ببيدر آباد، ١٩٦٨م.
 - الأعشى، (عبد الرحمن بن عبد الله):
 - ٩- ديوان الأعشى، بيروت.
 - أفتيشوس (المكنى بسعيد بن البطريق):
 - ١٠- التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين.

- بدر، (أحمد):
- ١١- دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها، جامعة دمشق، ١٩٦٩م.
- بخيت، (عبد الحميد)
- ١٢- عصر الخلفاء الراشدين، القاهرة، ١٩٧٧م.
- البغدادى، (عبد القادر طاهر)
- ١٣- الفرق بين الفرق، بيروت، دار الآفاق الحديثة، ١٩٨٠.
- البلاذري (أحمد بن يحيى)
- ١٤- أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميد الله، مصر، دار المعارف.
- ١٥- فتوح البلدان، القاهرة ١٩٠١م.
- بوضون، (إبراهيم)
- ١٦- تاريخ العرب السياسي، بيروت، دار الفكر، ١٩٧٤
- البيهقي، (أبو بكر أحمد بن الحسين)
- ١٧- دلائل النبوة، تعليق عبد المعطي قلنجي، بيروت، دار الكتب العلمية.
- الجاحظ، (أبو عثمان عمرو بن بحر)
- ١٨- التاج في أخلاق الملوك، تحقيق فوزي عطوي، بيروت الشركة اللبنانية للكتاب.
- الجهشياري، (محمد بن عبدوس)
- ١٩- الوزراء والكتاب، تحقيق الأنباري، القاهرة، ١٩٣٨.
- ابن حبيب (عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله يوسف)
- ٢٠- غزوات ابن حبيب، تحقيق سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، ١٩٩٢م.
- ابن حبيب، (أبو جعفر محمد)
- ٢١- المحبر، بغداد، مكتبة المثنى ١٩٤٢م

- حسن، (حسن إبراهيم)
- ٢٢- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٩٤م.
- ٢٣- النظم الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٢.
- حلاق، (حسان وآخرون):
- ٢٤- مقدمة في تاريخ العرب السياسي، بيروت.
- الحموي، (شهاب الدين)
- ٢٥- معجم البلدان، القاهرة، مطبعة السعادة، ١٩٠٦م.
- حميد الله، (محمد):
- ٢٦- الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، دار الإرشاد، ١٩٦٩م.
- الحنبلي، (مجير الدين)
- ٢٧- الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، عمان، الأردن، مكتبة المحتسب، ١٩٧٣.
- الخالدي، (عبد الله)
- ٢٨- شذرات في مادة النظم الإسلامية، بيروت، دار الرشاد الإسلامي، ١٩٩٠.
- الخربوطلي، (علي):
- ٢٩- الدولة العربية الإسلامية، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٠م.
- ابن خلدون، (عبد الرحمن بن محمد)
- ٣٠- المقدمة، بيروت، دار العودة، ١٩٨١.
- أبو خليل، (شوقي)
- ٣١- في التاريخ الإسلامي، دمشق، دار الفكر، ١٩٩١م.

- حمّاش، (نجدة)
- ٣٢- خلافة بني أمية في الميزان، دمشق، دار طلاس، ٢٠٠١، ط ١.
- ٣٣- الشام في صدر الإسلام، دمشق، دار طلاس، ١٩٨٧م.
- حمّاش وعافل، (نجدة ونبية):
- ٣٤- الدولة العربية الإسلامية الأولى، جامعة دمشق.
- ابن خياط، (خليفة)
- ٣٥- تاريخ خليفة، دمشق، ١٩٦٧.
- دسوقي، (محمد عزت)
- ٣٦- القبائل العربية في بلاد الشام من ظهور الإسلام إلى نهاية العصر الأموي، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٨.
- دكسن، (عبد الأمير):
- ٣٧- الخلافة الأموية، بيروت، دار النهضة، ١٩٧٣.
- الدوري، (عبد العزيز)
- ٣٨- مقدمة في التاريخ الاقتصادي، بيروت، ١٩٦٨م.
- ٣٩- مقدمة في صدر الإسلام، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٦١م.
- الديار بكري، (حسين بن محمد بن الحسن):
- ٤٠- تاريخ الحميس في أحوال أنفس نفيس، بيروت، دار صادر.
- الذهبي، (أبو عبد الله شمس الدين محمد):
- ٤١- تاريخ دول الإسلام، تحقيق فهد محمد شلتوت، ومحمد مصطفى إبراهيم، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٤.

• الرفاعي، (أنور)

٤٢- الإسلام في حضارته ونظمه، ١٩٧٣م.

• زكار، (سهيل)

٤٣- تاريخ العرب والإسلام، بيروت، دار الفكر، ١٩٧٩.

٤٤- القدس في التاريخ، القيادة الشعبية الإسلامية الأولى.

٤٥- اليرموك والفتح العربي الإسلامي، بيروت، دار الفكر، ٢٠٠٢م.

• زيتون، (عادل):

٤٦- تاريخ العرب والإسلام، جامعة دمشق، ٢٠٠٠، ط ٥.

• زيود، (أحمد):

٤٧- التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للعالم الإسلامي، جامعة دمشق ١٩٩٤.

٤٨- تاريخ العرب والإسلام، جامعة دمشق ١٩٩٥.

• سالم، (عبد العزيز):

٤٩- تاريخ الدولة العربية، مؤسسة شباب الجامعة ١٩٩٣.

• سرور، (محمد جمال الدين):

٥٠- قيام الدولة العربية الإسلامية، دار الفكر العربي.

• ابن سعد، (أبو عبد الله محمد)

٥١- الطبقات، بيروت، دار صادر.

• السمهودي، (نور الدين علي بن أحمد)

٥٢- وفاء الوفاء، دار إحياء التراث العربي ١٩٨٤.

• ابن سيد الناس، (فتح الدين أبو الفتوح محمد)

٥٣- عيون الأثر في فتون المغازي والشمال والسير، بيروت، دار الجيل، ١٩٧٤.

- السيوطي، (جلال الدين عبد الرحمن):
- ٥٤- تاريخ الخلفاء، تحقيق لجنة من الأدباء، بيروت، دار الثقافة.
- الشامي، (فاطمة قدورة)
- ٥٥- تطور تاريخ العرب، بيروت، دار النهضة ١٩٩٧.
- شجاع، (عبد الرحمن)
- ٥٦- دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، صنعاء، دار الفكر المعاصر ١٩٩٩م.
- شعبان، (محمد عبد الحفي):
- ٥٧- صدر الإسلام، والدولة الأموية، بيروت، ١٩٨٧م.
- شنيور، (إبراهيم علي)
- ٥٨- الفتح العربي الإسلامي لجنوب بلاد الشام، دمشق، وزارة الثقافة، ٢٠١١م.
- الشهرستاني، (محمد بن عبد الكريم):
- ٥٩- الملل والنحل، القاهرة، ١٣١٧هـ.
- الصالح، (صباحي)
- ٦٠- النظم الإسلامية نشأتها وتطورها، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٢.
- ابن طباطبا، (محمد بن علي)
- ٦١- الفخري في الآداب السلطانية.
- الطبري، (أبو جعفر محمد بن جرير)
- ٦٢- تاريخ الرسل والملوك، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار المعارف.
- عاقل، (نبية)
- ٦٣- الإمبراطورية البيزنطية، جامعة دمشق ١٩٧٠.
- ٦٤- دراسات في تاريخ العصر الأموي، جامعة دمشق ١٩٩٢.

- ابن عبد البر، (أبو عمر يوسف)
- ٦٥- الدرر في اختصار المغازي والسير، تحقيق محمد سيد جاد الحق، القاهرة، دار الكتب الحديثة.
- ابن عبد الحكم، (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله)
- ٦٦- فتوح مصر، ليدن ١٩٢٠.
- ابن عبد ربه، (أحمد بن أحمد)
- ٦٧- العقد الفريد، تحقيق محمد مفيد قمحية، بيروت، دار الكتب العلمية.
- العدوي، (إبراهيم أحمد)
- ٦٨- الأمويون والبيزنطيون، الدار القومية للطباعة والنشر، ط ٢.
- ابن عذاري المراكشي، (أبو عبد الله محمد)
- ٦٩- البيان المغرب في أخبار المغرب، بيروت، دار الثقافة.
- ابن العربي، (أبو بكر)
- ٧٠- العواصم والقواصم، المطبعة السلفية ١٣٧١هـ.
- ابن عساكر، (أبو القاسم علي):
- ٧١- التاريخ الكبير، دمشق، مجمع اللغة العربية.
- العقاد، (عباس محمود)
- ٧٢- العبقريات العسكرية، بيروت، دار الآداب، ١٩٦٨م.
- عمر، (فاروق)
- ٧٣- طبيعة الدعوة العباسية، بيروت، ١٩٧٠م.
- عنان، (عبد الله)
- ٧٤- دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، ١٩٤٣، ط ١.

- عيسى، (رياض)
- ٧٥- الحزبية السياسية منذ قيام الإسلام حتى سقوط الدولة الأموية، ١٩٩٢م.
- الفاسي، (أبو الطيب تقي الدين بن أحمد بن علي)
- ٧٦- شفاء الغرام في أخبار البلد الحرام، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، ١٩٨٥م.
- أبو الفداء، (إسماعيل)
- ٧٧- المختصر في أخبار البشر، صيدا، مطبعة العرفان، ١٩٥٩م.
- فلهوزن، (يوليوس):
- ٧٨- الدولة العربية، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريذة، وحسين مؤنس، القاهرة ١٩٦٨م.
- فلوتن، (فان)
- ٧٩- السيادة العربية والشيعة، والإسرائيليات في عهد بني أمية، ترجمة حسن إبراهيم حسن، ومحمد إبراهيم، ١٩٣٤، ط ١.
- ابن قتيبة الدينوري، (أبو محمد عبد الله)
- ٨٠- الأخبار الطوال، القاهرة، ١٩٦٠م.
- ٨١- الإمامة والسياسة، القاهرة، المكتبة التجارية.
- ٨٢- الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، مصر، دار المعارف، ١٩٦٦.
- ٨٣- القرآن الكريم.
- كاهن، (كلود)
- ٨٤- تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ترجمة بدر الدين القاسم، بيروت، ١٩٧٢.

- ابن كثير، (إسماعيل أبو الفدا)
- ٨٥- البداية والنهاية، بيروت، دار المعارف ١٩٦٦.
- القلاعي، (أبو الربيع سليمان بن موسى)
- ٨٦- الاكتشاف في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، تحقيق مصطفى عبد الواحد، القاهرة ١٩٦٨ م.
- لجنة من أساتذة جامعة الأزهر:
- ٨٧- دراسات في السيرة النبوية وعصر الخلفاء الراشدين ١٩٩٩.
- الماوردي، (أبو الحسن علي بن محمد حبيب البصري)
- ٨٨- الأحكام السلطانية، مصر، مصطفى الباقي الحلبي، ١٩٦٠، ط ١.
- المباركفوري، (صفي الدين)
- ٨٩- الرحيق المختوم، المطبعة العالمية ٢٠٠١.
- المسعودي، (أبو الحسن علي بن السجين)
- ٩٠- مروج الذهب، بيروت، دار الأندلس، ١٩٨٤، ط ١.
- معروف، (نايف)
- ٩١- الخوارج في العصر الأموي، بيروت، ١٩٧٧.
- المقرئ، (أبو العباس أحمد)
- ٩٢- نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب، القاهرة، ١٩٤٩.
- المقرئ، (تقي الدين)
- ٩٣- إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع، القاهرة، ١٩٤١.

• مؤلف مجهول:

٩٤- تاريخ الخلفاء، بعناية بطرس غرياز نيفتش، موسكو، ١٩٦٧.

• النصولي، (أنيس زكريا)

٩٥- الدولة الأموية في الشام، بغداد، ١٩٢٧.

• النوبختي، (أبو محمد الحسن)

٩٦- فرق الشيعة، أسطنبول، ١٩٣٠.

• ابن هشام، (أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري)

٩٧- السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وغيره، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

• الواقدي، (محمد بن عمر)

٩٨- فتوح الشام، القاهرة، ١٣٠٩هـ.

٩٩- المغازي، تحقيق مارسدن جونز، بيروت، مؤسسة الأعلمي.

• اليعقوبي، (أحمد بن أبي يعقوب):

١٠٠- البلدان، العراق، المطبعة الحيدرية.

١٠١- تاريخ اليعقوبي، بيروت، دار صادر، ١٩٦٠م.

• أبو يوسف، (يعقوب بن إبراهيم)

١٠٢- الخراج، القاهرة، المطبعة الأميرية ١٩٠٢هـ.

المراجع الأجنبية:

103. Barthold. Turkestan down to the Mongol.

104. Bury. J. B. A. History of the later Roman Empire. Ed. London
1931.

105. Vasiliev: (A.A) History of the Byzantine Empire Wisconsin,
1952.

اللجنة العلمية

أ.د. سهيل زكار.

أ.د. سميحة أبو الفضل.

أ.د. اكتمال إسماعيل.

المدقق اللغوي:

أ.د. سكينه موعد

حقوق الطبع والترجمة والنشر محفوظة لمديرية الكتب والمطبوعات